

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة بغداد

كلية التربية (ابن رشد)

قسم اللغة العربية

التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني

(دراسة بلاغية)

أطروحة تقدمت بها

جنان منصور كاظم الجبوري

إلى مجلس كلية التربية / ابن رشد

وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة

في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور

قيس اسماعيل محمود الأوسي

٢٠٠٥ م

١٤٢٦ هـ

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥ - ١	المقدمة .
١٨ - ٦	التمهيد: التطور الدلالي (مفهومه وروافده) ، وأثر القرآن العظيم في تطور البحث الدلالي :
١١ - ٦	أ- التطور الدلالي (مفهومه وروافده).
١٨ - ١١	ب- أثر القرآن العظيم في تطور البحث الدلالي .
٩١ - ١٩	الفصل الاول :التطور الدلالي لأركان البلاغة العربية في القرآن الكريم .
٥١ - ٢٦	المبحث الاول: تطور المجاز في القرآن الكريم.
٦١ - ٥٢	المبحث الثاني: تطور التشبيه في القرآن الكريم .
٧٦ - ٦٢	المبحث الثالث: تطور الاستعارة في القرآن الكريم.
٩١ - ٧٧	المبحث الرابع: تطور الكناية في القرآن الكريم .
١٤٧ - ٩٢	الفصل الثاني: ظواهر التطور الدلالي في ألفاظ القرآن الكريم.
١١٠ - ٩٥	المبحث الاول: تطور الدلالة الصوتية.
١٢٢ - ١١١	المبحث الثاني: تطور الدلالة الاجتماعية .
١٣٣ - ١٢٣	المبحث الثالث: تطور الدلالة الايحائية.
١٤٧ - ١٣٤	المبحث الرابع : تطور الدلالة الهامشية.
١٨٥ - ١٤٨	الفصل الثالث: وظيفة التطور الدلالي في ألفاظ النصّ القرآني.
١٦١ - ١٥٠	المبحث الاول : وظيفته الفنية.
١٧٢ - ١٦٢	المبحث الثاني: وظيفته العقلية.
١٨٥ - ١٧٣	المبحث الثالث: وظيفته النفسية.
١٨٩ - ١٨٦	خاتمة البحث ونتائجه .
٢٠٩ - ١٩٠	مصادر البحث ومراجعته .
1-2	ملخص الأطروحة باللغة الانكليزية.

المقطعة

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي هدى أوليائه نهجَ الهدى، وأجرى على أيديهم الخيراتِ
ونجّاهم من الردى، وأصلّى وأسلم على سيّدنا المنقذِ مِنَ الضلالةِ والعمى ، محمّدٍ
المُصطفى ﷺ ، وعلى آله الطاهرين، وصحبه أعلامِ التقى.

وبعدُ .. فلقد أحدثَ القرآنُ الكريمُ تغييرًا كبيرًا في الحياة العقلية والاجتماعية
والدينية للأمة العربية، وماكان ذلك إلا بتأثير لغته العالية في نفوسهم، فأعجزتهم
عن مجاراته والإتيان بمثله رغم أنّهم أئمة البيان.

لذا فقد شغلّني بلاغةُ القرآن الكريم في أيام دراستي الجامعية لنيل شهادة
البكلوريوس، وأثارت اهتمامي أكثر في دراستي لنيل شهادة الماجستير، وأنا أنهلُ
من القرآن الكريم، والكتب التي ألفت لخدمته، وبيان إعجازه، فكان من ثمرتها علمُ
البلاغة العربية.

فكانت الرغبةُ في دراسة بلاغية تطبيقية لدلالة الألفاظ التي تحمل أكثر من
معنى، وللتعريف الدلالي عبر السياق القرآني، لما في التعبير القرآني من ميزة
جمالية فنية خاصة، مكنته من إعطاء الألفاظ لونا براقًا، وطعمًا لذيذًا، ولحنا خالدًا.
كانت هي الدافع وراء اختياري لموضوع دراستي الموسوم بـ (التطور الدلالي
للألفاظ في النص القرآني - دراسة بلاغية) ، في محاولة جادة لنهل شيء من لغة
القرآن العظيم ، الذي يُعدُّ ينبوعًا ثرًا تستقي منه الدراسات ، التي يكمل بعضها
البعض، فكلما جاءت دراسة تفتت أزاهير دراسة أخرى. فمن الدراسات السابقة
التي اعتمد عليها البحث في انطلاقاته:

- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن - عودة خليل ابو عودة .
 - البحث الدلالي في تفسير الميزان - مشكور كاظم العوادي .
 - الدلالة الصوتية في القرآن الكريم - كريم مزعل محمد اللامي .
 - الألفاظ العقلية في القرآن الكريم (دراسة دلالية) - روعة محمود الزرري .
 - التراكم الدلالي في النص القرآني - مجيد طارش عبد .
 - الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم - محمد جعفر محيسن .
- وفضلاً عن هذه الدراسات ، كانت أصول اللغة والبلاغة ومعاني القرآن وتفسيره أصلاً لدراستي الدلالية البلاغية، ومنها : (لسان العرب) ، و(المفردات في غريب القرآن) ، و(التيبان في تفسير غريب القرآن) ، و(الكشاف)، و(تفسير النسفي)، و(روح المعاني) ، و(الاتقان في علوم القرآن) ، وكتب البلاغة التي أخذت على عاتقها تبيان جمالية المفردة ، والنقاط المعاني الدقيقة التي جاء بها النظم القرآني ، وهناك عدد غير قليل أيضاً من المصادر والمراجع والأطاريح والدوريات التي أغنت البحث بمادة غزيرة جزلة.
- اقتضت خطة البحث أن تكون الاطروحة في ثلاثة فصول، يسبقها تمهيد تتناول بالدراسة مفهوم التطور الدلالي وروافده ، وأثر القرآن العظيم في تطور البحث الدلالي.
- وجاء الفصل الأول بعنوان (التطور الدلالي لأركان البلاغة العربية في القرآن الكريم) ، درست فيه (تطور المجاز في القرآن الكريم ، وتطور التشبيه في القرآن الكريم، وتطور الاستعارة في القرآن الكريم، وتطور الكناية في القرآن الكريم) .

ودرستُ في الفصل الثاني (ظواهر التطور الدلالي في ألفاظ القرآن الكريم)، وهي : (تطورُ الدلالة الصوتية، وتطورُ الدلالة الاجتماعية، وتطورُ الدلالة الايحائية، وتطورُ الدلالة الهامشية) .

ودرست في الفصل الثالث: (وظيفة التطور الدلالي في ألفاظ النصّ القرآني) ، وهي (وظيفته الفنيّة، ووظيفته العقلية ، ووظيفته النفسية) .

وختمتُ البحثَ بتسجيل أبرز النتائج التي توصلتُ إليها دراستي للموضوع. ولأبدُ هنا من الإشارة إلى أنّ معاني الأمانة والوفاء تقتضياني أن أبقى دائماً الشكر والتقدير والامتنان لأستاذي الذي أشرف على دراستي هذه (الأستاذ الدكتور قيس اسماعيل الأوسي)، لجهده المتميز في الإشراف العلمي الدقيق على البحث في مراحل إعدادهِ جميعاً، بدءاً بوضع خطته، ومروراً بجمع مادّته، وكتابة فصوله، وطبعه ، وقد تفحص فصوله بقراءته العلميّة الناقدة، فقومَ ما اعوجَّ منها، وجبرَ عثراتها ، وعالج ما أصابها من وهنٍ، يدفعه إلى ذلك كله إيمانه الراسخ بأنّ البحث عملٌ مشتركٌ بين الطالب والأستاذ، والمشرف عليه ، يشتركان في المسؤولية عنه نجاحاً وتفوقاً، أو إخفاقاً. وهكذا تعلّمتُ منه دقّة البحث، وإتقانه، والصبرَ عليه ، فأسألُ الله تعالى أن يمُدَّ في عمره لينفعَ به أجيالاً من الباحثين بالتّلمذ له ، والتّخرُّج على يديه.

ولايفوتني أن أشكرَ كلَّ من مدَّ إليّ يدَ العون، وأسهمَ في تيسير الصُّعوباتِ التي واجهها البحثُ .



وأرجو أن أكون قد قدّمتُ أطروحةً ذات منهجٍ سليم، فإنّ وفّقتُ إلى ذلك
فبفضلِ من الله تعالى وتوفيقه، وإنّ كانت الأخرى، فلي من حسنِ النيةِ ما أعتذرُ به
إليكم.

وما توفّيقِي إلا بالله العليِّ العظيم، عليه توكّلتُ وإليه أنيب، وهو حسبي
ونعم الوكيل.

الباحثة

جنان منصور كاظم الجبوري

قسم اللغة العربية بكلية التربية (ابن رشد)

جامعة بغداد



التمهيد

التطور الدلالي (مفهومه وروافده)

وأثر القرآن العظيم في تطور البحث الدلالي

- أ - التطور الدلالي مفهومه وروافده.
ب - أثر القرآن العظيم في تطور البحث الدلالي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التمهيد

التَّطَوُّرُ الدَّلَالِي (مفهومه وروافده) ، وأثر القرآن العظيم في تطور البحث الدلالي

أ - التَّطَوُّرُ الدَّلَالِي (مفهومه وروافده):

(التَّطَوُّرُ) لغةً : ما عاكسَ الجُمُودَ والسُّكُونَ، بل هو التَّحَوُّلُ إلى الأَفْضَلِ^(١)،
جاء في القرآن الكريم ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾^(٢) .

و(التَّطَوُّرُ الدَّلَالِي) يعني : " تَغْيِيرَ مَعَانِي الكَلِمَاتِ . وإِطْلَاقُ لَفْظِ (التَّطَوُّرِ)
على هذه الحالة، لأنَّه انْتِقَالٌ بالكَلِمَةِ من طَوْرٍ إلى طَوْرٍ " ^(٣) . وظَاهِرَةُ التَّطَوُّرِ
لَا تَقْتَصِرُ على لُغَةٍ دُونَ أُخْرَى، بل هي ظَاهِرَةٌ عَامَّةٌ ، تَكَادُ تُشْمَلُ جَمِيعَ اللُّغَاتِ فِي
العَالَمِ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ يَعودُ إلى كَوْنِ اللُّغَةِ ظَاهِرَةً إجْتِمَاعِيَّةً ، تخضع لما تخضع له
الظواهرُ الاجْتِمَاعِيَّةُ من عَوَامِلِ التَّطَوُّرِ، فجميع اللغات مشمولة بهذا القانون ، وقد
لاحظنا ذلك واضحًا عند مجيء الإسلام ، فقد استبدل كثيرًا من الكلمات التي
لا يحسنُ وروُدُها على الألسن، واستعمل أيسرها على النطق، وأبينها في الدلالة

(١) ينظر : الجامع الصغير ٢٠٧/١ .

(٢) سورة نوح ١٧ . وقد جاء في كتب التفسير : إنَّ (أَطْوَارًا) تعني : تَارَاتٍ وَكَرَّاتٍ،
ينظر: تفسير النسفي ٢٨٣/٤ ، أي: نُطْفَةٌ، ثُمَّ عِلْقَةٌ ، ثُمَّ مُضْغَةٌ .. ينظر: الدر
المنثور ٢٩٠/٨ ، وروح المعاني ٧٣/٢٩ .

(٣) فقه اللغة وخصائص العربية ٢٠٧ .



التعميد
على المعنى، وحرصَ على مُطابِقَةِ القَوْلِ لمُقْتَضَى الحال. وهذا ما تتوخاهُ الفصاحةُ
والبلاغةُ في الاعرابِ عَنِ القَصْدِ وبيانِ المعنى. والصلَّةُ ما بينَ المعنى والدَّلالةِ
وطيدةٌ جدًّا، فالمعنى هو الموضوع الأساس لِـ(علم الدَّلالة) ، الذي يُعرِّفُهُ العلماءُ
بأنَّه : " العلمُ الذي يدرسُ المعنى " (٤) فَالدَّلالةُ " هي: المعنى، ودلالةُ أيِّ لفظٍ هي:
مَا يَنصَرِفُ إليه هذا اللَّفْظُ في الذَّهْنِ من معنى مُدْرَكٍ أو محسوس . وَالتَّلَازُمُ بينَ
الكلمةِ ودلالاتِها أمرٌ لا بُدَّ منه في اللِّغَةِ لِيَتَمَّ التَّفَاهُمُ بينَ الناسِ " (٥) .
ويمثِّلُ التَّطَوُّرُ الدَّلَالِي ، الذي هو تغييرُ معاني الكلمات ، ظاهرةً شائعةً في
جميع اللغاتِ، فقد أكَّدَ الدَّارِسون هذه الحقيقةَ، إذ يُشَبِّهونَ اللِّغَةَ بالكائنِ الحيِّ الذي
ينمو ويتطوَّرُ (٦) .

ولمَّا كانتِ اللِّغَةُ ظاهرةً اجتماعيةً، فهي عرضةٌ للتَّطَوُّرِ في مختلف
عناصرِها : أصواتِها، وتراكيبِها، ودلالاتِها، وإنَّ تطوُّرَها هذا يجري وفقًا
لاتجاهاتٍ عامَّةٍ رئيسةٍ، وذلك لِأَنَّ اللِّغَةَ ليست جامدةً بحالٍ من الأحوال ، على
الرَّغمِ من أنَّ تطوُّرَها قد يبدو بطيئًا في بعض الأحيان .

وتغيُّرُ المعنى ليس سوى جانبٍ من جوانبِ التَّطَوُّرِ اللِّغوي ، الذي يتمُّ
ضمن طبيعة اللِّغَةِ الخاصَّةِ، فلا شيءَ ثابتٍ أو مستقرٍّ فيها بصورة تامَّة، فكلُّ
صوتٍ ، وكلُّ كلمةٍ أو تعبيرٍ أو أسلوبٍ ، يُكوِّنُ شكلًا أو صورةً متغيِّرةً بِبطءٍ

(٤) لحن العامة والتطور اللغوي ٣٠ ، وينظر: علم الدَّلالة والمعجم العربي ٦٥ .

(٥) دور الكلمة في اللِّغَةِ ١٥٣ .

(٦) ينظر: فقه اللِّغَةِ وخصائص العربية ٣٢ .



وبقوةٍ غيرِ مرئيةٍ أو مجهولةٍ ، وتلكَ هي حياةُ اللغة^(٧) . وإنَّ التَّطَوُّرَ في اللغةِ يمكنُ أن يسيرَ في إحدى طرائقَ كثيرةٍ لا يمكنُ حصرُها، ذلكَ أنَّ العواملَ المؤثرةَ في تطوُّرِ اللغةِ لا يمكنُ أن تُضَبَّطَ وتُحصَرَ ، بل إنَّ بعضها غيرُ قابلٍ للحصرِ بطبيعتهِ الخارجةِ عن النُّطاقِ اللُّغويِّ ، فَلِلحوادثِ التَّاريخيةِ ، والعواملِ الدِّينيةِ والاجتماعيةِ ، أثرٌ كبيرٌ في توجيهِ هذا التَّطَوُّرِ وجهةً دونَ أُخرى^(٨) ، كما إنَّ الالفاظَ تتبدَّلُ معانيها قليلاً أو كثيراً خلالَ الزمنِ . وعلى ذلكَ فإنَّ سائرَ عناصرِ اللغةِ ، من أَلْفَاظٍ وتراكيبَ وقوالبَ ومعانٍ ، لا تبقى ثابتةً على مرِّ الزمنِ، بل تتحوَّلُ وتتبدَّلُ ، لِذلكَ فإنَّ البحثَ في اللغةِ لا يَكُونُ بالنَّظرِ إلى وَضْعِها في عصرٍ من العصورِ، بل بالنَّظرِ إلى المراحلِ التي مرَّت بها خلالَ العصورِ، من جوانبِها كافةً كالأصواتِ، والصَّيغِ، والمعاني، وطرائقِ تراكيبِ الكلامِ، والتَّعبيرِ عن الزمنِ ، أو العددِ (الجمعِ والمفردِ) ، أو الجنسِ (المذكرِ والمؤنثِ) . وطالما أنَّ اللُّغةَ ، كسائرِ الظواهرِ الاجتماعيةِ، يطرأُ عليها التَّبدُّلُ والتَّغْيِيرُ، لذا تَجِبُ مُراعاةُ فكرةِ التَّطَوُّرِ في سائرِ البحوثِ اللُّغويةِ^(٩) ، ولاسيما في بحوثِ التَّطَوُّرِ الدَّلاليِّ وتاريخِ الالفاظِ ، إذ تخضعُ عمليةُ البحثِ لِسُبُلٍ لا يسهلُ حصرُها لِتَشَعُّبِها ، ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ الدارسينَ قد سعوا إلى وضعِ ترتيبٍ يَنْتَظِمُ أسبابَ تطوُّرِ الدَّلالاتِ والعواملِ المؤثرةِ فيها، وعلى الرَّغمِ من كثرةِ تفاصيلِها، يُمكننا أن نُجملَها في قسمينِ:

(٧) ينظر: دور الكلمة في اللغة ١٥٣ .

(٨) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية ٣٢ .

(٩) ينظر: المصدر نفسه ٣١ .



(الأول): أسباب خارجية : تهتم بدراسة التطور في اللغات في كل بيئة تبعاً للمتغيرات الاجتماعية والدينية والنفسية، فالتطور الاجتماعي في أغلب الأحيان يؤدي إلى تطور لغوي، فتموت ألفاظ ، وتنبعث أخرى، وتتبدل معاني بعضها، فالألفاظ تستعمل عبر الأجيال ، ونتيجة لاستعمالها يُغرم أناس بمعاني الألفاظ الهامشية، ويبقى معظم الناس يشتركون في استعمالها بمعناها المركزي، ويرث الجيل التالي ماشاع من دلالات هامشية ومركزية ، ومع توالي الأيام يتضخم الانحراف، وتصبح الدلالة الهامشية شائعة، ويبدو للجيل الوارث أن للكلمة معنيين أو دالتين، مع أن الربط بينهما ضعيف^(١٠) . وقد يقترن التطور بظهور مفردات لغوية جديدة دلالة واشتقاقاً، وتعد في هذا الجانب ألفاظ كثيرة قد ظهرت بدلالات جديدة بظهور الإسلام، كالصوم والصلاة والحج والزكاة والجهاد ، تدعى بـ(الألفاظ الإسلامية) ، وفرض على المسلمين أن يعمدوا إلى كتاب الله فيفسروه، يتعقبوا ألفاظه. وكانت الحاجة إلى معرفة لغة القرآن وغريبه سبباً في بحوث لغوية عن المعنى والدلالة (١١) .

وقد تدعو أسباب نفسية متنوعة إلى تجنب كثير من الألفاظ، والعدول عنها إلى غيرها، حياءً ، أو خوفاً ، أو دفعاً للتشاؤم ، ولها أمثلة كثيرة، كالعدول عن التلفظ بمفردات الأمراض والعاهات والموت، إلى مفردات أخرى قد تدل على

(١٠) ينظر: علم الدلالة والمعجم العربي ٨١ ، وعلم اللغة ٢٢٨-٢٣٠، ومعجم مقاييس

اللغة لابن فارس (دراسة دلالية في ضوء علم اللغة الحديث) ٨٨.

(١١) ينظر: دراسات في اللغة ١٤٤ .



التعميد وفي العربية الفصحى استعمالاً من هذا النوع، فقد أطلق العربُ على الأعمى تسمية (البصير) ، وعلى الصحراء تسمية (المفازة).

ومن هذه الأسباب أيضاً قصدُ المتكلمين باللغة إلى تبديل الألفاظ الدالة على المعاني ، لأسباب مذهبية أو سياسية ، وكثيراً ما يُعدُّ العُدولُ عن المواضع الدينية والسياسية ، في الاصطلاحات الخاصة بها، تعبيراً عن الخروج على الموقف العدائي (١٢) .

(والآخر): أسباب داخلية: وهي المتصلة بالصيغ والأشكال اللغوية وعلاقتها في لغة من اللغات (١٣) ، ومردُّ ذلك إلى حاجة الناطقين بها ، لأنَّ اللغة أداة للتعبير عن أفكار الناس وحاجاتهم، ولأنَّ الأفكار والحاجات في تطوُّر مستمر، فالدعوة إلى التجديد في التعبير يُقصدُ إليها قصداً، وتتمُّ عن عمدٍ في ألفاظ اللغة، والسُّبُل إلى التجديد كثيرةٌ ، منها : التخصيصُ ، والتعميمُ ، وانتقالُ الدلالة ، والنحتُ، والاشتقاقُ ، و(التعريبُ) ، أي : إخضاعُ الألفاظ الأجنبية للعربية (١٤) .

ب - أثر القرآن العظيم في تطوُّر البحث الدلالي

يُقدِّم علم التفسير ، والبحثُ في غريب القرآن وإعجازه ، أمثلةً رائعةً للغويَّات النصِّ التطبيقية في تحليل النصوص ، وربطها بوقائع حياة المتعاملين بها، كما تمثِّلُ بعضُ مباحث علم أصول الفقه علمَ الدلالة الإسلامي التطبيقية (١٥) .

(١٢) ينظر: مقدمة لدراسة التطور الدلالي في العربية الفصحى في العصر الحديث ٣٠ .

(١٣) ينظر: الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ٢٠٣ .

(١٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة (دراسة دلالية في ضوء علم اللغة الحديث) ٩٢ .

(١٥) ينظر: نحو علم خاص بالعلوم الشرعية ٢٠ .



فَاللُّغَةُ ، وكما ذكر ابنُ جنِّي (٣٩٢هـ) ، " أصواتٌ يُعَبَّرُ بها كُلُّ قومٍ عن أغراضِهِم " (١٦) ، إلاَّ أنَّ هذه الأصوات قد تكونُ واحدةً في اللّهجات العربيّة، ولكنّ ما ترمزُ إليه يكونُ مختلفاً، وهذا ، من غيرِ شكٍّ ، من مظاهرِ اختلافِ اللّهجات، لذا عُدَّتِ المعرفةُ اللغويّةُ من أهمِّ الأدواتِ التي استعانَ بها العلماءُ في فهمِ النصوصِ القرآنيّة (١٧) ، ففرضتْ علومُ القرآنِ على المسلمين أن يَعْمَدُوا إلى كتابِ الله فيفَسِّرُوهُ، ويتعقَّبُوا ألفاظَهُ، وكانتِ الحاجةُ إلى معرفةِ لغةِ القرآنِ وغريبِهِ سبباً في خوضِهِم في بحوثٍ لغويّةٍ عن المعنى والدلالة، مثل تسجيلِ معاني الغريبِ في القرآنِ الكريمِ والحديثِ، وعن مجازِ القرآنِ، والتأليفِ في الوجوهِ والنظائرِ في القرآنِ الكريمِ ، وتأليفِ المعاجمِ، وحتى ضبطِ المصحفِ بالشكلِ يُعَدُّ في حقيقتهِ عملاً دلاليّاً؛ لأنَّ تغييرَ الضبطِ يُؤدِّي إلى تغييرِ المعنى (١٨) .

ولعلَّ مسائلَ نافعِ بنِ الأزرقِ الموجهةً إلى ابنِ عباسٍ (رضي الله عنه) هي الخطوةُ الأولى في تفسيرِ غريبِ القرآنِ، والاستدلالِ على الألفاظِ الغريبةِ بالشعرِ العربي ، الذي أُلْفَهُ العربُ قبلَ نزولِ القرآنِ الكريمِ فيهم، فكان سجّلَ حياتِهِم ولُغَتِهِم (١٩) . ثم توالى التأليفُ في هذا المجالِ، فألّفَ الفراءُ (٢٠٧هـ) كتابه "معاني القرآن" وألّفَ أبو عبيدة (٢١٠هـ) كتابه "مجاز القرآن" ، وغيرهم كثيرٌ ممن وَضَعُوا تصانيفَ تدورُ في فلكِ الغريبِ وإيضاحِهِ ، حتى إذا وصلنا إلى ابنِ

(١٦) ينظر: الخصائص ٣٣/١ .

(١٧) ينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنّي ٢٣٩ .

(١٨) ينظر: دراسات في اللغة ١٤٤ .

(١٩) ينظر: الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ٢٨٩ .



التصميم
قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ) وجدناه يضع كتابين مهمين في هذا المجال ، أولهما
وأوسعهما " تأويل مُشكل القرآن " ، ثم أرفهه بكتابه الآخر " تفسير غريب القرآن "
تكملة لكتابه الأول (٢٠) .

ولما كان القرآن الكريم ، الذي يُمثل الذروة البيانية في الموروث البلاغي
عند العرب ، يبتعد عن النمط الجاهلي في ألفاظه، ويستقل بمدلولاته ، ولا أثر فيه
لبينة اقليمية أو زمنية، فقد أصبح المحور الرئيس للبحث الدلالي ، إذ يعد نصاً
عريباً ذا طابع اعجازي، وكتاباً الهياً ذا منطوق عربي، فأفاض الباحثون الحديث في
جوانب العظمة البلاغية، والسمو الأدبي ، في أسلوب القرآن الكريم ، لأن القرآن
الكريم سلطاناً على القلوب لا يُعالب، وحكماً لا يُرد ، ذلك أن القرآن الكريم يُخاطب
قوى الإدراك في الإنسان مُجمعة، سواءً أكانت قوى مُفكرة، أم قوى وجدانية ، أم
قوى مُلهمة ، وبتعبير آخر: إن القرآن الكريم يُخاطب العقل والروح والقلب في آن
واحد.

لقد شغلت قضية الإعجاز القرآني العلماء، فأفردوا لها مؤلفات مستقلة
تبحث في الاعجاز وأسبابه، وتبين مزايا التنوع في أساليب القرآن، والكشف عن
الأسرار اللغوية والبلاغية فيه ، ككتاب " نظم القرآن " للجاحظ (٢٥٥هـ) ، إلا أنه
لم يصل إلينا، وإنما ذكره الجاحظ في كتابه " حجج النبوة" ، وأشار إليه الباقلاني
(٣٠٤هـ) في كتابه " إعجاز القرآن" . وكتاب " إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه"
للواسطي (٣٠٦هـ)، ورسالة الخطابي (٣٨٨هـ) في إعجاز القرآن (٢١) .

(٢٠) ينظر: منهج النسفي في الكشف عن دلالة الألفاظ من خلال كتابه (طلبة الطلبة) ٥٤.

(٢١) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ١٦-١٨.



فعمليةُ مُقَابِلَةِ الألفاظِ بِمَا تَعْنِيهِ أَصْوَاتُهَا مِنَ المعاني ، بابٌ عَظِيمٌ واسعٌ ، ولو تَأَمَّلْنَا كِتَابَ (معجم مقاييس اللغة) لابنِ فَارِسِ (٣٩٥هـ-) ، لَوَجَدْنَا هَذَا الرَّجُلَ صَاحِبَ نَظَرِيَّةٍ فِي دَلَالَةِ الألفاظِ ، فَكُتَابُهُ يُعْنَى بِالكَشْفِ عَنِ الصَّلَاتِ القَائِمَةِ بَيْنَ الألفاظِ والمعاني فِي أَكْثَرِ مِنْ وَجْهِ ، وَيُشِيرُ إِلَى تَقْلِبَاتِ الجذورِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى المعاني ، فَهُوَ يُعَدُّ مِنَ الأوائِلِ الَّذِينَ اهْتَمُّوا بِإِجَادِ صِلَةٍ بَيْنَ المَدْلُولَاتِ المُخْتَلَفَةِ لِلكَلِمَةِ الواحِدَةِ ، وَمُحاوِلَةِ إِرْجَاعِهَا إِلَى أَصُولِهَا ، وَتَوْضِيحِ تِلْكَ الصِّلَةِ ، وَإِنْ لَمْ تَخُلْ المعاجِمُ السَّابِقَةُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الإِشَارَاتِ ، إِذْ يُعَدُّ الخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الفَرَاهِيدِي (١٧٥هـ-) الرَّائِدَ الأَوَّلَ فِي هَذَا المِجَالِ فِي مَعْجَمِهِ الأَصِيلِ " العَيْنِ " ، حِينَ بَحَثَ فِي تَرَكَيبِ الكَلِمَاتِ مِنْ مَوَارِدِهَا الأَوَّلِيَّةِ فِي الجَذْرِ البَنِيَوِيِّ الحَرْفِيِّ ، وَمِنْ ثَمَّ تَقْسِيمِهِ عَلَى مَا يَتَحَمَّلُهُ مِنَ الألفاظِ مُسْتَعْمَلَةٍ وَأُخْرَى مَهْمَلَةٍ ، لَدَى تَقْلِبِ الحَرْفِ فِي التَّرْكَيبِ . وَيُشِيرُ ابْنُ فَارِسٍ فِي كِتَابِهِ " الصَّاحِبِي فِي فَهْمِ اللُّغَةِ " إِلَى أَنَّ الأَسْمَاءَ عِلَامَاتٌ دَالَّةٌ عَلَى مُسَمِّيَّاتِهَا ، فَيُحَدِّدُ مَرْجِعِيَّةَ الدَّلَالَةِ بِثَلَاثَةِ مَحَاوِرَ ، هِيَ : (المعنى) و(التفسير) و (التأويل) ، فَالكَلِمَةُ فِي الأَصْلِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى وَاسِعٍ يَجْمَعُ المَدْلُولَاتِ المُتَنَوِّعَةَ أَوْ المُتَفَرِّقَةَ ، فَلَيْسَتْ المَدْلُولَاتُ المُتَنَوِّعَةُ إِلاَّ دَلَالَاتٌ هَامِشِيَّةٌ أَوْ ظِلَالٌ مَعْنَى لِلْمَعْنَى المَرْكَزِي (٢٢) .

وهذا مانجده عند عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في كلامه على الدلالة من خلال نظرية النظم، فهو يتكلم على الصيغة الفنية التي خلص إليها في شأن الدلالة، إذ يقول: "وَجَبَّ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَدْلُولَ اللَّفْظِ لَيْسَ هُوَ وَجُودُ المَعْنَى أَوْ عَدْمُهُ ،

(٢٢) ينظر: الصَّاحِبِي فِي فَهْمِ اللُّغَةِ : ٨٨-٨٩ ، وَتَطَوَّرَ البَحْثُ الدَّلَالِي ٣٤-٣٨ ، وَمَعْجَمُ مَقَايِيسِ اللُّغَةِ لِابْنِ فَارِسٍ (دِرَاسَةٌ دَلَالِيَّةٌ فِي ضَوْءِ عِلْمِ اللُّغَةِ الحَدِيثِ) ١٠٧-١٠٨ .



التصعيد
ولكن الحكم بوجود المعنى أو عدمه" (٢٣). فالألفاظ دالة على المعاني لاشك ،
ولكن الحكم القطعي عقلياً بوجود المعاني التي تدلُّ عليها الألفاظ هو الأمرُ
المبحوثُ عنه وجوداً أو عدماً، فدلالة الألفاظ لديه مرتبطة بما تُفيدُ من معنى عند
التركيب، فجمالية المعاني تعودُ إلى حسن التَّأليف ورفقة التَّركيب، فالدَّلالة عنده
فيما انتظم فيه الكلامُ، فدلت أَلْفاظُه على معانيه جُملياً (٢٤) .

وفضلاً عن دراسات البلاغيين التي تناولت جانب المعنى، نجد دراسات
الأصوليين التي سبقت ، في كثير من نتائجها ، دراسة المعنى في العصر الحديث،
ضمت هذه الدراسات موضوعات ، مثل دلالة اللفظ من حيث العموم والخصوص،
والمشترك، والمترادف، وتقسيم المعنى بحسب الظهور والخفاء، وطرق الدلالة،
والتغير الدلالي ، والحقيقة والمجاز. إذ ينتج عن اعتبار السِّياق أو عدمه في فهم
النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، اختلافٌ في الأحكام الفقهية والمفاهيم
العقائدية. لذا فإنَّ المعرفة اللغوية العربية من أهمِّ الأدوات التي استعان بها
الأصوليون في فهم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية واستنباط الأحكام
الشرعية منها، وقد جعل العلم بأسرار العربية شرطاً أساساً من شروط الاجتهاد ،
وتحتلُّ المباحث اللغوية حيزاً ملحوظاً في مباحث العلوم الشرعية الفقهية
والعقائدية، فإنَّ الحاجة ماسَّةٌ إلى تطوير منهجية البحث اللغوي فيها، وتجديد الأداة
اللغوية لها، ولعلَّ ما وضع من كتبٍ في تفسير النصوص في الفقه الإسلامي،

(٢٣) دلائل الإعجاز ٢٣٤.

(٢٤) ينظر: تطور البحث الدلالي ٤٥.



التمهيد
وسبل الاستنباط من الكتاب والسنة، يشهد بأهمية توسيع آليات فهم نصوص القرآن والحديث، لتشمل مباحث مفيدة من العلوم الاجتماعية والتشريعية واللغوية (٢٥).
وتتضح أهمية تطوير الأسس اللغوية في العلوم الشرعية، في الآراء المتعلقة بالقياس، والمعهود، والسياق، والمجاز، وغيرها مما يؤدي إليه اختلاف المواقف منها في فهم النصوص الشرعية، واستنباط الأحكام والمفاهيم (٢٦). فإن لغة المتكلم من البشر تحيط بها قرائن، منها لغة النص الشرعي، فينبغي أن نكشف معانيها من خلال قوانين لغة هذا النص ذاتها. ويؤدي التعامل الظاهري مع النصوص إلى استثمار المجالات الدلالية للألفاظ؛ لكي يتم إدراج المفاهيم التي تستند إلى العودة إلى وقائع استعمال الألفاظ، والفحص في مدى انطباق دلالة الألفاظ على هذه الوقائع، من غير البناء على القياس الافتراضي في توسيع دلالات الألفاظ أو فهم الدلالات المستجدة، ومن غير ربط فهم الواقع باللفظ، بل يربط اللفظ بالواقع الذي يردفه، من غير اللجوء إلى القول بالتضمنين في تحديد معاني الألفاظ العامة أو الوظيفية، وباستبعاد القول بالتضمنين تزداد الدقة في تحديد دلالة الألفاظ، ويزيد التمسك بما ورد به السماع عن العرب (٢٧). فقد أكد الشافعي (٢٠٤هـ)، ومن بعده الشاطبي (١١٧هـ)، وغيرهما من العلماء، أهمية الالتزام بمعهود العرب في تلقي الخطاب الديني، عند محاولة الوقوف على معانيه

(٢٥) ينظر: القاموس الفقهي: لغة واصطلاحاً ١٥.

(٢٦) ينظر: المستصفى في علم الأصول ٢٥٦/٢-٢٨٧.

(٢٧) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، مج ٢، ٥٧/٧-٥٨.



التعميد ويقضي ذلك أن يُحمل النصُّ على معهود المُتَكَلِّمِ به قرآناً وسُنَّةً ، وهو وبيانه^(٢٨). ومعهودٌ يُستفادُ من النصوصِ الشرعيَّةِ مجتمعةً ، طبقاً لكلام العرب الذين تلقوا هذه النصوص. والمعلوم أنَّ هنالك معهودين في التعامل مع الخطاب الشرعي: معهود شرعي ، وآخر عرفي لغوي عام^(٢٩) ، ويدخل فيه ما وصف ابن السيِّد البطليوسي من الخلاف العارض من جهة اشتراك الألفاظ واحتمالها للتأويلات الكثيرة، في هذا الباب ، إذ يُقسَّمُ على ثلاثة أقسام ، (أحدها): اشتراكٌ في موضوع اللفظة المفردة، (والثاني) : اشتراكٌ في أحوالها التي تُعرضُ لها ، من إعرابٍ وغيره، (والثالث): اشتراكٌ يوجبُ تركيبُ الألفاظِ وبناءً بعضها على بعض. فأما الاشتراك العارض في موضوع اللفظة المفردة فنوعان: اشتراكٌ يجمع معاني مختلفة متضادةً، واشتراكٌ يجمع معاني مختلفة غير متضادةً^(٣٠) .

كما اتضح الاهتمام بالمعنى في دراسات الفلاسفة المسلمين ، كابن سينا (٤٢٨هـ) ، والغزالي (٥٠٥هـ) ، وابن رشد (٥٩٥هـ) ، وغيرهم ، فقد حصر ابن رشد الأسباب المؤدية إلى الاختلاف بين الفقهاء في تحديد معاني الألفاظ التي تُبنى عليها الأحكام، في تردُّد الألفاظ بين العموم والخصوص، ودلالة الخطاب، والاشتراك الحاصل في الألفاظ المفردة والمركبة، والاختلاف في الإعراب، لأهميته في التمييز بين المعاني التركيبية، وتردُّد اللفظ بين حمله على الحقيقة أو

(٢٨) ينظر: الرسالة ، للشافعي ٥١-٥٢ ، والموافقات في أصول الشريعة ، للشاطبي

.٦٥/٢

(٢٩) ينظر: سبل الاستنباط من الكتاب والسنة - دراسة بيانية ناقدة ٣٨-٤١.

(٣٠) ينظر: الانصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الخلاف ٣٦-٣٧.



على المجاز، واطلاق اللفظ تارةً وتقييده تارةً أخرى (٣١) . وبذا يكون أثر القرآن في اللغة أثراً عظيماً يمكن أن نُجمَلُهُ في نوعين: الأثر العام، والأثر الخاص، أمّا الأثر العام فيتضح في تمكن العرب من الاختلاط بغيرهم من الأمم ذوات الحضارة العريقة، فأكسب الاختلاط لغتهم غنى وثروة، واصبحت اللغة ملك المسلمين ، بعد أن كانت ملك العرب. فليس من شك في أن القرآن هو الذي مكّن العرب من أن يختلطوا بغيرهم من الأمم، وبذا يكون أثر القرآن في اللغة بحفظها من الزوال الذي تهدد غيرها من اللغات. فالقرآن هنا قد أثر في اللغة ، ولكن بطريقة غير مباشرة. وإذا أنعمنا النظر في الأثر الخاص، وجدنا القرآن قد أثر في اللغة بطريقة مباشرة، وذلك بما جاء به من جديد اللفظ والمعنى والغرض والاسلوب (٣٢) . ففي مجال الالفاظ وردت في القرآن الكريم ألفاظٌ معروفةٌ لدى العرب بدلالات، إلا أن القرآن منحها دلالاتٍ غير التي كانت لها من قبل، أمثال : (الزكاة، والحج، والصلاة، والإيمان، والنفاق، والكفر) وغيرها. وهذه الالفاظ أصبحت يُطلق عليها مصطلح (الالفاظ الإسلامية) ، وهذا النهج في استعمال الالفاظ يُعدُّ بداية التطور الدلالي ، فضلاً عن النظم القرآني وتركيب آياته التي جعلت أسلوبه معجزاً.

(٣١) ينظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٦/١-١٥، نحو علم خاص بالعلوم الشرعية ١٧.

(٣٢) ينظر: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية ٢٦-٢٧.

الفصل الأول

التطور اللغوي لإدكان البلغة العربية

في القرآن الكريم

المبحث الأول: تطور المجاز في القرآن الكريم

المبحث الثاني: تطور التشبيه في القرآن الكريم

المبحث الثالث: تطور الاستعارة في القرآن الكريم

المبحث الرابع: تطور الكناية في القرآن الكريم

الفصل الأول

التطور الدلالي لأركان البلاغة العربية في القرآن الكريم

يُعدُّ القرآن الكريم أنموذجاً جديداً لهذه اللغة الكريمة ، إذ أن تطور اللغة العربية في هذا الأنموذج جعلها خليقة بأن تكون مُعربةً عن دين جديد، ومن ثمَّ عن حضارة جديدة^(١) . وقد بُهرَّ العرب بجمال القرآن وروعته، وبالتغيير الذي أضفاه على النظم البياني ، فضلاً عن أثره في تغيير العادات والمفاهيم والتقاليد، فنظر العرب إلى لغتهم وهي تتألف في روائها الذي أحكم نسجه ، فحذبوا على عطاء هذه اللغة يختزنونه، وعمدوا إلى مرونتها يستغلونها، فكان هذا المخزون جمالاً بلاغياً لا يبلى^(٢) . وفرضت علوم القرآن على المسلمين أن يعمدوا إلى كتاب الله يفسرونه، ويتعقَّبون ألفاظه، وكانت الحاجة إلى معرفة لغة القرآن وغريبه سبباً لخوضهم في بحوث لغوية عن المعنى والدلالة، فكوَّنت تلك الدراسات موروثاً بيانياً لا يفنى^(٣) . والقرآن الكريم ، بأساليبه في التعبير وفنونه في القول، خلَّص اللغة من الوحشيِّ والغريب، وهذَّب طبع ألفاظها من التنافر والتعقيد، فعمد العرب إلى الكشف عن خبايا هذا الكتاب وكنوزه، وكان الكشف منصّباً على بلاغته؛ لروعته وحسن بيانه، فوقفوا على جزئياته البلاغية ، واستعذبوا نواذر استعمالاته في فنِّ القول، ممَّا طوَّرَ عندهم ذائقةً لغويةً متأسَّلة ، وأمدهم بحاسةٍ نقديةٍ متمكِّنة، تتَّجه بالبيان العربي إلى موكب الزحف الدلالي المتطور ، وتدفع بالمنهج البلاغي

(١) ينظر: التطور اللغوي التاريخي ٤٣.

(٢) ينظر : أصول البيان العربي ٤٧.

(٣) ينظر: دراسات في اللغة ١٤٤.

إلى المناخ الموضوعي المطمئن^(١). فكان من ثمار هذا الجهد المتواصل البناء، رصد المخزون الحضاري في تراث القرآن البلاغي واللغوي، وبدأ التصنيف في هذا المخزون يتحدّد، والتأليف بين متفرّقاته يأخذ صبغة الموضوعيّة، فنشأ عن هذا وذلك حشدٌ من المؤلّفات، ابتداءً بمدارس التفسير الأوّلي، في كلّ من مكّة والمدينة والبصرة والكوفة، التي رفدت العالم الإسلامي بسيل من المعارف لا ينضب، حتى اتّسع التفسير، وتعدّدت مناهج التأويل^(٢). فكان جهازة العربية وفحولها يتبعون تفسير ماجاء في القرآن، من خلال الاستشهاد بالموروث المثلي عند العرب، وهذا ما حملهم على التنقل في بوادي جزيرة العرب، يسألون ويدونون ويصنّفون ويقارنون ويوازنون ويقعدون، كلّ ذلك كان بهدف الإعتداد بالقرآن وتراثيّته، فضلاً عن قدسيّته وعظّمته. كان هذا في القرنين الأول والثاني الهجريين، وما أن أطلّ القرن الثالث الهجري، حتى انصبّ الجهد على خدمة لغة القرآن، وبيان معاني مفرداته وألفاظه، فكانت هذه الدائرة متشعّبة في بدايات مسيرتها التصنيفية، وإن كانت متّحدة في مظاهرها الدلالية. فالاسماء مختلفة، والانجازات متقاربة، حتى كأنّ العطاء واحدٌ في جوهره، وتأتي في مقدّمها كتب (معاني القرآن)، ومنها: (معاني القرآن) للكسائي (١٨٩هـ)، و(معاني القرآن) للفراء (٢٠٧هـ)، و (معاني القرآن) للأخفش (٢١٥هـ)، و(معاني القرآن) للزجاج (٣١١هـ)، و(معاني القرآن) لأبي جعفر النحاس (٣٣٨هـ). وكتب (مجاز القرآن) و (تأويل مشكله)، ومنها: (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى الليثي (٢١٠هـ)، و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (٢٧٦هـ). وكتب (غريب القرآن)، ومنها:

(١) ينظر: مجاز القرآن وخصائصه الفنية ١١-١٢.

(٢) ينظر: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم (مراحل التفسير) ١٣١-١٤١.

(غريبُ القرآن) لابنِ قتيبة (٢٧٦هـ)، و(غريبُ القرآن) لمحمد بن سلام الجمحي (٢٢٣هـ)، و(غريب القرآن) للسجستاني (٢٣٠هـ)، و (الغريب في القرآن) لأبان بن تغلب الكوفي (١٤١هـ).

وهذه الكتبُ ، على وفرتها ، تتحدّث عن مسار اللَّفْظِ القرآني، ودلالته لُغَةً ، وتبادره مفهوماً عربياً خالصاً، فكان ذلك معنى (مجازِ القرآن) و(غريبه) ومعانيه في سيرورة مؤدّي الألفاظ في حنايا الذهن العربي ، دون إرادة الاستعمالِ البلاغي، ودون إرادة (المجازِ) أو (المعاني) بالمعنى الاصطلاحي أو الحدودِ المرسومة لدى علماء المعاني والبيان، إذ امتازت هذه الحقبة بالتّدوين المنظمّ لغريب القرآن وشوارده، وأثرت فيما بعد، الحركة التأليفية المنفتحة على اللغة والمجاز القرآني بمئات المصنّفات القيّمة ، ولكن بالمعنى المُشار اليه، دون المعنى البياني (١) .

وكانت دراسة القرآن والنظرُ في إعجازه شغلاً شاغلاً للمسلمين ، وقد عدَّ أبو عمرو بن العلاء، أحد علماء العربية الأوائل، دراسة لغة القرآن ومعاني ألفاظه هدفاً لكلِّ مسلم (٢) . ومن هنا كانت دراسة العربية غايةً ووسيلةً، فهي غاية ممثّلة في هذه اللغة الجديدة في كلام الله ﷻ وكلام نبيّه الأمين (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي وسيلة لفهم ما وراء هذه الألفاظ واستعمالاتها كما وردت في أيّ الذكر الحكيم.

ومن جملة تلك الدراسات التي تُعدُّ ينابيع ثرّة في تأصيل البحث الدلالي عند العرب : (معجم العين) للفراهيدي (١٧٥هـ)، و(البيان والتبيين) للجاحظ

(١) ينظر: مجاز القرآن وخصائصه الفنية ١٤-١٥.

(٢) ينظر: مجاز القرآن ٨/١.

(٢٥٥هـ) ، و(الخصائص) لابن جنّي (٣٩٢هـ)، و (معجم مقاييس اللغة) و(الصاحبي في فقه اللغة) لابن فارس (٣٩٥هـ)، و (تلخيص البيان في مجاز القرآن) للشريف الرّضي (٤٠٦هـ) ، و(دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، وغير ذلك الكثير ممّا عني بدراسة الكلمة ودلالاتها في النصّ . فدلالة الألفاظ لديهم مرتبطة بما تفيد من معنى عند نظمها في الكلام، فللكلمة قيمة كبيرة، فهي تحيا حياة متطورة متجددة، وهي دائماً متغيّرة في دلالاتها، وفي طرائق استعمالها، إذ إنّ الألفاظ تتطوّر ، فتكتسب من المعاني أشباه جديدة لم تكن لها . وليست العربية بنجوة من التطوّر، فالألفاظ العربية ، كما يدلُّ البحث التاريخي ، كانت عرضةً للتبدّل، فحدث توسع كبير في دلالات الألفاظ عن طريق المجاز وفنونه، وكذلك عن طريق استعارة ألفاظ لمعانٍ استحدثها القرآن الكريم ، بحيث أصبحت الدلالة المُستحدثة ، فيما بعد ، هي الدلالة الشائعة التي اقتضاها الزمان وتقلّب الأحوال والنظم الإجتماعية ، فالألفاظ الاسلامية تُعدُّ لوناً من ألوان هذا التطور الذي عرّضَ للفظة البدوية القديمة، فاستحالت شيئاً آخرَ يقتضيه الدين الجديد والبيئة الجديدة (١).

وبما أنّ الألفاظ لاتكون حيّةً الا في نصوصها، إذ لاتعيش منعزلةً ، بل في مُتونِ النُصوصِ، مجتمعةً مركبةً مع غيرها من الالفاظ، ليتسنى للمتذوقِ الحصولُ على معانٍ متعدّدةٍ متناوبةٍ في الظهور بحسب سياق الكلام ، وما يُقفيه الإستعمالُ على اللفظ من ظلالٍ وألوانٍ، وما يتعاقبُ عليه خلال العصورِ من معانٍ (٢) . وفي

(١) ينظر: دراسات في اللغة ٤٠ .

(٢) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية ١٦٠-١٦٤ .

الوقت ذاته تتصلُّ دراسةُ الآية اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة، لأنها أساسُ الآيةِ ومنها تركيبها. والذي نعنيه بـ (الآية) مانعنيه بنظم الكلام ونسجه.

فالبلاغةُ الحَقَّةُ تكون في اختيارِ اللَّفْظَةِ الخاصَّةِ بالمعنى الذي يقتضيه نظمُ الكلام، قال الخطابي (٣٨٨هـ) في إعجاز القرآن: "وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا صَارَ مُعْجِزًا لِأَنَّهُ جَاءَ بِأَفْصَحِ الْأَلْفَاظِ ، فِي أَحْسَنِ نِظْمِ التَّأْلِيفِ ، مُتَضَمِّنًا أَفْصَحَ الْمَعْنَى"^(١).

وطالما أنَّ المفردة هي التي تُكوِّنُ الجملةَ، فقد تميَّزت المفردةُ القرآنيةُ

بمميزات ثلاث ، هي :

- ١- جمالُ وقعها في السَّمْعِ.
- ٢- اتساقُها الكاملُ مع المعنى.
- ٣- اتساعُ دلالتها لما لا تتسع له عادةً دلالاتُ الكلماتِ الأخرى، فالمفردةُ القرآنيةُ ترسم صورة الموضوع إمَّا بجرسها الموسيقي ، وإمَّا بظلالها التي تلقبها في الخيال^(٢) . لذا تجلَّى جمالُ لغةِ القرآن، حين خرج إلى الناس، في هذه المجموعة من المميزات على وجه دقيق مُحكَم ، وضع كلاً من المفردات وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان ، حتى تألف من المجموع قالبٌ مدهش، وقشرة سطحية أخاذة، امتزجت فيها البداوة في غير خشونة، برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربيَّة ، على اختلافها ، بكل يسرٍ وسهولة.

(١) بيان إعجاز القرآن ، للخطابي ٢٧.

(٢) ينظر: التعبير الفني في القرآن الكريم ١٨٥-١٨٦.



ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوبه الخاص، فإن لكل كلام الهي أو بشري أسلوبه، والقرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم: مفرداتها، ونظمها، وقواعد صوغها، فمن حروف العرب تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم جاء نسجه وتأليفه، ومع هذا فقد أعجزهم أسلوبه الفذ ومذهبه الكلامي المعجز. لذا تعددت الدراسات في الكشف عن دلالات القرآن الأدبية وفنونه القولية، التي خلّصت اللغة من الألفاظ الغريبة والوحشية، ومن كل ما ينبو عنه الطبع والذوق السليم، فدرستُ الفنون البديعية، كالجناس، والالتفات، والسجع، والفواصل، ودرستُ فنون علم البيان، كالتشبيه، والاستعارة، والكناية، ودرستُ فنون علم المعاني، كالفصل والوصل، والتقديم والتأخير، والتعريف والتكثير، والحذف والتقدير، وما إلى ذلك، إلا أن دائرة الجهد كانت ولا زالت مُنصبةً في استجلاء مجازاته وطرق استعمالها، والتشبيه ووجهه، والاستعارة وضروبها، والكناية ومجال إيرادها.

المبحث الأول

تطور المجاز في القرآن الكريم

كثيراً من الألفاظ توسّعت دلالاتها أو تغيّرت بمرور الزمن، بعض تلك الدلالات يعرفه العرب وقت نزول القرآن، وبعضها الآخر لا علم لهم به وقت نزوله ، إذ جاء به الاستعمال القرآني. ويُعدُّ هذا المبحثُ دراسةً تطبيقيةً لفنِّ بارزٍ من فنون البلاغة العربية، وأحدَ الأركان المهمة في علم البيان، والركن الأساس في التطور الدلالي، وهو المجاز، الذي يُعدُّ من الموضوعات التي أثرت الدراسات القرآنية بكثير من الاهتمام والتّحصيل والتدقيق. إذ قدّم موضوع (المجاز) في البلاغة العربية خدمةً للقرآن الكريم ، في معرفة أسرارهِ الخفية ، ودلائله الاعجازية ، وكنوزه البلاغية، بمعرفة المعاني التي يرمي إليها.

كان للمجاز دور مهم في معالجة المسائل والقضايا التي وقفت عندها الفرق والمذاهب الإسلامية واختلفت فيها، ولاسيّما (الصفات الالهية) ورؤية الله، ومشاهد اليوم الآخر، ووصف الجنة والنار، وغيرها من المسائل التي أثارها التفسير الظاهري أو الباطني للقرآن الكريم.

فالمجاز ركن أساسي في اللغة العربية، وليس عارضاً فيها ، فهو أحد شقيّ الكلام : (الحقيقة والمجاز) ^(١) ، والعرب كثيراً " ماتستعملُ المجاز وتعدّه من مفاخر كلامها، فإنّه دليلُ الفصاحة ورأس البلاغة" ^(٢) والمعنى الإصطلاحي للمجاز مستمدٌّ من المعنى اللغوي للكلمة، قال ابن جني (٣٩٢هـ) في حدِّ (الحقيقة) و (المجاز) : " (الحقيقة) : ما أُقرَّ في الاستعمال على وضعه في اللغة،

(١) ينظر: مجاز القرآن وخصائصه الفنية ٤٩.

(٢) العمدة ٢٦٥/١.

و(المجاز) : ما كان بضدِّ ذلك " (١) . وجاء في (لسان العرب) في معنى (المجاز):
 (جزتُ الطريق) و (جازَ الموضوعَ جوازاً) : سار فيه وسلَّكهُ، و(جاوزتُ الموضوعَ)
 بمعنى: جزتُهُ، و(المجاز) و (المجازة) : الموضوع، و(المجاز) و (القطع) يتضمَّنان
 معنى الانتقال (٢) . فلما كان استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي شبيهاً بالانتقال
 من موضع إلى آخر ، فلا جرمَ أن سُمِّي مجازاً (٣) . إلا أن دلالة مصطلح
 (المجاز) اختلفت عند المُفسِّرين والبلاغيين، إذ تعني كلمة (المجاز) عند أبي عبيدة
 (٢١٠هـ) في كتابه (مجاز القرآن) : الطريقة التي يسلكها القرآنُ في تعبيراته،
 وهي : التفسيرُ والتأويلُ وتوجيهُ الكلام (٤) . وهذا المعنى أعمُّ من المعنى
 الاصطلاحي الذي حدَّ به علماء البلاغة كلمة (المجاز).

ويأتي دور المعتزلة واضحاً في بلورة مفهوم (المجاز) ، بسبب ما اضطروا
 إليه من تأويل الكثير من الآيات القرآنية، التي يتنافى ظاهرها مع أصولهم
 العقائدية، ولاسيما مبدأ التوحيد، فحملوها على المجاز (٥) . وأطلق الجاحظُ
 (٢٥٥هـ) اسمَ (المجاز) ، في بعض كتاباته على الصورة البيانية، فأطلق هذه
 التسمية، على الصورة الفنية المستخلصة من الكلام، كما أطلقها على المعنى
 المُقابل للحقيقة. ونجده في مواضع أخرى يُعبّر عن جمهرة الفنون البلاغية
 (الاستعارة ، والتشبيه ، والتمثيل ، والمجاز نفسه) بالمجاز (٦) . فكان نافذة الضوء

(١) الخصائص ٤٤٢/٢ .

(٢) ينظر: لسان العرب (جوز).

(٣) ينظر: الطراز ٦٣/١ .

(٤) ينظر: مجاز القرآن ١٨/١ .

(٥) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب ٣٧٠ .

(٦) ينظر: الحيوان ٢٣/٥ .

للقادمين بعده ، ليستخلصوا الدلالة التي استقرَّ عليها مصطلح (المجاز)، فجاء ابن قتيبة (٢٧٦هـ) ليردِّد ، في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ، على من أنكروا وجود (المجاز) في القرآن، ونعتهم بالجهل^(١) .

ووجدنا (المجاز) يردُّ عند الرواد الأوائل عَرَضاً في استطراداتهم، أو فصلاً في كتاب ، كما ورد عند المبرد (٢٨٥هـ)^(٢) ، والشريف الرضي (٤٠٦هـ)^(٣)، وابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)^(٤) ، وابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ)^(٥). إلا أن الواضح من كلام الجاحظ ومُعاصريه، عَدَمُ استقلاليَّة (المجاز) بمعناه الإصطلاحي، وأنه قد اكتملَ نضجُه على يد عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، الذي حدَّه بقوله: " وأما (المجاز) : فكلُّ كلمةٍ أُريدَ بها غيرُ ما وُضِعَتْ له في وَضْعِ واضِعِها، لملاحظةٍ بين الأول والثاني، فهي مجاز " ^(٦) ، وقسمه على قسمين :

١- (لغوي) ، وهو عنده نوعان :

(أحدهما) : يقومُ على المُشابهةِ ، وهو ما يُسمَّى بـ (الاستعارة) .

(والآخرُ) : لا يقومُ على المُشابهةِ، وإنما يكونُ (لصلةٍ ومُلابسةٍ بين مانقلها

إليه وما نقلها عنه) ، وهو ما يُسمَّى بـ (المجاز المرسل).

٢- (وعقلي) وهو الذي يعتمدُ على (الاسناد) ، وهو ما يحدثُ في الجُمْلِ ^(٧) .

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٧٦.

(٢) ينظر: المقتضب ٥٤.

(٣) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ١١٣

(٤) ينظر: العمدة ٢٦٣/١.

(٥) ينظر: سر الفصاحة ٤٠.

(٦) ينظر: أسرار البلاغة ٣٢٤.

(٧) ينظر: اسرار البلاغة ٣٢٤-٣٢٦.

وبذا يكون (المجاز اللغوي) متعلقاً بالكلمة المفردة، و(المجاز العقلي)، وهو ما أسماه بـ (الحكمي) ، متعلقاً بالجملة وما فيها من إسناد.

وهكذا بلغ المجاز على يدي الجرجاني مرحلة النضج العلمي، وأصبح حديثه عن المجاز مساراً لم يفارقه الخلق، وإنما وسَّعوا فيه، إذ جاء من بعده الزمخشري (٥٣٨هـ) والرازي (٦٠٦هـ) اللذان نهلا من علمه ما أثرى مؤلفاتهما. وتابع السكاكي (٦٢٦هـ) الجرجاني في تقسيمه المجاز على لغوي وعقلي (١).

فالمجاز ظاهرة حتمتها حركة التطور اللغوي ، إذ يُعمدُ بالمجاز إلى نقل الالفاظ من المعاني القديمة إلى المعاني الجديدة (٢) . وطالما أن التطور اللغوي يفرضه حتمية تطور الحياة في جوانبها كلها ، فهو مرتبطٌ بعوامل كثيرة لاسبيل إلى دفعها (٣) .

وقد حُصر التطور اللغوي الحاصل في المجاز في ثلاثة أنواع:

- ١- التغيير الذي يلحق القواعد المتصلة بالالفاظ وتركيب الجمل وتكوين العبارات ، وما إلى ذلك من قواعد الاشتقاق والصرف.
- ٢- التطور الذي يلحق معنى الكلمة نفسه، كأن يُخصَّص معناها العام، فلا تُطلق إلا على بعض ماكانت تُطلق عليه من قبل، أو يُعمَّم مدلولها الخاص، أو تخرج من معناها القديم، فتُطلق على معنى آخر ترتبط به بعلاقة ما، وتصبح حقيقة في هذا المعنى الجديد، بعد أن كانت مجازاً فيه.

(١) ينظر: مفتاح العلوم ١٩٤-١٩٨.

(٢) ينظر: علم اللغة ٢٨٨.

(٣) ينظر: دلالة الألفاظ ١٣٥-١٣٩.



٣- التطور الذي يلحقُ الأساليبَ ، كما حدث في لغات المحادثة العامية المتشعبة من العربية (١) .

فالتطور اللغوي لا يمسُّ اللغة في هيكلها الخارجي (شكليّة الألفاظ) ، وإنما يحصل في جوهرها، أي : في المعاني التي تسكن في هذه الهياكل الصوتية للألفاظ.

وما يهمننا هنا هو التغييرُ الذي يحصل في الكلمة المفردة، وهو ما يُسمى بـ(المجاز المفرد)، الذي يعني: استعمال الكلمة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب ، على وجه يصحُّ مع قرينة تمنع من إرادة المعنى اللغوي الموضوع، وهو كما ذكرنا سالفاً على شقين:

(أحدهما) : (المجاز المرسل) القائم على علاقات تربط بين المعنى الأول

والمعنى الثاني، غير المشابهة.

(والآخر): (الإستعارة) القائمة على علاقة المشابهة.

(١) المجاز في البلاغة العربية ١٧.

المجاز المرسل في القرآن الكريم

المجاز اللغوي المرسل واسع الإستعمال في القرآن الكريم، وكثرة شواهد القرآنانية دليل على ذلك ، وإن سبب انتشار هذا الفن وذيوه يعود إلى وظيفته في توليد المعاني الجديدة، وهو وسيلة اللغة في الإضاءة والتتوير، ودليل من دلائل الاعجاز البياني للقرآن العظيم ، أدّى إلى توسع اللغة، إذ أخذت المفردة تتخطى الدائرة اللغوية إلى الدائرة الفنية، فأدّى التجوّز والانتساع في المفردات ومعانيها إلى إغناء المعجم الدلالي بحياة لغوية متجددة ومبدعة.

ويأتي وصف هذا المجاز بـ (المرسل) من إطلاقه من قيد المشابهة، فـ(الإرسال) في اللغة : الإطلاق، و(أرسله) بمعنى: أطلقه (١) ، ولما كانت الاستعارة مقيّدة بادعاء أنّ المثبّة من جنس المثبّ به، كان (المجاز المرسل) مطلقاً من هذا القيد ، وحرّاً من هذا الارتباط، فهو طليق مرسل.

ويعدّ السكاكي (٦٢٦هـ) أوّل من أطلق هذه التسمية عليه (٢) . وحده القزويني (٧٣٩هـ) بقوله: " هو ماكانت العلاقة بين ما استعمل فيه ، وما وُضع له ملابسةً ، غير التشبيه " (٣) . وهذا يعني أنّ الكلمة مستعملة قصداً في غير معناها الأصلي ، لملاحظة علاقة غير المشابهة بين المعنيين ، مع قرينة دالة على إرادة غير المعنى الأصلي (٤) .

(١) ينظر: لسان العرب (رسل).

(٢) ينظر: مفتاح العلوم ١٧٤.

(٣) الايضاح ٢٨٠.

(٤) ينظر: جواهر البلاغة ٢٣٢-٢٣٣.

وبذا يكونُ (المجازُ المرسلُ) أحدَ مظاهرِ التَّطوُّرِ الدَّلاليِّ . وقد توسَّعَ البلاغيُّون في استخراجِ علاقاتِ (المجاز المرسل)، ومنها: الجزئيَّةُ ، والكليَّةُ ، والسببيَّةُ ، والمُسببيَّةُ والمحليَّةُ ، والحاليَّةُ ، والزمنيَّةُ ، والمكانيَّةُ ، والعمومُ ، والخصوصُ (١) . ومن أهمِّ علاقاته في القرآن الكريم:

١ - مايقومُ على العلاقةِ الجزئيةِ، أي : إطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ، ومنه لفظةُ (الصراط) في نحو قوله تعالى : ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٢) . يُقالُ في اللِّغة: (سَرَطُ الطَّعامِ والشَّيءِ) : بَلَعَهُ ، و (الصِّرَاطُ) : الطَّرِيقُ الواضِحُ ، والأصلُ : (السِّرَاطُ) بالسَّينِ، و(الصِّرَاطُ) لُغَةٌ في (السِّرَاطُ) ، وهي بالصَّادِ لُغَةٌ قريشِ الأوَّلِينَ التي جاء بها الكتاب . وإنَّما قيل للطريق الواضح: (سراط) على التَّشبيهِ، لأنَّه كأنَّه يَسِرُّ المارَّةَ لكثرةِ سُلوكِهِم فيه (٣) .

وقد اختلف المفسِّرون في المعنى الذي استعيرَ له (الصِّرَاطُ) في قوله تعالى: ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، فقيل : تعني (القرآن) (٤) ؛ لأنَّه هو الهادي لدين الله ، والموصلُ إلى الطريقِ الصَّحيحِ . وقيل: تعني (الإسلام) (٥) .

(١) ينظر: فنون بلاغية ١١١-١١٨ .

(٢) سورة الفاتحة ٦-٧ .

(٣) ينظر: لسان العرب (سراط) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٨٧ .

(٤) ينظر: المحرر الوجيز من كتاب الله العزيز ١٢٣/١ .

(٥) ينظر: تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ٤ / ١ ، والكشاف ٦٧/١ .

ولاشكَّ في أنَّ الاهتداءَ إلى (القرآن) ، ومن ثمَّ إلى (الإسلام) ، إنما هو اهتداءٌ إلى (الصراط المستقيم) المؤدِّي إلى الفوزِ بنعيمِ الدُّنيا والآخرة (١) .

ومثُلُ ذلك لفظَةُ (الصَّلَاة) ، فهي في المعنى اللغوي المألوف تعني: الدعاء (٢) . وقد وردت في القرآن الكريم بدلالاتٍ مُتقاربة، إذ وردت هي ومشتقاتها

(١٠٣) مرَّةً (٣) ، تارة بمعناها اللغوي المألوف (الدعاء) ، كما في قوله تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ

سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) . فـ " صلِّ عليهم " بمعنى : ادعُ لهم،

وقيل بمعنى استغفر لهم (٥) . وتارةً أُخرى بمعنى: العبادة المفروضة على

المسلمين، وذلك من باب (إطلاق الجزء على الكل) على سبيل (المجاز

المرسل) (٦) ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا

مَوْقُوتًا ﴾ (٧) ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا

بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٨) . ففي هاتين الآيتين نجد

لفظةَ (الصَّلَاة) قد تخصصت برُكنٍ من أركانِ العبادة المعروفة في الإسلام، بما

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٢١/١ ، وتفسير المنار ٤/٢ .

(٢) ينظر: لسان العرب (صلا).

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤١٥-٤١٧ .

(٤) سورة التوبة ١٠٣ .

(٥) ينظر: معاني القرآن ، للفراء ٤٥١/١ .

(٦) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٢٩٣ ، وأساليب الدعاء في القرآن الكريم،

دراسة فنيَّة بلاغيَّة ٣٣ .

(٧) سورة النساء ١٠٣ .

(٨) سورة الحج ٧٨ .

تشتمل عليه من أقوال وأفعال معينة ، من بعد أن كانت تدلُّ على (الدُّعاء) عامَّةً .
 إنَّ عمليةَ التَّطوُّرِ والانتِشاعِ في معنى لفظة (الصلاة) حصلت بناءً على تقارب
 المعنيين ؛ لأنَّ تسمية العبادة بـ (الصَّلَاة) مأخوذة من معنى الدُّعاء، وذلك للصَّلَّة
 والترابط بين الصلاة والدعاء. وقيل : إنَّ لفظة (الصَّلَاة) بمعناها التَّعبُدي، مأخوذة
 من (الصَّلَّة) ؛ لأنها تصل الإنسان بخالقه.

وقيل إنَّ (الصَّلَاة) : (فَعَلَةٌ) من (صَلَّى) ، كـ(الزكاة) مِنْ (زَكَى) ،
 وحقيقة (صَلَّى) : حركَ المُصَلِّي صَلَوِيَّهِ، لأنَّ المُصَلِّي يفعل ذلك في ركوعه
 وسجوده. و(الصَّلْوَانُ): العظمان النَّاتئان في أعلى الفخذين، يُقالُ : (ضَرَبَ الفرسُ
 صَلَوِيَّه بِذَنبِه) أيْ : عن يمينه وشماله ، ثم استعملَ بمعنى الهيئات المخصوصة،
 مجازاً لغويًّا ، لأنَّ المُصَلِّي يحركُ صَلَوِيَّه في ركوعه وسجوده (١) .

ومن أمثلته أيضاً لفظة (السجود) في نحو قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ
 أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (٢) فـ (السُّجُود) في اللُّغة : الإِحناء والتضامن
 إلى الأرض، و (أَسَجَدَ الرَّجُلُ) : طأطأ رأسه وانحنى، و(السُّجُود) : إِدَامَةُ النَّظَرِ
 إلى الأرض (٣) . وهو لفظ معروف في الجاهليَّة ، واستعمل كثيراً في القرآن
 الكريم، فأسندَ إلى الملائكة، والشمس، والقمر، والنجم، والشجر، والإنسان، والى
 كُلِّ من في السماوات والأرض (٤) . فـ (السجود) في معناه العام: هو خضوع
 المخلوقات لله ﷻ على سبيل الفطرة والتَّسخير، وهو معنى مجازيُّ متطوِّرٌ عن

(١) ينظر: الكشاف ١/١٣١ .

(٢) سورة آل عمران ١١٣ .

(٣) ينظر: لسان العرب (سجد) .

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٣٤٨-٣٤٩ .

المعنى الأساسي الذي يعني: الانحناء والإقتراب من الأرض ، ومن ثمَّ استعملَ في معنى العبادة المفروضة، أي : في معنى الرُّكن المعروف من (الصَّلَاة) المفروضة، الذي يَسْبِقُ السجود.

ومن استعمال (السُّجود) في معناه اللغوي الحقيقي قوله تعالى : ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾^(١) ، وقوله : ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾^(٢) فـ (السُّجودُ) هنا بمعنى : الإقتراب من الأرض، وقيل في مثل هذا السجود : " (السُّجودُ) أصله : التَّضامُنُ والتَّذَلُّ، وجُعِلَ ذلك عبارة عن التَّذَلُّ لله وعبادته، وهو عامٌ في الإنسان والحيوان والجمادات، وذلك ضربان : سجودٌ باختيار ، وليس ذلك إلا للإنسان ، وبه يستحق الثواب ، نحو قوله : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾^(٣)، أي : تَذَلَّلُوا له . وسجود تسخير ، وهو للإنسان والحيوان والنبات، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(٤) وقوله تعالى : ﴿يَتَفَيَّؤُوا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾^(٥) ، فهذا سجود تسخير ، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبّهة على كونها مخلوقة ، وأنها خَلَقَ فاعلٌ حكيم . وقوله : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا

(١) سورة الاسراء ١٠٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٢٠ .

(٣) سورة الرعد ١٥ .

(٤) سورة النجم ٥٣

(٥) سورة النحل ٤٨ .

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١﴾ ،
 ينطوي على النوعين من السُّجُودِ والتسخير والاختيار .. وقوله : ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ
 سُجَّدًا ﴾ (٢) أي مُتَذَلِّلِينَ مُتَقَادِينَ . وَخُصَّ (السُّجُودِ) في الشريعة بالركن المعروف
 من الصلاة، ومايجري مجرى ذلك من سجود القرآن وسجود الشكر . وقد يُعَبَّرُ به
 عن (الصَّلَاةِ) في مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبَارَ السُّجُودِ ﴾ (٣) أي : (أدبارِ
 الصَّلَاةِ) (٤) ، إذن (السُّجُودِ) معناه: الصَّلَاةُ . وفضلاً عن هذا نجد في قوله تعالى :
 ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ (٦) استعمالاً مجازياً لـ(الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ) ،
 إذ ينصُّ التشريع الاسلامي على أنَّ الرُّكُوعَ سابقٌ للسُّجُودِ في الصلاة، وإن كان
 كلاهما يعني الاقترابَ من الأرض، إلا أنَّ السُّجُودَ يقتضي انحناءً تاماً حتى تلامسُ
 الجبهةُ الأرضَ، وهذا يعني أوجَ الاقترابِ من الله تعالى، يُوضِّحُ هذا قوله تعالى:
 ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (٧) . إلا أننا نجدُ أنَّ معنى (السُّجُودِ) قد انتقل من معناه
 الموضوع له ، إلى معنى آخر ، على سبيل المجاز المرسل ، في قوله تعالى :

(١) سورة النحل ٤٩ .

(٢) سورة النساء ١٥٤ ، وسورة البقرة ٥٥ ، وسورة الأعراف ١٦١ .

(٣) سورة ق ٤٠ .

(٤) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٢٩ .

(٥) سورة الإنسان ٢٦ .

(٦) سورة الحج ٧٧ .

(٧) سورة العلق ١٩ .

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^(١) فلفظة (يسجدون) هنا أُطلقت على الصلاة ، والسُّجودُ جزءٌ من الصلاة، فأُطلقَ الجزءُ وأُريدَ الكلُّ، معتمدين في ذلك على أن التلاوة لا تكون في السُّجود ولا في الرُّكوع ، وإنما في الصلاة^(٢) .

ومن الألفاظ التي أشاعت في النصِّ القرآني جماليةً فنيةً لفظة (لَوَاقِحُ) ، إذ تعني في اللغة : ماءَ الفحلِ ... وأصلُ (اللِّقَاحِ) للإبلِ، ثُمَّ استُعيرَ للنساءِ ... و(اللِّقَاحُ) : مصدرُ قولِكَ (لَقِحَتِ النَّاقَةُ، تَلْقَحُ) إذا حَمَلَتْ . فإذا استبانَ حَمْلُهَا قيل : (استبانَ لِقَاحُهَا)^(٣) . واستُعِمَّتْ في القرآن الكريم مرَّةً واحدةً على سبيل المجاز المرسل، في قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾^(٤) فالريِّاحُ الهادئةُ المطمئنةُ الطيبةُ هذه المرَّةُ هي التي تحملُ في نسائِمِها الخيرَ، فَتَجْمَعُ في هبوبِها السُّحُبَ والغيومَ، وتُسبِّبُ نزولَ الغيثِ، وتنتقلُ بين النَّباتاتِ، حاملةً إلى أجزاءِ الأنوثةِ فيها عناصرَ الذُّكورةِ، لتؤدِّيَ عمليَّةَ التلقيحِ، وهي جزءٌ من إرسالِ الرياحِ وليس كُلُّها^(٥) .

وقيل في ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ : (لَوَاقِحُ) : جمع (لَاقِحَة) أي : وأرسلنا الرِّيَّاحَ حواملٍ بالسَّحابِ، لأنَّها تحملُ السَّحابَ في جوفِها، كأنَّها لَاقِحَةٌ بها،

(١) سورة آل عمران ١١٣ .

(٢) ينظر: معاني القرآن ، للفراء ٢٣١/١ .

(٣) لسان العرب (لقح).

(٤) سورة الحجر ٢٢ .

(٥) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ١٩/٤ .

من (لَقِحَتِ النَّاقَةَ) إِذَا حَمَلَتْ، وَضِدُّهَا (الرَّيْحُ الْعَقِيمُ) (١) ، فيُقَالُ (رِيحٌ لَاقِحَةٌ) إِذَا جَاءَتْ بِخَيْرٍ ، من انشاءِ سحابٍ ماطرٍ، كما قيلَ لِلَّتِي لَاتَأْتِي بِخَيْرٍ : (رِيحٌ عَقِيمٌ)، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ الرِّيحُ لَاقِحَةً تشبيهاً لها بالنَّاقَةِ اللَّاقِحِ (٢) .

٢ - مايقومُ على العلاقة الكلية : أي اطلاقُ الكلِّ وإرادةُ الجزء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ (٣) ، فكلمة (أجسامهم) وردت مرةً واحدةً في القرآن الكريم ، ومعناها اللغوي: جماعة البدن، أو الاعضاء ، ومن الناس والإبل والدَّواب وغيرها، وهو مألُهُ طولٌ وعرضٌ وعمقٌ ، ولاتخرجُ أجزاءُ الجسم عن كونها أجساماً وإن قُطِعَ منها ما قُطِعَ وَجُزِّيَ ما جُزِّيَ (٤) . ووجه المجاز فيها، كما يرى بعض المُفسِّرين، أنَّها من بابِ إطلاقِ الكلِّ وإرادةِ الجزء، فالذي يُرى الوَجْهُ، وهو مركزُ النظر للرَّائي، فأطلقَ التعبيرَ القرآني كلمةَ " أجسامهم " وأرادَ وَجُوهُهُمْ (٥) .

في حين يرى الدكتور محمد حسين الصغير أنَّ هذا التأويلَ بعيداً عن روح الآية، فالجسمُ وإن كان لا يُرى كُلهُ فَمِنَ المستطاع أن يُدْرَكَ بالنظرِ إلى ما عليه من جمالٍ يبعثُ على الإعجابِ، فهو يرى أنَّ الآيةَ لا تُريدُ : تُعْجِبُكَ وَجُوهُهُمْ ،

(١) ينظر: روح المعاني ٣١/١٢ ، وتفسير النَّسفي ٢٤٠/٢ .

(٢) ينظر: الكشاف ٣٨٩/٢ ، ومعاني القرآن ، للفراء ٨٧/٢ .

(٣) سورة المنافقين ٤ .

(٤) ينظر: لسان العرب (جسم) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٩١-٩٢ .

(٥) ينظر: : الكشاف ١٠٩/٤ ، ومن بلاغة القرآن ٢٢٤ .

وإنما تريدُ : تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، بما هي عليه من بَسْطَةٍ ، وما يبدو عليها من النَّماء والقوَّة (١) .

وهذا ما أراه في معنى الآية ، إذ لا معنى للتكلف المفرط في ادعاء المجاز ، الذي يُخْرِجُ النَّصَّ عن ذائقته اللغوية ، تصيِّداً لمعانٍ قد لا تُتراد ، ووجوهٍ لا تُستحسن وعلاقاتٍ لا تُستصوب ، فلو رجعنا إلى قوله تعالى : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٢) وأنعمنا النظر في قوله " وزاده بسطة " وجدناه يدلُّ على الزيادة في الشيء والانتساع والضخامة ، وهذه من مواصفات الجسم ، لا الوجه .

ومن الألفاظ التي أُطلقت على البعض ، ومن ثمَّ توسَّعت دلالتها لتشمل الكلَّ ، لفظة (دَابَّة) ، فهي لغةٌ : من (دَبَّ ، يَدِبُّ ، دَبًّا ، ودببياً : مشى على هينته ، وأطلق (الدَّبَّيبُ) على (سَيْرِ النَّمْلِ) لِبُطْئِهِ ، وقد اختصَّ لفظُ (الدَّابَّة) بالفرس في لغة العرب ، ومن ثمَّ توسَّعت دلالتها لتُطلقَ على كلِّ حيوانٍ دَبَّ على الأرض (٣) . و(الدَّبُّ) و(الدَّبَّيبُ) : مشيٌّ خفيفٌ ، ويستعمل ذلك في الحيوان والحشرات ، ويستعمل مجازاً في الإنسان (٤) . ذُكِرَت لفظةُ (دَابَّة) في أربعة عشر موضعاً من القرآن الكريم (٥) ، فتنوَّعت دلالتها ، فتارةً يُراد بها معناها الخاصُّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (٦) .

(١) ينظر: مجاز القرآن وخصائصه الفنية ٩١ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٧ .

(٣) ينظر: لسان العرب (دبب) .

(٤) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ١٦٥ .

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٥٨ .

(٦) سورة الأنعام ٣٨ .

فهنا اختصَّ لفظُ (دَابَّة) بالحيوانات التي تدبُّ على الأرض^(١) . وتارةً أُخرى يُرادُ بها كلُّ ذي روح في السماء والأرض ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾^(٢) فـ (دَابَّة) هنا لفظٌ أُطلق على عموم المخلوقات^(٣) . " ويجوزُ أن يكون بياناً لما في السموات وما في الأرض جميعاً ، على أن في السموات خلقاً لله يدبُّون فيها كما يدبُّ الأناس في الأرض ، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويُرادُ بما في السموات الملائكة، وكرّر ذكرهم على معنى: والملائكة خصوصاً من بين الساجدين، لأنهم أطوعُ الخلقِ وأعبدهم" ^(٤) .

وفي موضع آخر أُطلق لفظ (دَابَّة) على جنس البشر على سبيل المجاز المرسل، من باب إطلاق الكلِّ على الجزء ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾^(٥) ، فأطلق لفظ (الدَّابَّة) على الناس^(٦) .

ومن الألفاظ التي انتقلت ممّا وُضِعَتْ له ، إلى شيء آخر ، لفظة (أصابع)، فـ(الأصبعُ) في اللغة : مفردة (الأصابع) ، وهو جزء من جسم الإنسان^(٧) ،

(١) ينظر: تفسير النَّسفي ١٥١/٣ .

(٢) سورة الشورى ٢٩ .

(٣) ينظر: روح المعاني ١٤٣/٧ .

(٤) الكشف ٤١٢/٢ .

(٥) سورة النمل ٦١ .

(٦) ينظر: معاني القرآن، للنحاس ٤٢١/٢ ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ١١٦/١ .

(٧) ينظر: لسان العرب (صبع) .

يُطلق على أصابع اليد كلها، فـ ((يُستعارُ للأثر الحسي، فيقال: (لكَ على فلانِ أُصْبَعٌ) كقولك: (لكَ عليه يدٌ). " (١) .

وقد ذُكرت لفظةُ (أصابع) مرتين في القرآن الكريم: في قوله تعالى :
﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (٢) ، وقوله
 تعالى : **﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾** (٣) ،
 وفي كلا الموضعين أُطلقت كلمةُ (الأصابع) وأريدَ بها : الأنامل ، وإنما ذكر
 (الأصابع) ، ولم يذكر الأنامل ، أو (رؤوس الأصابع) التي تُجعلُ في الآذان ،
 على سبيل الاتساع والمبالغة في القول (٤) . وقيل : (رأس الأصبع) هو الذي
 يُجعل في الأذن ، فهلاً قيل: " أناملهم؟) ، قلتُ : هذا من الاتساعات في اللغة التي
 لا يكاد الحاصرُ يحصرُها، كقوله تعالى : **﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾** (٥) ،
 وقوله : **﴿فَاقْطِعُوا أُبْيُيْهِمَا﴾** (٦) : أرادَ البعض الذي هو إلى المرفق ، والذي إلى
 الرسغ. وأيضاً ففي ذكر (الأصابع) من المبالغة ما ليس في ذكر (الأنامل) . فإن
 قلتُ : الأصبع الذي تُسدُّ بها الأذن أصبع خاص، فلمَ ذكر الإسم العام دون
 الخاص؟ ، قلتُ : لأنَّ (السَّبَابَةَ) : (فَعَالَةٌ) من (السَّبِّ) فكان اجتنابها أولى بآداب
 القرآن، ألا ترى أنَّهم قد استنبعوها فَكَنُوا عنها بـ (المُسَبِّحَة) و (السَّبَابَة)

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٨١-٢٨٢ .

(٢) سورة البقرة ١٧ .

(٣) سورة نوح ٧ .

(٤) ينظر: تفسير النَّسْفِي ٢٤/١ ، والبحر المحيط ٨٤/١ .

(٥) سورة المائدة ٦ .

(٦) سورة المائدة ٣٨ .

و(المُهَلَّلَة) و(الدَّعَاءَة) : فَإِنْ قَلتَ : فهَلَّا ذَكَرَ بعضُ هذه الكُنَيَاتِ ؟ ، قَلتَ : هِيَ أَلْفَاظٌ مُسْتَحْدِثَةٌ لَمْ يَتَعَارَفْهَا النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، وَإِنَّمَا أَحْدَثُوهَا بَعْدَ" (١) . لَذَا أُخْتِيرَ لَفْظُ (الأَصَابِعِ) عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ ، مِنْ بَابِ (إِطْلَاقِ الْكُلِّ وَإِرَادَةِ الْجِزْءِ) .

٣ - مَا يَقُومُ عَلَى الْعِلَاقَةِ الْمَكَانِيَّةِ : مِثْلَ كَلِمَةِ (سَجِّينَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ (٢) فَكَلِمَةُ (سَجِّينَ) فِي اللُّغَةِ : مِنْ (السَّجْنِ) بِكسْرِ السِّينِ : الْحَبْسِ ، وَ(السَّجْنُ) بِفَتْحِهَا : الْمَصْدَرُ . وَ(سَجَنَهُ ، يَسْجُنُهُ ، سَجْنًا) ، أَي : حَبَسَهُ .. وَ (السَّجِّينَ) : الصَّلْبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (٣) .

وَقَدْ وَرَدتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَرَّتَيْنِ فِي (سُورَةِ الْمُطَفِّينِ) ، وَقِيلَ فِي مَعْنَاهَا الْقُرْآنِي : إِنَّهَا مِنْ (السَّجْنِ) ، فَيُقَالُ : (سَجِّينَ) ، وَ (السَّجِّينَ) اسْمٌ لَجَهَنَّمَ ، بِإِزَاءِ (عَلِيِّينَ) ، وَزَيْدٌ فِي لَفْظِهَا لَزِيَادَةِ الْمَعْنَى ، وَقِيلَ : هُوَ اسْمٌ لِصَخْرَةٍ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِغَةِ (٤) .

وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْمَفْسَّرُونَ فِي مَعْنَى الْكَلِمَةِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ ﴾ إِنَّ كِتَابَهُمُ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا فِي (سَجِّينَ) ، وَهِيَ الْأَرْضُ السَّابِغَةُ ، أَي : إِنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ (٥) .

(١) الكشاف ٢١٦/١ .

(٢) سورة المطففين ٧-٩ .

(٣) ينظر: لسان العرب (سجن) ، ومعاني القرآن ، للفراء ٢٦٦/٣ .

(٤) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٤٥٤/١ ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٣٠ .

(٥) ينظر: تفسير الطبري ٩٤ / ٣٠ .

وقال آخرون : بأنها حدُّ إبليس^(١) ، وقيل : (السَّجِين) هو إسمٌ لجهنم أو لوادٍ فيها، فأبدلت نونه لأمًا ، فقيل : (سَجِيل) ، ف (السَّجِين) و (السَّجِيل) بمعنى واحد^(٢).

وذكر أنها عبارة عن الخسارة والهوان ، كما تقول : (بلغ فلان الحَضِيضَ) إذ صار في غاية الخمول^(٣) ، وفُسِّر (سجين) بـ (كتاب مرقوم) ، فكأنه قيل : إنَّ كتابهم في كتاب مُسَجَّلٍ ومُنَظَّمٍ . وقيل : هو كتابٌ جامعٌ لكلِّ شرٍّ ، فهو ديوانٌ دُوِّنَتْ فيه أعمالُ الشياطين وأعمالُ الكفرة والفسقة من الجنِّ والإنس^(٤) .

إلا أنَّ أَرَجَحَ الأقوالِ : إنَّ (سجِّين) تعني الحبس والتضييق في جهنم، ولأنها مطروحة تحت الأرض السابعة في مكان موحش مُظلم ، وهو سكن إبليس وذريته استهانةً بهم. وبذا يكون قد حصل مجازٌ مرسلٌ بنقل اسم المكان للتعبير به عن الكتاب الموضوع للكفار^(٥) .

ومن ذلك أيضًا لفظةُ (تَسْنِيم) ، التي وردت مرة واحدة في القرآن الكريم ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾^(٦) وأصل الكلمة في اللغة: من (سَنِمَ ، سَنَمًا) فهو (سَنِمٌ) : عَظْمٌ سَنَامُهُ ، وهو (سَنَامُ البعير والناقة) أي : أعلى ظهرها ، والجمعُ (أَسْنِمَةٌ) ، وشبَّه كلُّ شيءٍ عالٍ

(١) ينظر: الدر المنثور ٤٤٩/٨ .

(٢) ينظر: معاني القرآن للقرآء ٢٦٦/٣ .

(٣) ينظر: روح المعاني ١١٣/١٢ .

(٤) ينظر: الكشاف ٢٣١/٤ .

(٥) تفسير النَّسْفِي ٣٢٣ /٤ .

(٦) سورة المطففين ٢٧-٢٨ .



بالسَّنام، لأنَّ السَّنام خيار ما في البعير و (سَنَمَ الشيء) : رفعه .. و (سَنَمَ الشيءَ وتَسَنَّمَه) : علاه (١) .

لذا عندما أُطلقت في القرآن كانت مجازاً، لأنها دلَّت على معنى لم تعرفه العرب، فقد جاء عن المفسِّرين: إنَّ (التَّسَنِيمَ) هو أرفعُ شرابٍ عند أهلِ الجنَّة (٢) .
وقيل " هو عينٌ في الجنَّة ربيعةُ القدرِ، وفُسِّر بقوله تعالى: " عينا يشرب بها المقربون" (٣) .

ف (التَّسَنِيمِ) من الكلمات التي جاء بها القرآن ، وأُطلقت على عينٍ مخصوصةٍ في الجنَّة ، وذلك إمَّا لأنها تأتيهم من فوق ، على ما روي أنها تجري في الهواء مُتَسَنِّمَةً ، فَتَنَصَّبُ في أوانيهم، أو لأنها أرفعُ شرابٍ عند أهل الجنَّة (٤) .
وعن ابن عباس عندما سُئِلَ عن قوله " ومِزاجُهُ من تَسَنِيمٍ " قال : " هذا ممَّا قاله الله، فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفيَ لها من قُرَّةِ أعينٍ . وقال فيه الزجاج : " أي: مزاجُهُ من ماءٍ مُتَسَنِّمٍ عينا تأتيهم من علُوِّ تَسَنَمٍ عليها الغرف " (٥) ، وبذا تكون كلمة (تسنيم) إسمًا لمكان ، هو عين في الجنَّة، ثم أُخِذَتْ على سبيل المجاز المرسل، بحكم العلاقة المكانية ، لتُطلق على طعمِ الشَّرابِ الموجود في ذلك المكان، وهذا تطوُّرٌ في دلالة الكلمة، إذ نلاحظ أنَّ الكلمة قد ابتعدت مرَّتين عن معناها الحقيقي ، فنقلت مرَّةً من إطلاقها على سنام البعير لعلوِّه ، إلى المكان الذي

(١) ينظر : لسان العرب (سَنَم).

(٢) ينظر : التبيان في تفسير غريب القرآن ٤٥٥/١ .

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٥١ .

(٤) ينظر: الكشاف ٢٣٣/٤ ، ومعاني القرآن ، للفراء ٢٤٩/٣ .

(٥) الدر المنثور ٤٥١ /٨ .

ينزلُ منه الماءُ في الجنةِ على سبيل الاستعارة ، لعلاقةِ المُشابهةِ بين علوِّ الغرفِ التي ينزل منها الماءُ وارتفاعِ سنامِ البعيرِ، ثمَّ انتقلتِ اللَّفظةُ مرَّةً أُخرى على سبيلِ المجازِ المرسلِ من اسمِ المكانِ لِتُطْلَقَ على الشَّرابِ الموجودِ في المكانِ (١) .

٤ - ومن العلاقاتِ المجازيَّةِ التي يحصلُ بها تطوُّرٌ دلالي : إعتقادُ ماكان وسيكونُ ضمن (المجازِ المرسلِ) ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ (٢) فكلمةُ (الخمرِ) أُطْلِقَتْ على (العنبِ) ، إذ الذي يُعَصَّرُ هو العنبُ ليكونَ خمرًا. و(الخمرُ) في اللغة: من (خامرَ الشيء) أي : قاربَه وخالطَه ، و(الخمر) : ما أُسْكِر من عصيرِ العنبِ ، لأنها تخامرُ العقلَ ، والجمع (خمور). وسمَّيتِ الخمرُ خمرًا لأنها تُرِكَتْ فاختمرت ، واختمارُها تغيُّرُ ريحِها ... وقيل: سُمِّيتِ خمرًا لِخامرتِها العقلَ (٣) .

فأُطْلِقَ (الخمرُ) وأُريدَ : العنبُ ، على سبيلِ المجازِ المرسلِ ، باعتبارِ ما سيكونُ ، فما سيحولُ إليه العنبُ عَصِيرٌ يُطْلَقُ عليه الخمرُ، ف (أَعْصِرُ خَمْرًا) يعني : عنبًا، تسميةً للعنبِ بما سيؤولُ إليه . وقيل (الخمرُ) بِلُغَةِ عُمَانَ اسْمٌ للعنبِ (٤) .

(١) ومثَّل ذلك قوله تعالى : ((فليدع ناديه)) سورة العلق ١٧، إذ استعملت لفظة (ناديه)

من بابِ إِطْلَاقِ (المحلِّ) على مَنْ (حلَّ فيه).

(٢) سورة يوسف ٣٦ .

(٣) ينظر: لسان العرب (خمر) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ١٦٠ .

(٤) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٢٤٤/١ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤٢٥ /٣ ، والكشاف ٣١٩/٢ ، وروح المعاني ٢٣٩/١٢ .

٥ - العلاقة السببية والمسببية ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ

الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (١).

فـ (قرآن الفجر) هنا من الألفاظ التي جاء بها القرآن على سبيل المجاز المرسل،

إذ خصَّ صلاةَ الفجرِ بهذه التَّسمية، في حين أنَّ كلمة (القرآن) في أصل اللغة

مصدر للفعل (قرأ) ، و (القراءة) : ضمُّ الحروفِ والكلماتِ بعضها إلى بعض في

التَّرتيل . و (القرآن) : لفظٌ خصَّ بالكتابِ المُنزَّلِ على محمد ﷺ .

وقيل في تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتبِ الله لكونه جامعاً لثمره كُتبه،

بل لجمعه ثمره جميع العلوم (٢) .

وقد وردت كلمة (القرآن) في الذكر الحكيم (٥٨) مرَّةً ، جميعها بمعنى

(القرآن) (٣) أي : الكتاب الذي نزلَه الله على نبيه محمد (ص) ، إلا في هذا

الموضع، فـ (قرآن الفجر) هنا ما يُقرأ في صلاة الفجر (٤) . وقيل : إنَّ (صلاة

الفجر) سُمِّيت قرآنًا لكونِ قراءةِ القرآنِ ركناً أساسياً فيها ، فنُقِلَ اللفظُ إلى هذا

المعنى على سبيل المجاز ، وما جوَّز ذلك العلاقة السببية ، فقراءة القرآن في

الصلاة سببٌ في جعلها تُطلقُ على الصلاة (٥) .

ومن الألفاظ التي عُبرَ بها على سبيل المجاز المرسل بحكم العلاقة السببية:

لفظة (أحيينا) ، فهي في اللغة : من (الحياة) التي هي نقيض الموت، وتُسعمل

(١) سورة الاسراء ١٧.

(٢) ينظر : لسان العرب (قرء) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٤١٣-٤١٤ .

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم ٥٤٣-٥٤٤ .

(٤) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٢٦٨/١ ، والكشاف ٤٦٢/٢ .

(٥) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ١٨٣ /٤ .

للتعبير عن القوة النامية في النبات والحيوان ، ومنه قيل : (نبات حي) ، كما تستعمل للتعبير عن الحركة ، لذا سُمِّي الحيوان حيواناً (١) .

أما ورودها في القرآن بهذه الصيغة فجاء مرتين على سبيل المجاز ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدِ مِيتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَدَةَ مِيتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (٣) . فـ(أحيينا) هنا أعطت معنى : (أنبتنا) ، فإنبات الأرض بسبب الغيث يمنح الحياة للنبات والحيوان اللذين يقات عليهما الإنسان، ومن ثمَّ تحققت بالغيث الحياة للمخلوقات كلها ، إذ جرت سنة الله تعالى في إحياء الأرض بإرسال الرياح لتسير السحاب، ثم يأتي الغيث ، فينبت الزرع وتنتشر الحياة. ولأن الإحياء هنا بسبب الغيث الذي يكون به الإنماء، جعل الله كلمة (أحيينا) بدلاً من (أنبتنا) لآتساع معناها (٤) .

ومن الألفاظ التي خصَّها الإستعمال القرآني بشيء معين ، بعد أن كانت تطلق على عموم الأشياء : كلمة (ذرية) في قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ (٥) . و(الذرية) : (فعلية) منسوبة إلى (الذر) الذي هو النمل الصغار. و(الذرية) من (ذراً الله الخلق) أي خلقهم (٦) .

(١) ينظر: لسان العرب (حيي) ، ومعجم مفردات القرآن ١٣٨ .

(٢) سورة فاطر ٩ .

(٣) سورة ق ١١ .

(٤) ينظر: روح المعاني ٦٧ / ٢٥ ، وتفسير النسفي ٣ / ٣٣٧ .

(٥) سورة يونس ٨٣ .

(٦) ينظر: لسان العرب (ذرر) .

ووردت كلمة (الذُرِّيَّة) في القرآن الكريم (١١) مرَّة^(١) . جميعها تُعطي معنى النسل، أي : مشتقَّة من (ذَرَوْتُ) أو (ذَرَيْتُ) أو ذرأ الله الخلق)، و(الذرو) يُضْمُ ذالها ويُكسَرُ ويُفْتَحُ^(٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾^(٤) ولكن في قوله تعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ خرجت كلمة (ذُرِّيَّة) من معناها العام إلى معنى خاص، فأعطت معنى: النفر القليل ، وخروجها هنا على سبيل المجاز المرسل، لأنَّ (الذُرِّيَّة) معناها أولادُ الأولاد، لأنَّ الله (عزَّوجلَّ) أخرج الخلق من صلب آدم(عليه السلام)^(٥) .

بينما اختلف أهل التأويل في معنى "ذُرِّيَّة" في هذا الموضع ، فقال بعضهم: هي بمعنى : قليل ، وقال آخرون: هي بمعنى : ذُرِّيَّة مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ موسى من بني إسرائيل ، لأنَّ الآباء ماتوا ، وبقي الأبناء، فقيل لهم (ذُرِّيَّة) ، لأنَّهم كانوا ذُرِّيَّة

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٧٥.

(٢) ينظر : البحر المحيط ٣٧٢/١.

(٣) سورة مريم ٥٨ .

(٤) سورة الرعد ٣٨ .

(٥) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١٠٧/١.



مَنْ هَلَكَ مِمَّنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مُوسَى (عليه السلام) ^(١) ، وعن ابن عباس (رضي الله عنه) قال : (الذُرِّيَّة) : القليل ^(٢) . وعن مجاهد قال : " يعني أَنَّهُ لم يُؤْمِنَ به منهم أَحَدٌ ، وَإِنَّمَا آمَنَ أولادهم " ^(٣) .

٦ - ومن علاقاتِ المجازِ المُرسَلِ : الحالِيَّةُ والمحلِيَّةُ، ومنه قوله تعالى :
﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ﴾ ^(٤) (السَّبِيلُ) في اللُّغة : الطَّرِيقُ ^(٥) . والمراد بـ (ابن السَّبِيلِ) في الآية
الكريمة: الضَّعِيفُ الْفَقِيرُ الَّذِي نَزَلَ بِدِيَارٍ غَيْرِ دِيَارِهِ ^(٦) ، أَوْ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
أَوْ الْمَسَافِرُ ، أَوْ الَّذِي قُطِعَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ ، أَوْ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ وَأَخَذَ مَالَهُ
وَبَعَدَ عَنْ أَهْلِهِ ^(٧) . فـ (ابنُ السَّبِيلِ) هُوَ وَصْفٌ لِلْمُغْتَرِبِ الْفَاقِدِ لِلْمَالِ، وَقِيلَ: (ابنُ
السَّبِيلِ) لِمَلَازِمَتِهِ الطَّرِيقَ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ، إِذْ أُطْلِقَ الْمَحَلُّ عَلَى الْحَالِّ، أَوْ
سُمِّيَ الْحَالُّ بِاسْمِ الْمَحَلِّ.

(١) ينظر : تفسير الطبري ١١/١٤٩ .

(٢) ينظر: الدر المنثور ٤ / ٣٨٢ .

(٣) معاني القرآن ، للنحاس ٣ / ٣٠٨ .

(٤) سورة البقرة ١٧٧ .

(٥) ينظر: لسان العرب (سبل) .

(٦) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١ / ١٦٧ ، والدر المنثور ١ / ٤١٥ .

(٧) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٣ / ٢٢٦ ، وتفسير النَّسْفِيِّ ٢ / ٩٥ .

وعكسه هو إطلاق الحال على المحل ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (١) فكلمة (آمناً) وردت في القرآن الكريم (٦) مرّات (٢) ، وصفاً لحال الناس ، وجاءت في آية البقرة وصفاً لحال البلد، فـ (الآمن) لأهل البلد، وليس البلد، فقوله : إشارة إلى الوادي المذكور في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (٣) أي : اجعل هذا المكان الفقراً بلداً آمناً، إمّا على النسب ، أي : ذا أمنٍ ، على حدّ ما قيل في " عيشة راضية " (٤) وإمّا على الإتياع المجازي ، فالأصل: آمناً أهله ، فأُسندَ إلى المحلّ ، بدلَ إسنادِهِ إلى الحال، لأنّ الأمنَ والخوفَ من صفات ذوي الإدراك (٥). وما يبيّن ذلك إضافة الرزق في تنمّة الآية إلى أهله ، فقال : ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ، ولم يقل : (وارزقه من الثمرات) ، وإنما أضاف الرزقَ إلى أهله على الحقيقة ، فجاء بالمجاز في هذه الآية ملازماً للحقيقة، أحدهما يُبرزُ جماليّة الآخر، فالمجازُ في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ في طلب الأمان للبلد ، والمقصود به (مكة) ، إذ تُسمّى (البلد الأمين)، فقد كان آمناً قبل مبعث النبي (ص) لا يَغَارُ عليه (٦) ، وحيثُ أنّ الأمان لا يكون

(١) سورة البقرة ١٢٦ .

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٩٢ .

(٣) سورة إبراهيم ٣٧ .

(٤) سورة الحاقة ٢١ .

(٥) ينظر: روح المعاني ٣٨١/١ .

(٦) ينظر: الدر المنثور ٤٦/٥ .

للجماد ، جاز طلبُ الأمان للبلد، وأرادَ أهله، إذ الأمانُ : إحساسٌ لا يتَّصِفُ به إلاَّ الناسُ، ولا يمكن تَصَوُّرُهُ في هياكل مَكَّةَ وجماداتِها ، فأَسْنَدَ الأمانُ إلى مَكَّةَ وأراد ساكنيها، بمعنى أَنَّهُ ذَكَرَ لفظَ المحلِّ وأراد الحالَّ فيه ، وهو ما يسمَّى بـ (العلاقةِ المحليَّةِ) ضمن علاقات (المجاز المرسل) (١) .

(١) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٣ / ٥٣٥ ، وتفسير النَّسْفِي ١ / ١٦٨ .

المبحث الثاني تطور التشبيه في القرآن الكريم

التشبيه أحد الأركان الأساسية في أصول البيان العربي ومصادر التعبير الفني، ففيه تتكامل الصور وتتدافق المشاهد . والتشبيه محاولة بلاغية جادة لصقل الشكل وتطوير اللفظ، ومهمته تقريب المعنى الى الذهن بتجسيده حياً ، ومن ثم فهو ينقل اللفظ من صورة الى أخرى على النحو الذي يريده المصور، فإن أراد صورة متناهية في الجمال والأناقة شبّه الشيء بما هو أرجح منه حسناً ، وإن أراد صورة متداعية في القبح والتفاهة شبّه الشيء بما هو أردأ منه صفة^(١) .

والتشبيه أكثر الأساليب البيانية في القرآن الكريم ، واعتماد القرآن عليه دليل قوي على تفاعل ماموجود في البيئة العربية ، مع ما نزل به القرآن الكريم، مما أدى الى تقديم ما أراد الله قوله مجسماً حياً نابضاً. فالقرآن يجسّد المعنى كي يكون مؤثراً في أرقى أشكال التعبير. ومنه تصويره ما ترتاح إليه العين والأذن في وصف الجنة ، وما أعدّه للمتقين من ثواب جميل. أو تصويره ما ينفر عنه ، كما في رسم مشاهد الكفار وعذاب الآخرة. وذلك لأن الغاية من أسلوبه دينية ، تتضمن هداية البشر بالترغيب والترهيب ، وإن هذه الغاية تعتمد على فنون اللغة بغناها، وتبث فيها روح السمو . فالقرآن معجزة بيانية قائمة على التأثير النفسي والعقلي^(٢) .

(١) ينظر: أصول البيان العربي ٦٣-٦٤.

(٢) ينظر: دراسة أدبية لنصوص من القرآن ١٠٧.



والتشبيه ، بكونه أحدَ عناصر البيان المؤثرة في النفس ، كان له دورٌ كبيرٌ في القرآن الكريم. فقد عني البلاغيون به كثيراً ، لما له من أثر جمالي ونفسي في الكلام. فكان لرصد التشبيه عامة ، والتشبيه القرآني خاصة ، أثر كبير في الكشف عن مداليل الآيات القرآنية ، واستجلاء النصوص الأدبية. فكان للتشبيه ذكرٌ في كتب القدماء من اللغويين والبلاغيين ، لما له من أهمية بيانية.

و(التشبيه) لغةً : التمثيل ، " الشبهُ والشبهُ والشبهِ : المثلُ ، والجمعُ (أشباه) ، و(أشبهَ الشيءَ) ماثلُهُ . و(أشبهتَ فلاناً وشابهتَهُ) و (اشتبهَ عليٌّ) و(تشابهَ الشيطانُ واشتبهَا) : أشبهَ كُلُّ منهما صاحِبَهُ ، و(شبّههُ إياه) و(شبّههُ به): مثلهُ ، و(التشبيهُ) و(التمثيلُ) واحدٌ " (١).

فالواضح أن التشبيه هو ربطٌ بين أمرين . وقد اهتم علماء البلاغة بـ(التشبيه) ، فأفاضوا في الحديث عنه ، لما له من أثر في المتلقّي للبيت الشعري أو الآية القرآنية . فأوردوا له حدوداً كثيرة ، منها ما قاله قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ): " إنَّ الشَّيْءَ لَا يُشَبَّهُ بِنَفْسِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ ، إِذْ كَانَ الشَّيْءَانِ إِذَا تَشَابَهَا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمَا تَغَايِيرُ الْبَيِّنَاتِ ، إِتَّحَدَا فَصَارَ الْاِثْنَانِ وَاحِدًا. فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراكٌ في معانٍ تعمّهما ويوصفان بها ، واقتراقٌ في أشياء ينفردُ كُلُّ واحدٍ منهما عن صاحبه بصفقتها. وإذا كان الأمرُ كذلك ، فأحسنُ التشبيه هو ما وقع بين الشَّيْئَيْنِ اشْتِرَاكُهُمَا فِي الصِّفَاتِ أَكْثَرَ مِنْ انْفِرَادِهِمَا فِيهَا ، حَتَّى يُدْنِي بَهُمَا إِلَى حَالِ الْاِتِّحَادِ " (٢) .

(١) لسان العرب (شبه).

(٢) نقد الشعر ١٢٤ .



وقال فيه ابن رشيقي (٤٥٦هـ) : هو " صفةُ الشيء بما قاربه وشاكله من جهةٍ واحدةٍ ، أو جهاتٍ كثيرةٍ ، لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كُيِّة لكان إيَّاهُ" (١) .

وفي ضوءِ ما تقدّم فالتشبيه يُدركُ إمّا بالحسِّ وإمّا بالعقلِ ، فالصورة إمّا أن تكونَ حسيّةً ملموسةً ، وإمّا أن تكونَ عقليّةً مجردةً ، تحتاجُ إلى تأويلٍ في إدراكها ، وخيالٍ لاحتوائها . وهذا التشبيه إمّا أن يكونَ بعيداً أو قريباً ، يقول عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في التشبيهات القرآنية : " إذا استقرت التشبيهات وجدتَ التباعد بين الشئيين كلما كان أشد كانت النفوسُ أعجبَ ، وكانت النفوس لها أطربَ ، وكان مكانها من أن تُحدثَ الأريحيةَ أقربَ" (٢) . فالتشبيهُ عنصرٌ أساسيٌّ في التركيب الجملي ، والمعنى العام المراد لا يتمُّ إلا به ، فالنصُّ الأدبي الممتاز لا يقصد إلى التشبيه بوصفه تشبيهاً فحسب ، بل بوصفه حاجةً فنيّةً تبنى عليها ضرورة الصياغة والتركيب .

فالجوء الى التشبيه إنما هو لإصابة المعنى ، وتقرير حال المشبه به في نفس السامع ، وإيضاح معالم المجهول بالمعلوم الشائع ، لأنّ التشبيه قياسٌ مجهولٌ على معلوم شائع ، يقول السكاكي (٦٢٦هـ) : " إنّ التشبيه مستدعٍ طرفين : مشبّهاً ومشبّهاً به ، اشتراكاً بينهما في وجه ، وافتراقاً من آخر ، أن يشتركا في الحقيقة ، ويختلفا في الصفة ، أو بالعكس " (٣) .

(١) العمدة ٢٨٦/١ .

(٢) أسرار البلاغة ١٤٦ .

(٣) مفتاح العلوم ١٧٧ .

والقدر الجامع لنظرة البلاغيين الى التشبيه هو التفنن بإبراز الصورة الفنيّة للشكل ، واستقراء دلالاتها الحسية، وذلك عن طريق تسخير قدرة التشبيه الخارقة في تلوين الشكل بظلال مبتكرة، وأزياء متنوعة لم تقع بحس قبل التشبيه، ولم تجر بها العادة ، ولاتعرف بداهة إلا بملاحظة مجموعة العلاقات الفنية في التشبيه، وعند ضم بعضها الى البعض الآخر تبدو محسوسة ذات قوّة وصفيّة، ومن هنا تترك القدرة الابداعيّة للتشبيه في تكثيف الصورة. وهذا ماجعل ابن الأثير (٦٣٧هـ) يقول : " إنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به الخيال في النفس بصورة المشبّه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب ، فيه أو عنه ، ألا ترى أنك إذا شبّهت صورةً بصورةً هي أحسن منها ، كان ذلك مثبتاً في خيال حسن يدعو الى الترغيب فيها، وكذلك إذا شبّهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيلاً يدعو الى التّفير منها" (١) .

فابن الأثير قد أفاد بأنّ التشبيهات القرآنية قد ربطت جانب الحس الى الجانب العاطفي في تخيل الصورة في النفس وإثارة الإنفعالات الوجدانية حولها في مجالين متقابلين ، هما الترغيب والتّفير ، تماشياً مع اعتياد العرب على ذلك. وهذا ماجعل ابن الاثير (٦٣٧هـ) يعتقد أنّ التشبيه : " يجمع صفات ثلاث ، هي: المبالغة ، والبيان ، والاعجاز" (٢) ، لهذا فإنّ الحاجة ماسّة الى التشبيه في مهمّته التصويريّة بالنسبة للتشبيهات القرآنية ، نظراً لخصائصه المتميّزة .

إنّ القرآن الكريم يستمدّ عناصره في التشبيه من الطبيعة، من نباتها وحيوانها وجمادها ، ليشبّه به المعنى الذي يُرادُ قوله . فالتشبيه بعد كلّ هذا هو

(١) المثل السائر ١/٣٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

مقاله القزويني (٧٣٩هـ) : " الدلالة على مشاركة آخر لأمر في معنى " (١) ، والدلالة تعني كون الشيء بحالة يلزم العلم به ، وفي هذا اقتراب التشبيه من نظرة المحدثين له. إذ إنَّ الدلالة هي أساس التلازم بين أمرين، فإن كان وصفاً فالدلالة وصفية ، وإن كان طبيعياً فالدلالة طبيعية، وإن كان عقلاً فالدلالة عقلية (٢) .

في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الزُّجَاةِ كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ (٣) ، وردت (مشكاة) في تشبيه النور الإلهي ، وهو من التشبيه المقلوب، لأن حقيقة نور (المشكاة) هو جزء من النور العام. إلا أنَّ التعبير القرآني جاء بالصورة معكوسةً فشبهه النورَ بالمشكاة (٤) . إذ نجد في ذلك، بدون أدنى شك، تشبيهاً للأعلى بالأدنى، وللمتكامل بالناقص، وللثابت بالمتلاشي، ولكنه في الواقع تقريب للمعنى من أذهان المخاطبين، وتصوير لأمثلة نوره التي لايدانيها شيء بما تدركه الحواس. إلا أنَّ هذه الصورة إنما هي الأوضح في ذهن العرب ، لأنَّ التشبيه فيها يقوم على أساس تشبيه الصورة المجهولة التي لا تدانى بالصورة المعروفة لدى الناس. وطالما أنَّ المشكاة هي الكوة التي ليست بنافذة ،

(١) الإيضاح ٢١٣ ، وينظر: التلخيص ٢٣٨.

(٢) ينظر: علم الدلالة عند العرب ٤٢ ، والدلالة ، أحمد مختار ١٥.

(٣) سورة النور ٣٥.

(٤) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ١٩٣.

وهذا مثل ضربه الله لقلب المؤمن والإيمان فيه ^(١) . ف(مَثَلُ نُورِهِ) أي : صفة نوره العجيبة الشأن في الإضاءة كـ(مشكاة) أي : كصفة مشكاة وهي الكوة ^(٢) .
ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ ^(٣) ، ف(صفوان) : حجرٌ أملس ^(٤) . أمّا في السياق القرآني فشكّلت هذه اللفظة صورة عبّرت عن المرائي في الإنفاق ، فشبه حاله بحال حجرٍ أملس عليه تراب ، نزل عليه المطر فتحجر ، فقيل : ((فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ)) ، فمثّله ونفقته التي لا ينتفع بها البتّة بصفوان ، أي : بحجر أملس عليه تراب ^(٥) .
والذي جوّز هذا التشبيه أنّه معقودٌ على عدم الإنتفاع ، فنفقة المنافق كالتراب في رجاء النفع منها بالأجر والإثبات ، وريأؤه كالوابل المذهب له .
فجاء بهذه الآية تهديدًا للمنافقين الذين يُبطلون صدقاتهم بالمنّ والأذى ^(٦) .
ومن ألفاظ الطبيعة التي صورّ بها القرآن والمعاني : (الغيث) ، وهي في اللغة بمعنى : المطر ، إذ فسّرت معاجم اللغة (الغيث) و(المطر) أحدهما بالآخر ، ولم تجعل بينهما فرقاً، جاء في لسان العرب : (الغيث) و(المطر) واحد ، أي :

(١) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٣١١/١ ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٧٣ ،

ومعاني القرآن ، للفرّاء ٢٥٢/٢ .

(٢) ينظر: الكشف ٦٧/٣ .

(٣) سورة البقرة ٢٦٤ .

(٤) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١٣٨/١ .

(٥) ينظر: الكشف ٣٩٤/١ .

(٦) ينظر: روح المعاني ٣٥/٣ ، وتفسير النسفي ١٢٩/١ .

الماء المنسكب من السماء ^(١) ، بينما فرق القرآن بين (المطر) و(الغيث) في الاستعمال ، فجعل لكل منهما دلالة مميزة ، ف (الغيث) يُعبرُ به عن الماء المنسكب من السماء للرحمة والنماء والري والعطاء . ويعبرُ بـ (المطر) عن العذاب النازل بالكافرين ^(٢) .

وقد وردت كلمة (الغيث) بمعناها الحقيقي في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ ﴾ ^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ ^(٤) ، ف (الغيث) هنا : الماء النازل من السماء رحمة بالعباد .

أما قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ ^(٥) ، فشبّه حال الدنيا وتكالب الناس عليها ، وتفآخرهم بما لا يبقى ، وتكاثرهم بما لا يبغي ، بنبات أنبتته الغيث فاستوى ، فأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث الله عليه الآفة فهاج واصفرّ وصار حطاماً ، عقوبة لهم على جحودهم ^(٦) .

(١) ينظر: لسان العرب (غوث) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٣٧٩ .

(٢) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر والقرآن ٥٠٧ .

(٣) سورة لقمان ٣٤ .

(٤) سورة الشورى ٢٨ .

(٥) سورة الحديد ٢٠ .

(٦) ينظر: الكشاف ٦٥/٤ ، وتفسير النسفي ١٨/٤ ، وروح المعاني ١٨٤/٢٧ .

ومثل ذلك كثير في تشبيه حال الدنيا وسرعة تقضيها وعدم ثباتها على حال، ومن جملة الألفاظ التي جعلها القرآن معادلةً للحياة الدنيا كلمة (الماء) ، ففي قوله تعالى : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ** ﴾ ^(١) ، وقوله أيضاً: ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ** ﴾ ^(٢) ، (الماء) هو المعادل الموضوعي لـ(الحياة) ، فانتقلت اللفظة عن طريق التشبيه من حالة الى حالة. إذ شبّه حال الدنيا بالماء فيما يكون من المتاع ثم الإنقطاع ، وكذلك كون الماء إذا جرى في مكان غادره الى غيره إذ لا يمكن الإمساك به ^(٣) . ولعلّ مردّ ذلك إلى أنّ حال النبات المسقي بالماء وما يضيفه عليه من بهاء وحسن ونضارة كحال الدنيا والإستمتاع بملذّاتها ^(٤) .

وجاءت صورة (الزرع الذي أخرج شطأه) مشبّهًا به لرسول الله والذين معه ، في قوله تعالى : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ** ﴾

(١) سورة الكهف ٤٥ .

(٢) سورة يونس ٢٤ .

(٣) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن ٩١ .

(٤) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٨١/١ ، وروح المعاني ١٥/٢٩ ، ومعاني

القرآن للنحاس ٢٨٧/٣ .

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾ ، فكلمة (شطاءه) في اللغة تعني: شَطَاءَ الزَّرْعِ أَي : ماخرج
منه وتفرَّع عنه ، أي : في جانيبه، وجمعه (أشطاء) (٢) .

أمَّا في السياق القرآني فهي نعت للمؤمنين في كل زمان ، في التوراة وفي
الانجيل وفي القرآن (٣) ، فهم بوادٍ خير ، تبدأ صغيرة ثم تكبر وتنتشر ، لذا
شبههم بـ (الشطاء) ، فقال ﴿ كَزَرَاعٍ أُخْرِجَ شَطْنُهُ ﴾ أي : فراخه وصغاره ،
ثم قوي فاستغلظ ، فصار من الرقة الى الغلظ ، فاستقام (٤) .

ومن الألفاظ التي رسم بها القرآن صورة لشيء غير معهود لفظتا (المهل) و
(العهن) في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ ﴾ (٥) ، فكلمة (المهل) في اللغة تعني: ضربًا من القطران (٦) ، وولفظه
(العهن) تعني : الصُّوف (٧) .

إنَّ الصور التي رسمها القرآن لمشاهد يوم القيامة صور جميلة ومؤثرة
لأنَّها تخاطب النفس البشرية وتستفز أحاسيسها وتشغل حواسها. ففي الآية السالفة
الذكر وصف للطبيعة وكيفيتها في اليوم الموعود . أمَّا وصفُ الناس وأحوالهم في

(١) سورة الفتح ٢٩ .

(٢) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٦٨ ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٣٨٤/١ .

(٣) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٥١٥/٦ .

(٤) ينظر: الكشاف ٥٥١/٣ ، وتفسير النسفي ١٦٠/٤ .

(٥) سورة المعارج ٨-٩ .

(٦) ينظر: لسان العرب (مهل) .

(٧) ينظر: المصدر نفسه (عهن) .

ذلك اليوم فخير مايمثله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ

الْمَبْتُوثِ﴾^(١)، فـ(الفراش) من الحيوانات الصغيرة الطائرة المنتشرة^(٢).

أما ما تشكّله هذه الحيوانات في النصّ القرآني فصورة جميلة ، إذ شبّهت الناس في حالِ فرعهم بهذه الحيوانات ، فـ (الفَرَّاشُ) هنا : (الناسُ) ، يوم القيامة في الكثرة ، والإنتشار ، والضعف ، والدّلة ، والتطاير الى الداعي من كل جانب ، كما يتطاير الفراش الى النار . وسمّي فراشاً لتفرّشه وانتشاره^(٣).

(١) سورة القارعة ٤ .

(٢) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ٣٨٩ .

(٣) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٦٦/١ ، وروح المعاني ٢٢٠/٣٠ .

المبحث الثالث

تطور الاستعارة في القرآن الكريم

تعدُّ الاستعارة لوناً من ألوان التصوير في القرآن ، وهي من الأدوات المفضلة فيه، ومن خلالها كان يعبر عن المعنى الذهني والحالة النفسية، بالصورة المحسوسة ، فهو يعمد الى هذه الصورة التي رسمها ، فيعطيها ألوانها وظلالها، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يضيف اليها الحركة ، فالحوار ، فاذا هي شاخصة تسعى .

والاستعارة لغةً : تداول الاشياء بين الناس . فقد جاء في: " (قد أعاره الشيء) و (أعاره منه) و (عاوره إيّاه) . و (المعاورة) و (التعاور) : شبه المداولة، والتداول في الشيء يكون بين اثنين ... و (تَعَوَّرَ) و (استعار) : طلب العارية . و (استعارة الشيء) و (استعارة منه) : طلب منه ان يُعِيرَهُ إيّاه" (١) .

واستعارة الألفاظ هو نوع من التطور الدلالي ، يحصل بنقل الالفاظ الموضوعة للدلالة على الأمور المادية المحسوسة للتعبير عن الأمور المعنوية، فهي نوع من المجاز ، تقوم العلاقة فيه بين المعنى الاول للكلمة ، ومعناها الثاني، على المشابهة.

فالاستعارة كما حددها الجاحظ (٢٥٥هـ) هي : " تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه " (٢) . وذكرها ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في كتابه (تأويل مشكل القرآن) بقوله : " العرب تستعيرُ الكلمة فتضعها مكان الكلمة اذا كان المُسمَّى بها بسبب من الأخرى ، أو مجازاً لها ، أو مشاكلاً " (٣) . فالاستعارة في مفهوم القدماء : هي

(١) لسان العرب (عور).

(٢) البيان والتبيين ١/١٥٣ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ١٠٢ .

استعارة لفظة مكان لفظة أخرى ، لعلاقة المشابهة بين اللفظتين ، كما أبانت تفسيراتهم للآيات القرآنية بيانياً، وماكشَفَ عنه شرحهم للشواهد الشعرية دلاليًا. وعندها يمكننا الوقوف على تلك الأساليب التعبيرية بما حملته تلك الآيات والشواهد على وفق مذهب العرب في كلامهم.

وقد اهتمت الكتب البلاغية ، التي تحدّثت عن الإعجاز القرآني ، بهذا المصطلح، وبيّنت الميزة في استعماله، وحلّلت جمالية الآيات الواردة فيه.

فأشار الرُّماني (٣٨٦هـ) إليها بأنّها : " تعليق العبارة على غير ما وُضِعَتْ له في أصل اللغة على جهة النّقل للإبانة" ^(١) . إلا أنّ الجرجاني (٤٧١هـ) يرى أنّ هذا الحدّ ونحوه ممّا يُفسَّر (الاستعارة) بنقل العبارة عمّا وُضِعَتْ له ، لا يصحُّ الأخذُ به ، لوقوع ما يوهّم الخطأ في عبادته ، إذ يقول : " وإطلاقهم في (الاستعارة) أنّها "نقلٌ للعبارة عمّا وُضِعَتْ له " ، من ذلك فلا يصحُّ الأخذُ به ؛ وذلك أنّك إذا كنت لاتُطلق اسم (الاسد) على (الرجل) إلا من بعد أن تُدخِلَه في جنس الأسود ، من الجهة التي بيّنا ، لم تكن قد نقلتَ الاسم عمّا وُضِعَ له بالحقيقة، لأنّك إنّما تكون ناقلًا له في حال ما إذا أنتَ أخرجتَ معناه الأصلي من أن يكون مقصودك، ونفصتَ منه يدك ، فأما أن تكون ناقلًا له عن معناه، مع إرادة معناه، فمحالٌ مُتناقضٌ" ^(٢) . ويسمّيها ابن وهب (٣٣٥هـ) التّوسُّع والمجاز، وعلّل ظهورها في الكلام بقوله : " وأما الاستعارةُ فإنّما أُحتججُ إليها في كلام العرب، لأنّ ألفاظهم أكثر من معانيهم، وليس هذا في لسانٍ غير لسانهم ، فهم يعبّرون عن المعنى الواحد بعباراتٍ كثيرة ، ربّما كانت مفردةً له ، وربّما كانت مشتركةً بينه

(١) النكت في إعجاز القرآن ٧٩.

(٢) دلائل الإعجاز ٤٣٥.

وبينَ غيره ، ورُبَّما استعملوا بعض ذلك في موضع بعض على التوسُّع والمجاز^(١) .

وهذا ما فَضَّلَه العسكري (٣٩٥هـ) بقوله : " هي نقلُ العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللُّغة الى غيره لغرضٍ ، وذلك الغرضُ إمَّا أن يكون شرحَ المعنى وفضلَ الابانةِ عنه ، أو تأكيدَه والمبالغة فيه ، أو الاشارة إليه بالقليل من اللَّفظ ، أو تحسينِ المَعْرِضِ الذي يبرز فيه ، وهذه الأوصاف موجودةٌ في الاستعارة المصيبة ، ولولا أنَّ الاستعارة المصيبة تتضمَّن الحقيقة مع زيادة فائدة ، لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً"^(٢) .

وهذا ما أكده عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) بقوله : " الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتَدَعُ أن تُفصِحَ بالتشبيه وتُظهِرَهُ ، وتَجِيءُ الى اسم المُشَبَّه به ، فتَعْبِرُهُ المُشَبَّه وتُجْرِيه عليه"^(٣) .

فلو تتبَّعنا البُعد الاستعاري كما يراه عبد القاهر ، فلا بُدَّ من إدراك معنى اللفظ ، وإيجاد العلاقة بين المعنى واللفظ ، فالاستعارة عنده قائمةٌ على التَّشْبِيهِ ، وهي كذلك عند البلاغيين الذين جاءوا بعده ، ولكنَّ الفرق بينها وبين التَّشْبِيهِ يتجلَّى بأنَّها قائمة على حذف أحد طرفيه ، وبقاء الآخر ، للمشابهة بين الموجود والمحذوف ، في حين أنَّ التَّشْبِيهِ يبقى طرفاه وإن حُذِفَت الأداة ، ويُسمَّى بليغاً عند بعضهم^(٤) . وكذلك هي عند ابن الأثير (٦٣٧هـ) ، إذ قال عنها : إنَّها : " نقل المعنى من لفظ

(١) البرهان في وجوه البيان ١٤٢ .

(٢) كتاب الصناعتين ٢٦٨ .

(٣) دلائل الإعجاز ٥٣ .

(٤) أسرار البلاغة ٢٩٨ .



الى لفظ ، لمشاركة بينهما ، مع طي ذكر المنقول إليه . لأنه إذا احتُرزَ فيه هذا الإحتراز أُختصَّ بالاستعارة ، وكان حدًّا لها دون التشبيه^(١) . وهذا مانجده أيضاً في كلام السكاكي (٦٢٦هـ) عن الاستعارة ، فهي: " أن تذكر أحدَ طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر ، مُدَّعياً دخول المُشَبَّه في جنس المُشَبَّه به ، دالاً على ذلك بإثباتك للمُشَبَّه ما يخصُّ المُشَبَّه به " (٢) .

فالألفاظ المستعارة ألفاظ موحية ، لأنها أصدق أداة تجعل القاريء يحسُّ بالمعنى أكمل أحساسٍ وأوفاه ، وتصور المنظر للعين ، وتنقل الصورة للأذن ، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محسوساً . وحسبنا أن نقف على بعض هذه الألفاظ المستعارة الموحية ، ونتبين سرَّ اختيارها . إذ إنَّ إحصاء ماورد منها في القرآن الكريم منها ، لا يؤدي الى بيان الجمال الفني في هذا اللون من التصوير ، ومن هنا يمكن تبيان الاسرار التي دعت الى إثارة الاستعارة على الكلمة الحقيقية .

ففي قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٣) ، وقوله أيضاً : ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْثًا ﴾^(٤) . نجد أن كلمة (مَيْثًا) وردت في القرآن الكريم على سبيل المجاز ، عدا قوله تعالى : ﴿ أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ

(١) المثل السائر ٣٦٥/١ .

(٢) مفتاح العلوم ٥٩٩ .

(٣) سورة الأنعام ١٢٢ .

(٤) سورة الزخرف ١١ .



مَيِّتًا فَكَّرْهُتُمُوهُ ﴿١﴾ . إذ استعمل كلمة (ميتاً) هنا للدلالة على الموت الحقيقي ، لأنَّ الموت هو فقدانُ الحياة. بينما نجدُ في غيرها من الآيات القرآنية أنَّ كلمة (مَيِّتًا) في كلِّ سياق لها دلالةٌ مجازيةٌ ، ففي الآية الأولى دلَّت على (الكافر الضَّال) على سبيل الاستعارة . فالموتُ هنا ليس الهلاكَ والفناءَ المعروفين ، بل هو موتٌ من نوعٍ آخر، يُصيبُ الروحَ ويُعطِّلُها ، وقد كَثُرَ التَّقابلُ في ألفاظِ (الحياة والموت) في القرآن الكريم على سبيل الاستعارة بدلاً من (الضلالة والهدى) (٢) ، وهذا تطوُّرٌ في دلالات الألفاظ على سبيل الاستعارة (٣) .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَدَأَةَ مَيِّتًا ﴾ ، فالبلدُ لا يموتُ ، وإنما الموت هنا دلالةٌ على القحطِ والجفاف ، اللذين بسببهما يموت النبات ، وبموته يموت الحيوانُ والإنسانُ اللذان يقتاتان عليه، فلفظة (ميتاً) في هذه الآية خرجت من معناها الحقيقي الى معنى آخر مجازي.

فالاستعارة تحوُّلٌ في مجال الدلالة ، لوجود تشابه بين المدلولين . ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (٤) ، كلمة (طغى) هنا استعارةٌ ، لأنها تُطلقُ في اللِّغة على تجاوز الحدِّ ، فيقال : (طغى يَطْغَى وَطَغَوْنَا وَطَغِيَانًا) ، و(أَطْغَاهُ كَذَا) : حَمَلَهُ عَلَى الطُّغْيَانِ ، وذلك تجاوز الحدِّ في العصيان (٥) . وكذلك هو معناها في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾ (١) ،

(١) سورة الحجرات ١٢ .

(٢) ينظر: ألفاظ الهدى والضلال في القرآن الكريم (دراسة دلالية) ١٥٦ .

(٣) ينظر: الكشاف ٦٢/٢ .

(٤) سورة الحاقة ١١ .

(٥) ينظر: لسان العرب (طغى) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٣١٤ .

ولكنها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ قد أستهيرت لتجاوز الماء الحدَّ المألوف . وكذلك قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ^(٢) فاستعيرت كلمة (طَغَى) للبصر كما استعيرت للماء لتشابه علوه الماء وارتفاعه المادي لذلك الطغيان المعنوي الذي يكمن في نفسية الإنسان المتعالي المتعطرس الظالم . فاستعيرت هذه الكلمة لتطلق على الماء لتجاوزه حدَّ المعتاد، للإيحاء بأن وراء هذه الاستعارة أمراً عظيماً ، وهو العذاب الشديد الذي حلَّ بقوم نوح عليه السلام كما يحكيه القرآن ^(٣) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ^(٤) ، فكلمة (اشتعل) هنا وردت لمرة واحدة في القرآن الكريم على سبيل الاستعارة، فأعطت معنى (امتلاً)، لأنَّ (اشتعل) في اللغة بمعنى: إلتهبَ ، و(الشَّعْلُ) : التهابُّ النَّارِ في الشَّيْءِ . فجاء قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ تشبيهاً لانتشار الشيب بالإشتعال من حيث اللون ، ويقال : (اشْتَعَلَ فُلَانٌ غَضَبًا) تشبيهاً به من حيث الحركة ^(٥) . وتشبيه الشيب بشواظ النار في بياضه ، وإنارته ، وانتشاره في الشعر ، وفشوؤه فيه، وأخذه منه كلَّ مأخذ ، ثمَّ إخراج مخرج الاستعارة . ثمَّ إسناد الإشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مميّزاً لذلك ^(٦) . فبياض الشيب

(١) سورة العلق ٦ .

(٢) سورة النجم ١٧ .

(٣) ينظر: الكشاف ١٥٠/٤ ، والنكت في إعجاز القرآن ٨٧ .

(٤) سورة مريم ٤ .

(٥) ينظر: لسان العرب (شعل) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٦٩ .

(٦) ينظر: الكشاف ٥٠٢/٢ .

شُبَّهَ بِإِنَارَةٍ شَوَاطِئُ النَّارِ الْمُتَصَاعِدَةِ عِنْدَ الْإِشْتِعَالِ ، لَذَا اسْتُعِيرَتِ كَلِمَةُ (اشْتَعَلَ) مِنْ مَعْنَاهَا لِتَقْتَرْنَ بِالرَّأْسِ وَالشَّيْبِ ^(١) . وَقَدْ رُكِّزَ عَلَى صُورَةِ الْإِشْتِعَالِ الَّتِي لَمْ تَوْضَعْ فِي أَسْلِ اللُّغَةِ لِلشَّيْبِ . إِذِ الْإِشْتِعَالُ لِلنَّارِ ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ يُلْحَظُ فِي الْإِشْتِعَالِ أَنَّهُ يُحِيلُ الْمَادَّةَ إِلَى غَيْرِ حَالَتِهَا الْأُولَى ، وَ(الشَّيْبِ) الَّذِي يُحِيلُ الرَّأْسَ إِلَى غَيْرِ حَالَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ فَقَدْ قُرِنَ بَيْنَهُمَا لَوْجُودِ التَّشَابُهِ بَيْنِ الْعَمَلِيَّتَيْنِ . فَالْمَشَبَّهُ بِهِ (النَّارُ) أَقْوَى وَأَظْهَرَ ، لِذَلِكَ زَادَتِ الْإِسْتِعَارَةُ مَدْلُولَ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ بَيَانًا وَوَضُوحًا ^(٢) .

وَمِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُنْتَقَلَةِ مِنْ مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيِّ ، إِلَى مَعْنَى آخَرَ تَوْضَّحَهُ الصُّورَةُ الْمُتَخَيَّلَةُ لِلْمَعْنَى ، كَلِمَةُ (عَقِيمٌ) كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ ^(٣) ، وَقَوْلِهِ أَيْضًا : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ ^(٤) ، فَكَلِمَةُ (عَقِيمٌ) فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مُسْتَعَارَةٌ ، خَرَجَتْ عَنْ مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيِّ إِلَى مَعْنَى مُجَازِيٍّ ، فَأَعْطَتْ مَعْنَى (التَّدْمِيرِ) . وَفِي مَوَاضِعَ أُخَرَ اسْتُعْمِلَتْ بِمَعْنَاهَا الْحَقِيقِيِّ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأَقْبَلتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ ^(٥) ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ نُكْرَانًا وَإِنَانًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ ^(٦) ، فَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى مَنْ لَا تَلَدٌ ، كَمَا جَاءَتْ فِي اللُّغَةِ ، إِذْ أَسْلُبُ (عَقِيمٌ) مِنْ (العُقْمِ) وَهُوَ : الْبَيْسُ الْمَانِعُ مِنَ

(١) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٣٠٨/٤ ، وروح المعاني ٦٠/١٦ .

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ٦٥ .

(٣) سورة الحج ٥٥ .

(٤) سورة الذاريات ٤١ .

(٥) سورة الذاريات ٢٩ .

(٦) سورة الشورى ٥٠ .



قبول الأثر . يُقال : (عَقَمَتْ مفاصلُهُ) و (دَاءٌ عُقَامٌ) : لا يقبلُ البرءَ ، و (العقيم من النساء) التي لاتنجب أولادًا، يقال (عقمت المرأة والرحم) (١) .

أمّا في السياق القرآني الأنف الذكر فكلمة (عقيم) صفةٌ للريح التي أرسلها الله على قوم عاد لما عتوا عن أمر ربهم فدَمَرْتَهُمْ تدميراً . و (العقم) الذي وصف الله به الريح هو (التمير) فاستعار كلمة (عقيم) لتغذية الصورة القرآنية بجمالية فنية . إذ أوحى الاستعارة باستئصال قوم عاد عن بكرة أبيهم ، فلم يبقَ منهم أحدٌ في مأمن ، حتى الحيوان والنبات، فهو تدمير شامل يوحى بالزوال التام والإنقطاع (٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقولُ إذا هاجت الريحُ : (اللَّهُمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) ، وكلامه مبنيٌّ على أنّ (الرياح) للرحمة ، والريح للعذاب . وتحقيق ذلك مجيء الجمع في آيات الرحمة ، والمفرد في آيات العذاب ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (٣) ، وضدّها قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (٤) ، (فالريح العقيم) : هي الريح الشديدة التي لاتلح شيئاً (٥) . فكأنه شبه عدم تضمّن المنفعة بعقم المرأة التي لاتلد ، فسُمّيت الريح عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت صلّتهم ، لما فيه من إذهاب النسل، فاستعير من

(١) ينظر: لسان العرب (عقم) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٣٥٥ .

(٢) ينظر: النكت في إعجاز القرآن ٨٩ .

(٣) سورة الحجر ٢٢ .

(٤) سورة الذاريات ٤١ .

(٥) ينظر: روح المعاني ١٥/٢٧ ، وتفسير النسفي ٢٤٠/٢ .

المُشَبَّه به لفظُ (العقيم) للمُشَبَّه (الريح) التي لاخيرَ فيها من إنشاءِ مطرٍ أو إقحاحِ شجرٍ ، وهي ريح الهلاك (١) .

وفضل الاستعارة على الحقيقة يكمن فيما تُثيره الصورةُ المُشكَّلةُ من دلالةٍ نفسيةٍ تؤثر في السامع أو القارئ ، لأنَّ كلمة (عقيم) ذات أثر أقوى في السَّمع، إذ حَقَّقَ إنتقالُ دلالةِ إستعارة (عقيم) ، من معناها الأول من عدم إنجاب المرأة ، الى الريح ، أثراً نفسياً. فعمليةُ الجذبِ هنا تولدُ الإمتعاض والحزن، فهي تعني انقطاع تجدد الحياة. وهنا نجد أنَّ العبارة القرآنية اكتسبت معاني متجددة أضفت الديمومة على النصِّ القرآني (٢) .

فاستعارة الكلمة تخلق صورةً حسيةً جميلةً تُضفي على النصِّ القرآني طابعَ التجسيد ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** **وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ** ﴾ (٣) . فكلمة (الحبل) هنا استعارة للعهد والدين الجديد. وهي تعني في اللغة : الرباط ، وورد مستعملاً في معناه الحقيقي في قوله تعالى : ﴿ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ** ﴾ (٤) . وطالما أنَّ أصل (الحبل) في اللغة بمعنى : السبب ، ومنه سُمِّي (حبل البئر) ، لأنَّه السببُ الذي يوصلُ به الى الماء الذي فيه ، لذا قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا** **بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ أي : تمسكوا بالقرآن، لقول الرسول ﷺ :

(١) ينظر: الكشاف ١٩/٤ .

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ٦١ .

(٣) سورة آل عمران ١٠٣ .

(٤) سورة المسد ٥ .

(القرآنُ حبلُ اللهِ المتينُ لا تتقضي عجائبه) ^(١) . والإستعارة تتمثلُ في (الحبل) المضاف الى الله ﷻ ، فالحبل : العهد . وقال الشريف الرضي : " (الحبال): العهود في كلام العرب ، وإنما سُميت بذلك لأنَّ المتعلِّق بها ينجو ممَّا يخاف ، كالمثبَّت بالحبل إذا وقع في غمرة ، أو ارتكسَ في هوة . فالعهد يُستأمن بها من المخاوف ، والحبال يُستتقذ بها من المتالف . فلذلك وقع التشابه بينهما " ^(٢) . فاستُعيرَ (الحبل) على هذا الوجه ليُطلق على (دين الله وعهده) لأنَّه يُنجي من الضياع ، وهذا تمثيلٌ للمعنى الذهني المُجرَّد بصورة حسيَّة مؤثرة ، فلا آمنَ ولا أوثقَ مِنَ التعلُّق بحبلِ الله . إذ إنَّ التمسُّكَ والإعتصامَ يطرد المخاوف والمهالكَ عن طريق الانسان ، وهو المأمن الذي يجد الانسان في ظلِّه الطمأنينة والسعادة والأمن ^(٣) . فالحبلُ يستعار لكل ما يتوصَّلُ به الى شيءٍ ما ، وفي قوله ﷻ ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ ، استُعيرَ (الحبل) ليُتوصَّلَ به إلى الله ، من خلال القرآن والعقل وغير ذلك . وفي قوله تعالى : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ ^(٤) تنبيهه إلى أنَّ الكافر يحتاج الى عهدين : عهد من الله وعهد من الناس ^(٥) .

(١) ينظر: روح المعاني ١٠٠/٣٠ ، وتفسير النَّسفي ١٧٠/١ .

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٢٤ .

(٣) ينظر: الكشاف ٣٠٤/١ .

(٤) سورة آل عمران ١١٢ .

(٥) ينظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن ١٠٥ .

ومن الاستعارات القرآنية التي تُخْرِجُ المعاني مخرجاً مرئياً مسموعاً مؤثراً قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) ، فكلمة (الصدع) وردت بهذه الصيغة مرة واحدة في القرآن على سبيل المجاز ، لأنَّ (الصدع) في اللغة : هو الشقُّ في الأجسام الصُّلبة ، كالزجاج والحديد ونحوهما ^(٢) . بينما استُعيرت كلمة (فاصدع) لمعنى (فاجهر) أو (بلغ) ، اعتماداً على التشبيه ، لأنَّ (الصدع) في حقيقته " للأجسام ، لا للخطاب والكلام ... ومن ذلك (صدعُ الزجاجة) إذا استبانَ فيها الكسرُ " ^(٣) . قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدَعِ ﴾ ^(٤) فـ (الصدعُ) هنا استُعْمِلَ في معناه الحقيقي ، في حين نُقِلَ في الآية السابقة من معناه المادِّي المحسوس الى التبليغ ، وهو أمرٌ معنوي دالٌّ على القوَّة والنَّفَاز في الأمر . فقله ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي : اجهرْ بالقرآنِ في الصلاة ^(٥) ، قال الزمخشري في معناه: " فاجهرْ به وأظهره ، يقال : (صدعَ بالحجة) إذا تكلم بها جهاراً ، كقولك : (صدع بها) من (الصديع) وهو الفجر ، و(الصدعُ في الزجاجة) : الإبانة . وقيل : (فاصدع) : فأفرق بين الحقِّ والباطل بما تُؤمَرُ ، والمعنى : بما تُؤمَرُ به من الشرائع " ^(٦) . ويقول الفراء (٢٠٧هـ) فيه : "

(١) سورة الحجر ٩٤ .

(٢) ينظر: لسان العرب (صدع).

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٨٤ .

(٤) سورة الطارق ١٢ .

(٥) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٨٩ .

(٦) الكشف ٣٩٩/٢ .



(فاصدع بما تؤمر) ، ولم يقل : (بما تؤمر به) - والله أعلم - أراد فاصدع بالأمر^(١). أي افرق بين الحق والباطل ، وأصله على ما قيل: الإبانة والتمييز^(٢) .
ومن الألفاظ التي وضعت للتعبير عن شيء مادّي محسوس ، فاستعيرت لتعبّر عن شيء معنوي تدلُّ عليه الصورة المُتَخَيَّلَة ، لفظ (التَّقْطِيع) ، فكلمة (التَّقْطِيع) في اللغة : من (القطع) وهو : فصل الشيء عن أجزائه ، وهو شيء مُدْرَك بالبصر ، لأنه يقع في الأجسام ، كقطع الأعضاء في قوله تعالى :
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٣) ، ومنه ما يُدْرَكُ بالبصيرة ، كقطع الأمر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾^(٤) ، فالقطع هنا معنوي مُتَخَيَّلٌ^(٥) .

وقد استعملت كلمة (القطع) في القرآن الكريم بصيغ مختلفة ودلت على معانٍ مختلفة في (٣٨) موضعاً^(٦) ، منها ما هو حقيقي^(٧) ، ومنها ما هو مجازي ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾^(٨) ، فمعنى (القطع) هنا: التفريق ، إذ نزلت الآية في شأن بني إسرائيل ، وغضب الرحمن عليهم ، إذ

(١) معاني القرآن ، للفرّاء ٩٣/٢ .

(٢) ينظر: تفسير النَّسْفِي ٢٤٨/٢ ، وروح المعاني ٨٥/١٤ .

(٣) سورة المائدة ٣٨ .

(٤) سورة النمل ٣٢ .

(٥) ينظر: لسان العرب (قطع) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٤٢٣ .

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٥٥٢ .

(٧) كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَاهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ سورة يوسف ٣١ .

(٨) سورة الأعراف ١٦٨ .

فرّقهم في الأرض^(١) ، بينما (التَّقْطِيعُ) يكون حقيقةً للأشياء المتماسكة الصلبة كـ(الخشب) وماشابه ذلك ، أمّا هنا فقد أُسْتُعْمِلَت كلمة (التَّقْطِيعُ) بمعنى (التَّفْرِيقُ)، على سبيل الاستعارة ، لوجود شبه بين الأشياء المتماسكة لتكون شيئاً ما ، وبين وحدة الجماعة قبل التفريق ، وذلك لأنَّ (التَّقْطِيعُ) يشير الى معنى نفسي دقيق ، هو هذه الوشائج التي تقوم بين الجماعة القائمة في مكان واحد ، والمجموعة في أرض واحدة ، فبدت كأنها قطعة واحدة . وفي قوله (قَطَعْنَاهُمْ) إشارة الى عملية تقطيع هذه الصلات والروابط المتلاحمة ، وفي ذلك تصوير لآثار هذا التفريق وفعله في نفوسهم ، فهي أدلُّ على ذلك من كلمة (التفريق)^(٢) .

ومن الاستعارات الجميلة في القرآن الكريم : استعارة اللفظ للتعبير به عن نقيضه ، كما في قوله تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٤) ، فلقد وردت كلمة (بَشِّرُ) في (٨٦) موضعاً^(٥) ، بصيغ مختلفة ، فبعضها استعمل في معناه الحقيقي ، وهو البشارة المعروفة في اللغة ، من قولهم: (أَبَشَّرْتُ الرَّجُلَ ، وَبَشَّرْتُهُ ، وَبَشَّرْتُهُ): أَخْبَرْتُهُ بخبرٍ سارٍ بَسَطَ بَشْرَةَ وَجْهِهِ . وذلك أَنَّ النَّفْسَ إِذَا سُرَّتْ انْتَشَرَ الدَّمُ فِيهَا إِنْتِشَارَ الْمَاءِ فِي الشَّجَرِ^(٦) . وبعضها الآخر استعمل في معنى مجازي ،

(١) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٩٧/٣ ، وروح المعاني ٩٥/٩ .

(٢) ينظر: الكشاف ١٢٧/٢ ، والاستعارة في القرآن الكريم ٨٥ .

(٣) سورة النساء ١٣٨ .

(٤) سورة التوبة ٣ .

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ١٣١ .

(٦) ينظر: لسان العرب (بَشَّرَ) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٤٥ .

إذ يُعَبَّرُ باللفظ عن نزول العذاب كما في : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، فاستعمال (البشارة) هنا على سبيل السُّخْرِيَّةِ وَالتَّهْكَمِ، إذ استعمل (بَشِّر) بدلاً من (أَنْذِر) أو (أَخْبِر) ، وهذا على سبيل الاستعارة التهكمية (١) . وما ذلك إلا لأنَّ المنافقين أو هموا المؤمنين بأنهم آمنوا في الظاهر وكفروا في السر ، فجيء بلفظة (البشارة) إيهاماً لهم بشيء ، ثم مفاجأتهم بالعذاب الأليم .

ومن الأمور التي تُعْطِي صورة جميلة موحية بشيء مخفي غير ظاهر ، قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ (٢) فَالسُّكُوتُ فِي اللُّغَةِ: خِلاَفُ النُّطْقِ ، وَسَكَتَ يَسْكُتُ سَكْتًا وَسُكَاتًا وَسُكُوتًا .. إِذَا صَمَتَ وَهُوَ عَكْسُ الْكَلَامِ (٣) .

إلا أنَّ (السُّكُوت) فِي الْقُرْآنِ هُوَ (السُّكُون) ، وَقَوْلُهُ (سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبِ) ، أَي : سَكَنَ عَنْهُ الْغَضَبُ ، وَ(السُّكُوت) هُوَ اسْتِعَارَةٌ عَنِ الْغَضَبِ ، لِأَنَّ الْغَضَبَ لَا يَسْكُتُ وَلَا يَسْكُنُ ، وَهَذِهِ مِنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ (٤) .

وَفِي الْكَلَامِ تَشْخِيسٌ ، حَيْثُ شَبَّهَ (الْغَضَبُ) بِشَخْصٍ نَاهٍ أَمْرًا ، وَأَثْبَتَ لَهُ السُّكُوتَ عَلَى طَرِيقِ التَّخْيِيلِ ، إِلَّا أَنَّ الْمَعْنَى الْمَتَوَلِّدَةَ مِنْ هَذَا هُوَ اسْتِعَارَةٌ عَنِ

(١) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ١٨/٢ ، وروح المعاني ١٧١/٥ ، والكشاف ٥٧٢/١ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٤ .

(٣) ينظر: لسان العرب (سكت)، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٤٢ .

(٤) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٨٥/٣ .

الغاضب^(١) . ويرى الزمخشري : انَّ كلمة (السَّكُون) لو استعملت بدل (السكوت)
لما أعطت الجمالية التي أعطتها كلمة (سَكَتَ) ، إذ تجد النَّفْسَ مُهْتَزَّةً لسماعها^(٢) .

(١) ينظر: روح المعاني ٧١/٩ ، ومعاني القرآن ، للنحاس ٨٥/٣ .

(٢) ينظر: الكشاف ١٢٠/٢ .

المبحث الرابع تطور الكناية في القرآن الكريم

للكناية في القرآن الكريم نصيبٌ وافرٌ في أداء المعاني وتصويرها ، فهي تؤدي المعنى أداءً مهذباً ، إذ تتجنب ما ينبو عن الأذان سماعه، وهي موجزة ، تنقل المعنى الكبير في اللفظ القليل . وكثيراً ما تعجز الحقيقة عن أن تؤدي المعنى كما أدته الكناية في المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم.

والكناية : أن تتكلم بشيءٍ وتريد غيره. و (كنى عن الأمر بغيره يُكنى كنايةً) يعني : اذا تكلم بغيره مما يُستدلُّ عليه ، نحو (الرَّفَث) و (الغائط) (١) .
وتعدُّ الكناية من المصطلحات البلاغية الأولى التي بُحِثتْ عند النحويين واللغويين والبلاغيين ، لأنها تتعلق بالإضمار والإظهار ، فهي تعني : الستر والخفاء، كما عدّها سيبويه (١٨٠هـ) في قول العرب: (يافلان) كناية عن شخص غير معروف (٢) . فالكناية عنده لغوية، وهي كذلك عند الفراء (٢٠٧هـ)، إلا أنها أخذت عنده منحيين:

(الأول): الكناية عن الأشياء بالضمائر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا

جَلاها ﴾ (٣) ، أي : (جلى الظلمة ، فجاز الكناية عن الظلمة).

(١) لسان العرب (كنى).

(٢) ينظر : الكتاب ٢/٢٤٨.

(٣) سورة الشمس ٣.

(والثاني): الكناية بمعناها الإصطلاحي ، مثل الكناية عن (العورات) بـ(الجلود)،
 في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ
 وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ (١) .

وكذلك هي عند ابي عبيدة (٢٠٨هـ) : كلُّ مَأْفُهَمٍ من الكلام ومن السِّيَاق
 من غير ان يذكر اسمه صريحاً في العبارة . فهي تستعمل قريبة من المعنى
 الإصطلاحي ، كما في قوله تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْتُ لَكُمْ ﴾ (٢) ، فهو كناية
 وتشبيهه (٣) .

وقد اقتضى الاختلاف في الأصول والأساليب بين اللغة والاصطلاح عند
 الفراء و ابي عبيدة ، ان يقف العلماء حيال آيات القرآن الكريم موقف إطالة في
 التفكير والتدبر ، معتمدين على الموروث العربي شعراً ونثراً ، فجاءت كتبهم ذات
 طابع لغوي ونحوي غالباً، تتخللها المسائل البيانية، وعند ذاك اتخذت المصطلحات
 البيانية ، ومنها الكناية ، طريقها الى الدراسة بصورتها الصحيحة المتجلية بجهود
 من جاء بعدهم من العلماء ، كالجاحظ (٢٥٥هـ) الذي عُنِيَ بها أسلوباً من أساليب
 القول العربي، وعدّها أبلغ من التصريح (٤) ، وهي عنده مرادفة لمصطلح

(١) سورة فصلت ٢٠ ، وينظر : معاني القرآن ، للفراء ١٦/٣ .

(٢) سورة البقرة ٢٢٣ .

(٣) ينظر: مجاز القرآن ، لأبي عبيدة ٧٣/١ .

(٤) ينظر: الحيوان ١٢٢/٣ .

(التعريض) ، إذ يقول : " أومًا علمت أن الكناية و التعريض لايعملان في العقول عمل الإفصاح والكشف... قال شريح : (الحدّة) كناية عن (الجهل) (١) " .

أمّا المبرّد (٢٨٥هـ) فالكناية عنده تقع على ثلاثة أضرب:
(أولها): التعمية والتغطية ، كقول النابغة:

أَكْنِي بِغَيْرِ اسْمِهَا وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ خَفِيَّاتِ كُلِّ مُكْتَتَمٍ

(وثانيها): الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش الى مايدلُّ على معناه من غيره.
(وثالثها): التّضخيم والتّعظيم ، ومنه اشتقت (الكناية) ، وهو ان يُعظّم الرجل، وذلك بأن لا يُدعى باسمه (٢) .

ومن الأمثلة التي ضربها للكناية قولُ الخنساء:

طَوِيلُ النَّجَادِ رَفِيعُ الْعَمَادِ وَسَادُ عَشِيرَتِهِ أَمْرَدًا (٣)

قال فيه : " قولهم (طويل النجاد) : حمائلُ السيف ، تُريدُ بـ (طول نجاهه): طول قامته، وهذا ممّا مُدِحَ به الشّريفُ " (٤) .

(١) البيان والتبيين ١/١٧٧ .

(٢) ينظر: الكامل ٥/٢-٦ .

(٣) ديوانها ٤٢ .

(٤) الكامل ٥/٢-٦ .

وقد ذكرها قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) باسم (الإرداف) ، فقال : " أن يريد الشاعر دلالةً على معنى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، فإذا دلَّ على التابع أبان عن المتبوع، كقول عمر بن ابي ربيعة:

بعيدة مهوى القرطِ إمّا لنوفلٍ أبوها وإمّا عبد شمسٍ وهاشمٍ^(١)

وإنما أراد أن يصف (طول الجيد) ، فلم يذكره بلفظه الخاص، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد، وهو بُعد مهوى القرط^(٢) .

ولعلّ الفيصل في تحديد مفهوم (الكناية) يعود الى عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) الذي عرفها بقوله : " أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيوميء به إليه ، ويجعله دليلاً عليه " ^(٣) .

فأسلوب الكناية يقوم على نقل الكلمة من معناها الشائع الذي استقرت عليه في عرف جماعة معينة الى معنى آخر، ولا يكون هذا النقل ارتجالياً أو عشوائياً، بل يُبنى على علاقات خاصة تربط بين المعنى المنقول منه والمعنى المنقول اليه . فهي تعبير مجازي يتحاشى مهزول اللفظ الى مُهذَّبهِ، وسوقيَّ العبارة الى رصينها. وهي من أوسع الأساليب التي تُيسرُ للمرء قول كلِّ شيءٍ، فجعلوا صلتها

(١) ديوانه ١٩٦ .

(٢) ينظر: نقد الشعر ١٧٨ .

(٣) دلائل الإعجاز ٦٦ .

بـ(الرمز) شبيهة بصلتها بـ (التعريض) ، فكلاهما ينبع من أصل واحد ، وهو إيراد غير ظاهر المعنى ودلالة اللفظ الأوليّة^(١) . إلا أنّ التعريض يكون في العبارة، والكناية والرمز يكونان في اللفظ ، وهو يفهم من السياق. وإنّ أصل (الرمز) الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم ، ثم أستعمل حتى صار كالإشارة^(٢) .

وللكناية اصطلاحات مرادفة ، كالأرداف والوحي والایماء والتلويح والاشارة والرمز. يقول الشريف المرتضى (٤٣٦هـ): " إنّ كلام العرب وحيّ وإشارات واستعارات ومجازات"^(٣) ، (فالوحي والإشارات) من معاني الكناية ، وهي من مجالات التأثير النفسي التي هي ابلغ من التصريح .

وقد عدّ البلاغيون أسلوب الكناية في بعض الأحيان ضرورة يتطلّبها الموقف، وذلك حين يكون اللفظ الصريح تشمئز منه النفس ويعافه الذوق، لمجافاته الأدب والقيم الاجتماعية، أو يكون التعبير الصريح مدعاة للمتاعب ، ومثاراً للأذى، واستجلاءً للخصومة .

وقد توسّع السكاكي (٦٢٦هـ) في مفهوم الكناية ، فجعلها ضمن مبحث دلالات الألفاظ وعلاقاتها الاستدلالية، وقال في تعريفها : " هي تركُّ التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك"^(٤) .

(١) ينظر: أصول البيان العربي ١١٩ .

(٢) ينظر: العمدة ٣٠٦/١ .

(٣) الأمالي ٤ / ١ .

(٤) مفتاح العلوم ٦٣٧ .



نستنتج مما تقدّم أنّ كلّ قول فيه عدم تصريح بذكر الشيء هو كناية، الهدف منها أن ينأى المتكلم عن المباشرة والتحديد الصريح لما يريد أن يقول ، ويسوق تعبيراً ظليلاً يحرك الفكر، ويبعث على الأمل . وتلك سمة من السمات الفنية في التعبير اللغوي ، تبعده عن الرتابة التي تنشأ من طول استعمال الألفاظ في معانٍ محددة مألوفة. فيعمد الى تطوير معاني الألفاظ عن طريق الأساليب البيانية ، التي تُعدُّ الكناية ركنًا من أركانها الأساسية.

وما نودُّ توضيحه في هذا المبحث هو تطور الكناية في القرآن ، إذ نجد أنّ للكناية دوراً كبيراً في التعبير القرآني ، وذلك لأسباب ، توافقا مع أسلوب الكناية في الكلام العربي ، منها:

١ - الإيجاز ، إذ يُذكر اللفظ القليل ويُراد به المعنى الكثير، وذلك لأنّ كلام الله موجزٌ ببلاغة عالية.

٢ - التأدّب ، فتميل لغة القرآن الى استعمال اللفظ المهذب ، ولأسيما عندما تذكر الآيات الموضحة لعلاقة الرجل بالمرأة ، والأشياء الكريهة الخارجة من جسم الانسان ، وكلّ فعلٍ قبيح لا يُستطاع التعبير عنه بصريح ألفاظه، لأنّها تخدش جمالية الاسلوب القرآني ورقته. وكذلك السبُّ واللعن وذكر الصفات القبيحة ، فكلُّ ذلك إنّما جاء في القرآن جاء عن طريق الكناية والرمز، وهذا ما سنوضحه لنبين كيف تطوّرت دلالات الألفاظ ، عبر السياق ، عن طريق الكناية.

قال تعالى : ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ** ﴾^(١) ، فكلمة (الرفث) في اللغة تعني : الفحش في القول ، والكلام البذيء ، فَـ (رَفَثَ فِي كَلَامِهِ ، يَرِفُثُ رَفَثًا ، وَرَفِثَ رَفِثًا ، وَرَفُثَ بِالضَّم ، وَأَرَفِثَ) كُلُّهُ بِمَعْنَى : أَفْحَشَ^(٢) ، و(الرَّفَثُ) : كَلَامٌ مُتَضَمِّنٌ لِمَا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ ، مِنْ ذِكْرِ الْجَمَاعِ وَدَوَاعِيهِ ، فَجُعِلَ كِنَايَةً عَنِ (الْجَمَاعِ) ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى الْآنْفِ الذِّكْرُ ، وَذَلِكَ تَتْبِيهَا عَلَى عَدَمِ جَوَازِ دَعْوَتِهِنَّ إِلَى ذَلِكَ وَالتَّحَدُّثِ مَعَهُنَّ فِيهِ . وَعُدِّي بِـ (إِلَى) لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الْإِفْضَاءِ ، وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ **فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾^(٣) ، فهذا نهيٌّ عَنِ تَعَاطِي الْجَمَاعِ ، وَعَنِ الْحَدِيثِ فِيهِ ، إِذْ هُوَ مِنْ دَوَاعِيهِ^(٤) .

وقد كنى الله تعالى به في هذا الموضع تناسباً مع الحال المنهي فيه إتيان هذا الفعل ، إذ لم يُكْنِ عنه بالكنايات المألوفة عن (الجماع) في مواضع أُخْرَ ، كـ (المباشرة ، واللامسة ، والحرث) وغير ذلك ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِكَلِمَةِ (الرَّفَثِ) عِنْدَمَا تَحَدَّثَ عَنِ الصُّومِ وَالْحَجِّ . فَلْقُدْسِيَّةٌ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ اسْتُهْجِنَ الْقِيَامَ بِهَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ . فَلَمَّا كَانَتْ كَلِمَةُ (الرَّفَثِ) تَعْنِي الْفُحْشَ وَالْبِذَاءَةَ ، عُبِّرَ بِهَا عَنِ الشَّيْءِ الْمَكْرُوهِ أَوْ الْمُسْتَهْجَنِ . لِذَا جِيءَ بِهَذِهِ الْمَفْرُودَةِ لِلتَّفْسِيرِ عَنِ هَذَا الْفِعْلِ ، فَهِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ ذَلِكَ ،

(١) سورة البقرة ١٨٧ .

(٢) ينظر: لسان العرب (رفث).

(٣) سورة البقرة ١٩٧ .

(٤) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ٢٠٤ .

في قوله ﴿ **فَلَا رَفَتْ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ لأنه لا يريد لهم أن يقفوا فيه ، فعبر عنه بما يهجنه ليكون منفرًا لهم عن التورط فيه (١) .

فإنه ﷺ جعل تناسباً جميلاً وعجيباً بين ألفاظ القرآن ومواضع الإتيان بها . فعلى سبيل المثال نجد أن الكنايات في القرآن الكريم في بعض المواضع تتعدد الألفاظ المكني بها ولكن المعنى واحداً ، إلا أننا عندما نطابق بين اللفظة والسياق نكتشف السرّ الذي جاءت به لفظة من بين مجموعة ألفاظ ، ومن هذه الألفاظ الألفاظ المعبر بها عن علاقة الرجل بالمرأة . نأخذ كلمة (السرّ) في قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا** ﴾ (٢) . وقد وردت كلمة (السرّ) في القرآن الكريم في صيغ مختلفة . منها قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً** ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾ (٤) ، فجميعها بمعنى : الإخفاء ، وعدم إظهار الشيء ، أي ضدّ العلانية . فـ(السرّ) خلاف (العلن) ، قال تعالى : ﴿ **سِرًّا وَعَلَانِيَةً** ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ (٦) . فاستعمالات هذه الكلمة في القرآن كانت استعمالات حقيقية عدا قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا** ﴾ (٧) فقد

(١) ينظر: الكشاف ٣٣٧/١ ، وتفسير النسفي ٩١/١ .

(٢) سورة البقرة ٢٣٥ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٤ .

(٤) سورة طه ٧ .

(٥) سورة الرعد ٢٢ .

(٦) سورة هود ٥ .

(٧) سورة البقرة ٢٣٥ .

خرجت كلمة (سرّاً) على سبيل الكناية الى معنى آخر هو (النكاح) ، وقد كُنِيَ بها عن النكاح لأنه يكون بالسرّ من حيث أنه يُخْفَى . فعملية الوعد خرجت لشيء آخر هو (الزنا) أو (النكاح) ، فأطلق عليها شيء من لوازمها فَسُمِّيَتْ سرّاً^(١) ، على أن المواعدة في السرّ عبارة عن المواعدة بما يُسْتَهْجَنُ ، لأنّ مسارّتهُنَّ في الغالب بما يُسْتَحْيَا من المُجَاهِرَةِ به^(٢) .

ومن الألفاظ التي جاءت على سبيل الكناية والرمز ، للدلالة على علاقة الرجل بالمرأة : كلمة (حَرِثُ) ، فكلمة (الحرث) في اللغة من : (حَرِثَ، يَحْرِثُ، حَرِثًا) و(الْحَرِثُ) و(الْحَرَاثَةُ) : العمل في الأرض زرعاً كان أو غرساً ، وقد يكون الحَرِثُ الزَّرْعُ نفسه ، و(الْحَرَاثُ) : الزَّرَاعُ . و(الحرث) : إلقاء البذر في الأرض، وتهيتها للزرع ، ويُسَمَّى (المحروث) : حرثاً^(٣) . قال تعالى : ﴿ **إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ** ﴾^(٤) ، فالذي يُسْقَى : الزرعُ . وبذا تكون كلمة الحرث بمعنى : (الزرع) . وفي قوله تعالى : ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ** ﴾^(٥) . أعطي (الحَرِثُ) معنى (الرزق) . وهنا قد تباين المعنى، ففي الآية الأولى كان استعمالها حقيقياً، وفي الأخرى كان على سبيل

(١) ينظر: روح المعاني ١٥١/٢ .

(٢) ينظر: الكشاف ٣٧٣/١، ومعاني القرآن ، للنحاس ٢٢٧/١، ومعاني القرآن ، للفرّاء

١٥٣/١ .

(٣) ينظر: لسان العرب (حرث) ، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن ١١١ .

(٤) سورة البقرة ٧١ .

(٥) سورة الشورى ٢٠ .

الإستعارة، وكأنما جعل أجر الدنيا والآخرة أشبه بالرزق الذي يؤتى من الزرع، لذا شَبَّهَهُ بالحرث. وقد وردت كلمة (الحرث) (١٣) مرة بمعان مختلفة^(١)، منها ما يوافق معناها اللغوي، ومنها ماجاء على سبيل الرمز لمعنى آخر غير معناه الحقيقي، ومن أطف تلك الرموز جعلُ (الحرث) كنايةً عن عملية إتيان المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾^(٢)، فجعلَ عملية إتيان المرأة أشبهَ بعملية الحراثة، فقال: (حرثٌ لكم)، لأنه يُستحصلُ منها الولد بعدَ الإتيان يُستحصلُ الزرعُ من الأرض بعدَ الحرثِ. فكنى عن عملية الالتقاء بين الرجل والمرأة، وماينتج عنها من أطفال، بعملية الحراثة. والذي سوَّغ ذلك (التشبيه)، فالنساء زرعٌ ما فيه بقاءُ نوع الإنسان، كما أنَّ بالأرض زرع ما فيه بقاءُ النبات^(٣). وفي قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾^(٤)، عطف (النسل) على (الحرث)، فكلاهما يُدمرُ في عملية الإهلاك لإبادة الأرض. وقد استعملت كلمة (الحرث) بمعناها اللغوي، إلا أنَّ قوله تعالى: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ تشبيه للنساء بالأرض، ولما يُلقى في أرحامهنَّ من النطف التي منها النَّسلُ بالبنور. ولو تساءلنا لماذا كلمة (الحرث) وليس (الزرع)؟، فالجواب لأنَّ "الحرث): إلقاءُ البذر في الأرض، وهو غيرُ (الزرع)، لأنَّ إنباتَه يُرشدك إلى

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٠٣.

(٢) سورة البقرة ٢٢٣.

(٣) ينظر: الكشاف ١/٣٦٢.

(٤) سورة البقرة ٢٠٥.

ذلك .. فتشبيه النطف بالبذور من حيث إنَّ كلاً منهما مادة لما يحصل منه، ولا يحسن بدونه، فهو تشبيه يُكنى به عن تشبيه آخر هو (فأتوا حرثكم) ^(١). كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ ^(٢)، ف (حَرَّثَكُمْ) من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة . وكلمة (حرث) في الاستعمال القرآني أصابها تطوُّرٌ دلالي ، إذ ذُكرت في مواضع مختلفة، منها ما هو حقيقي ، ومنها ما هو مجازي، زادت من جمالية النص الموضوعية فيه.

والتطوُّرُ الحاصل في معاني ألفاظ القرآن الكريم جاء لأسباب عديدة منها: اللغة التي يتمتَّعُ بها النصُّ القرآني من سمات العلوِّ والرفعة، والتأدُّب في القول، والابتعاد عن الفحش كما ذكرنا في الآيات السابقة، وكيف كنى الله ﷻ عن عملية الجماع بين الرجل والمرأة بألفاظ يوَدِّي تفسيرها الى المعنى المراد ^(٣). ومثل ذلك كثير ، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ ^(٤) ، ف (جلودهم) كناية عن (العورة) كما ذكر الفراء -والله أعلم- ^(٥) . وكذلك قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ ^(٦)،

(١) روح المعاني ١٣٤/٢ .

(٢) سورة البقرة ٢٢٣ .

(٣) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ١٨٥/١ ، وتفسير النَّسْفِي ١٠٧/١ .

(٤) سورة فصلت ٢٠ .

(٥) ينظر: معاني القرآن ، للفراء ١٦/٣ .

(٦) سورة البقرة ١٨٧ .

فكلمة (لباس) كناية أيضاً عن علاقة الرجل بالمرأة^(١) . وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(٢) ، فكلمة (لامستم) أيضاً كناية عن (الجماع) .

وكذلك الأمور الكريهة التي تنبو الأذان عن سماعها ، فقد إستعاض القرآن الكريم بالكناية للتعبير عنها ، كقوله تعالى : ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾^(٤) ، فكلمة (الغائط) وردت في السياق القرآني مرتين على سبيل الكناية، لأنَّ (الغائط) في اللغة من : (غَاطَ يُغَوِّطُ غَوِّطًا) ، و(الغَوِّطُ) و(الغَائِطُ) المُتَّسِعُ من الأرض، و(الغَائِطُ) : أسمُ المكان المُنْقَطِعِ الذي يقصده الشخصُ لقضاء حاجته ، إذ يغيبُ عن أعينِ الناسِ^(٥) .

أمَّا في السياق القرآني فـ (الغَائِطُ) كلمة يُكْنَى بها عن (الْحَدَثِ) ، أي: خروج الشيء الخبيث من الانسان ؛ لأنَّ (الغَائِطُ) هو المكان المُطْمَئِنُّ من الأرض، وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا غائطاً^(٦) . وقيل: (الغائط) : ما انخفضَ من

(١) ينظر: معاني القرآن، للنحاس ١١٤/١ .

(٢) سورة النساء ٤٣ .

(٣) سورة النساء ٤٣ .

(٤) سورة المائدة ٦ .

(٥) ينظر: لسان العرب (غوط) .

(٦) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١٦٨/١ ، ومعاني القرآن ، للفرّاء ٣٠٣/١ .

الأرض (١) . وقيل: هو الصحراء (٢) . لذا استعيضَ بالمكان عن الشيء الذي يُحدثُ فيه.

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (٣) ، فـ (أكل الطعام) هنا كناية عن ما يحدث بعد الأكل (٤) . وعن ابن عباس رضي الله عنه عندما سُئِلَ عن (يأكلان الطعام) قال : " هو كناية عن قضاء الحاجة ، لأنَّ مَنْ أَكَلَ الطَّعَامَ احتاج الى النَّفْسِ ، لما في ذلك من دلالة على الاحتياجِ المُنافِ للألوهية " (٥) . وقد وردت كلمة (الأكل) ومشتقاتها بصيغ ومعانٍ مختلفة (٦) ، كلُّ حسب السِّياق الذي دُعيت له ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) ، فـ(الأكل) هنا كناية عن (الغيبية) ، ففي قوله تعالى تمثيل وتصوير لما يناله المُغتَاب على أفحش وجه . وفيه مبالغات ، منها : الاستفهام الذي معناه التَّقرير ، وجعلُ ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبَّة (٨) .

(١) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٢٧٤/٢ ، وتفسير النَّسفي ٢٢٤/١ .

(٢) ينظر: روح المعاني ٤١/٥ .

(٣) سورة المائدة ٧٥ .

(٤) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ٣٤٤/٢ ، وتفسير النَّسفي ٢٩٥/١ .

(٥) روح المعاني ٢٠٩/٦ .

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٤-٤٥ .

(٧) سورة الحجرات ١٢ .

(٨) ينظر: تفسير النَّسفي ١٦٦/٤ .

وممّا يؤتى به كنايةً عن الصفة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (٢) ، فـ(اليد المغلولة) وردت مرتين في القرآن الكريم كنايةً عن البخل ، وجُعِلت (مغلولة) لأنَّ الأيدي فيها كأنَّها مغلولة ، أي : ممنوعة ، جُعِلَ فيها (غُلٌّ) ، وهي الحديدُ التي تجمعُ يدُ الأسيرِ الى عُنُقِهِ ، ويُقال لها : (جامعة) (٣) . فـ " (غُلٌّ) اليدِ و(بَسْطُهَا) مجازٌ عن (البُخْلِ) و(الجودِ) ، وقوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة) " (٤) معناه : لا تمتنع من النَّفَقَةِ في الطاعة ولا تتفَعُ في معصية " (٥) .

ومن الكنايات عن الصفة قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٦) ، فـ (السَّاق) في اللغة هي جزءٌ من جسم الإنسان ما بين الركبة والقدم (٧) . و(الكشف عن السَّاق) كناية عن شِدَّة الأمر وصعوبة الخطب، فمعنى (يوم يكشف عن ساق) : يوم يشدُّ الأمرُ ويصعب ، ولا كشفَ ثمَّ ولا ساقَ ، ولكن كنى به عن الشِدَّة ، لأنَّهم إذا ابتلوا بشِدَّةٍ كشفوا عن

(١) سورة الإسراء ٢٩ .

(٢) سورة المائدة ٦٤ .

(٣) ينظر: لسان العرب (غلل).

(٤) تفسير النَّسْفِي ٩١/١ .

(٥) ينظر: معاني القرآن ، للنحاس ١٤٥/٤ .

(٦) سورة القلم ٤٢ .

(٧) ينظر لسان العرب (ساق).

السَّاق " (١) . فـ(اليوم) عند الجمهور : يوم القيامة ، و(السَّاق) : مافوق القدم ،
و(كشفها): مَثَلٌ في شِدَّةِ الأمر ، وصعوبة الخطب ، وتتكير السَّاق للتهويل
والتعظيم (٢) .

فاستعمل الجوارح مجازاً أو كنايةً كَثُرَ في القرآن الكريم لتصوير أمر
معين بصورة فنية جميلة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فَرُدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي**
أَفْوَاهِهِمْ ﴾ (٣) ، فـ(الرَّد) لغةً هو : صَرَفُ الشَّيْءِ بِذَاتِهِ ، أو بحالة من أحواله ،
يُقَالُ: رَدَدْتُهُ فَارْتَدَّ ، وهو في الآية الكريمة كناية ورمز عن السُّكوت . فأومأوا الى
السُّكوت ، وأشاروا إليه بِضَمِّ اليَدِ الى الفم (٤) .

(١) ينظر: تفسير النَّسفي ٢٧١/٤ ، والكشاف ١٤٧/٤ .

(٢) ينظر: روح المعاني ٣٤ / ٢٩ .

(٣) سورة ابراهيم ٩ .

(٤) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن ١٩٧ .

الفصل الثاني

ظواهر التطور اللغوي في

ألفاظ القرآن الكريم

- المبحث الأول : تطور الدلالة الصوتية
- المبحث الثاني : تطور الدلالة الإجتماعية
- المبحث الثالث : تطور الدلالة الإيحائية
- المبحث الرابع : تطور الدلالة الهامشية

الفصل الثاني

ظواهر التطور الدلالي في ألفاظ القرآن الكريم

إنَّ للتطور الدلالي للألفاظ في النصِّ ظواهر متعددة تظهر من خلال العلاقة بين اللفظ والمعنى ، ومن حيث قنوات التوصيل الدلالي المهيمن على الإبلاغ ، من دون أن ينقصه شيء من عناصر التأثير والإدهاش ، فلا تعدو العملية اللغوية الإقناع والتأثير ، أو الكشف والإبلاغ⁽¹⁾ ، فالأسلوب ليس سوى "خصوصية تحدث في المعنى"⁽²⁾ ، على نحو من الاختيار والعدول ، فعنصر الاختيار للمفردات هو ما يميز اللغة التأثرية عن غيرها ، إذ تظل مراعية لمقتضيات الحدث اللغوي ، من خلال تحولاتها السياقية بحسب تحولات المقام ، فتصوغ عباراتها صوغاً جمالياً ، فلا يكون المعنى تبعاً لذلك بمعزل عن عناصر السياق كلها ، فإنَّ إنتاجه يتشكّل بتشكّل العملية اللغوية التي لا تنفك تقوم على ثنائية الدال والمدلول⁽³⁾ .

فلكل لفظ في موضعه دلالة خاصة تشكّل المعنى المتولّد ، إذ إنَّ اللفظ في السياق يعطي معنى إلى جانب دلالاته الأساسية ، وهو المعنى التصوري ، فيكون زائداً على المعنى الأساس ، فإنَّ "كل كلمة ، أيّاً كانت ، توقظ دائماً في الذهن صورةً ما ، بهيجةً أو حزينة ، رضيةً أو كريهةً ، كبيرةً أو صغيرةً ، تفعل ذلك

(١) ينظر : الأصول ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) ينظر : الأسلوبية بين التراث والمعاصرة ١٠ .

(٣) ينظر : بنية اللغة الشعرية ١٢٤ .

مستقلة عن المعنى الذي تعبر عنه " (1) ، وهذا مرتبط بأبعاد التخيل وجوانبه الإيحائية ، ودوافعه النفسية ، وما ينتج من أبعاد رمزية للألفاظ ، فقل ما نجد لفظة تشير إلى دلالة واحدة ، فلا تخلو لفظة من إثارة دلالية ، وهذا ما يمكن ربطه بالظواهر الدلالية وتنوعها في السياق كالدلالة الصوتية وما يشكله اللفظ من عملية تأكيد المعنى ، من خلال عملية التناوب بينه وبين المعنى المُستدعى ، وكذلك في الدلالة الاجتماعية ، إذ تنحصر بعض الألفاظ في معانٍ متعددة . أمّا في الدلالة الإيحائية والهامشية فنجد ظلال المعنى تهيمن على النص .

لذا سنبيين في هذا الفصل هذه الظواهر الدلالية .

(1) علم اللغة الاجتماعي ١٦٢ .

المبحث الأول

تطور الدلالة الصوتية

(الصَوْتُ) في اللغة هو : الجَرَسُ^(١) ، وهو صوتُ الإنسان وغيره،
(الصَّائِتُ) : الصَّائِحُ. وفي الحديث: " كان العباس رجلاً صَيِّتًا " أي: شديدَ
الصَّوْتِ، عاليه. و(أصَاتَ القَوْسَ) : جَعَلَهَا تُصَوِّتُ^(٢) . و(الصَّوْتُ) : جنسٌ لكلِّ
ما وقر في الأذن^(٣) ، ويسببُ حدوثه " تموُّجُ الهواءِ ودفعُه بقوةٍ وسرعةٍ من أيِّ
سببٍ كان "^(٤) ويحدُّ المعاصرون (الصَّوْت) بأنه : " عمليةٌ حركيَّةٌ يقومُ بها الجهازُ
النطقي، وتصحُّبه آثارٌ سمعيَّةٌ معيَّنة، تأتي من تحريكِ الهواءِ فيما بين مصدر
إرسالِ الصَّوْتِ (وهو الجهازُ النطقي)، ومركزِ استقباله (وهو الأذن) "^(٥) .

والكلامُ المُركَّبُ من ألفاظٍ إنّما هو مصدرٌ من مصادرِ الصَّوْتِ، وقد عرفه
العربُ بأنه : " اللفظُ المفيدُ فائدةً يحسنُ السُّكوتُ عليها " ^(٦) . وكذلك حدّه أرسطو:
" الكلامُ : هو صوتٌ مُركَّبٌ دالٌ " ^(٧) .

فلا بُدَّ إذن من وجود صلة بين اللفظ الذي هو صوت ، وما يدلُّ عليه من
المعنى، يقول ابن جنّي (٣٩٥هـ) : " وإنّما جُعِلَتِ الألفاظُ أدلَّةً على إثباتِ

(١) (الجَرَسُ) : الصَّوْتُ نفسه من كُلِّ ذي صَوْتٍ، يقال: (أَجْرَسَ الحَيُّ) إذا سَمِعَتْ صوتَ

جَرَسِهِ، و(أَجْرَسَنِي السَّبْعُ) : سَمِعَ جَرَسِي. ينظر: لسان العرب (جرس).

(٢) ينظر: لسان العرب (صوت).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٣ / ٣١٨.

(٤) الشفاء ٦ / ٧٠.

(٥) اللغة العربية معناها ومبناها ٦٦.

(٦) شرح ابن عقيل ١٤.

(٧) الشعر ١١٦.



معانيها، لاعلى سلبها" (١) فالألفاظ عبارة عن أصوات تكتسب دلالاتها من جرسِ أصواتها، فبنشأ مايمكن أن يُسمّى بـ (الدلالة الطبيعية بين الأصوات والدلالات) (٢). والدلالة الصوتية هي ماتعتمد على طبيعة الأصوات في نغمها وجرسها" (٣) ، لأنّ (الصوت) كما يقول الجاحظ (٢٥٥هـ) هو : " آلة اللّفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التّأليف، لن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلاّ بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلاّ بالتقطيع والتّأليف " (٤) ، لأنّ لكل حرف صوتاً ترجع طبقتُه من التّغيم إلى مخرجه من جهاز النطق، ولكل صوت قيمةً سمعيةً، فعندما نريد دراسة الكلمة وأثرها في المعنى ، لابدّ لنا من دراسة أصواتها اللغوية وعلاقتها بالمعاني.

والأصوات اللغوية تُدرّسُ بشكل عام على حالين:

(الأول): على حال إفرادها، فتدرّسُ صفاتها ، ومخارجها، وتطورها تاريخياً، وهو مايسمّى بـ (علم الأصوات).

(والثاني): على حال تشكّلها، فتدرّسُ المقاطع، والنبر، والتّغيم ، وهو مايسمّى بـ(علم الأصوات الوظيفي) (٥) .

(١) الخصائص ١٠٠/٣ .

(٢) العلاقة بين الصوت والمدلول ٦٣ .

(٣) ينظر: دلالة الألفاظ ٤٦ .

(٤) البيان والتبيين ٧٩/١ .

(٥) ينظر: التّغيم ودلالاته في العربية ١ .

ولابد لنا من الاستعانة بـ (علم الأصوات) لدراسة (علم الأصوات الوظيفي) ، لأننا : " لانطق أصواتاً مُجَرَّدَةً ، بل سياقاتٍ مُنظَّمةٍ من الكلام ، تُخضعُ هذه الأصواتَ لقواعدَ معيَّنةٍ في تجاورها وارتباطها ومواقعها، وإمكان وجودها في هذا المقطع أو ذلك، وارتباطها بالمجموعة الكلامية، كالموقعية والنبر والتنغيم، وسلوكها في موقعها" (١) ، لذا فإننا نجد للفظ في نصٍّ مزيَّةً قد لانجدها لغيرها لو كانت في مكانها، فالفارق بين الكلام العادي والأسلوب الأدبي ليس فارقاً في الاستعمالات اللغوية فحسب ، بل في دقَّةِ تَخْيِيرِ المعاني، ومن ثَمَّ في دقَّةِ التعبير عنها.

وهذا ماجعل من نظم القرآن نظماً متميزاً ، لأنَّ الكلمة فيه صوتُ النفسِ، وخطوة المعنى، لما تتركه الذبذبات الصوتية من أثرٍ في السمع (٢) ، فنجد تَخْيِيرَ اللَّفْظِ ينسجم مع الصوت الموسيقي المُتَّسِقِ مع جَوِّ الآية وجوِّ السياق. لذا فالإعجاز الذي وقفت العرب أمامه مبهورةً، إنّما هو تَخْيِيرُ القرآن لألفاظٍ مُنتخبةٍ دون سواها، جعلت منه زخماً لغوياً ينحو بهم نحو التّهذيب لمخارج الحروف، والموازنة بين النبرات. فألفاظ القرآن وُضِعَتْ في التركيب الجملي بدقَّةٍ متناهيةٍ، رُوِعِيَ فيها الطَّبع والانتفاء، على أنها ذات وقعٍ موسيقيٍّ خاص، يحقِّق الدلالة من جرس الكلمة في توافق حروفها وتلاؤم مقاطعها، إذ تتولّد في النصِّ دلالاتٌ مختلفةٌ بحسب استعمال المفردة في السِّياق، كالدلالة الصوتية، والدلالة الاجتماعية، والدلالة الياحائية، والدلالة الهامشية.

(١) مناهج البحث في اللغة ١١١.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٤٩.



فالدلالة الصوتية التي سنتناولها بالدراسة، هي من جملة تلك الدلالات ، وإن ارتباط الموسيقى كأداة فنية بالتعبير عن قيم القرآن ومفاهيمه ، عن الله والطبيعة والإنسان، جعلها من أهم الأدوات ذات التأثير المباشر في نفس العربي ووجدانه، ولاسيما " أن موسيقى النص في جملتها وتفصيلها، أي : في نغمة الجمل، وجرس الألفاظ، وفواصل الآيات، مناسبة للمشهد والأفكار، ومقابلة لها، وتتوَّع بتوَّعها، وتتسجم بانسجامها" (١) ، إذ لا يمكن التعبير عن الغرض الفني بكلمة مفردة، وإنما يُنظر إلى قيمة المفردة الجمالية من خلال السياق الذي جاءت فيه، ومدى ملاءمة أصوات الكلمات للمعاني الموضوعية لها ، إذ يُقال : " إنَّ المعنى والصوت كليهما مرتبطان بالآخر ارتباطاً لا يقبل التفريق" (٢) فالانسجام بين موسيقى اللفظ ومعناه هو ما يبرز جمالية التعبير، من خلال ما يتركه الإيقاع من إحياء نفسي مُستفاد من شدة الصوت وضعفه، أي : من تنوعه النغمي، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ ﴾ (٥) . فكلمة (المطر) في اللغة تعني: الماء المنسكب من السحاب ، والجمع (أمطار) . و (المطر) مرادف لـ (الغيث) ، لذا يُفسر كلُّ منهما

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن ٢١ .

(٢) قواعد النقد الأدبي ٣٩ .

(٣) سورة الشعراء ١٧٣ ، وسورة النحل ٥٨ .

(٤) سورة الفرقان ٤٠ .

(٥) سورة الحجر ٧٤ .

بالآخر (١) . بينما نجد في الاصطلاح القرآني ، أن لكلٍّ منهما دلالةً خاصةً به، فكلمة (مطر) وردت بمشتقاتها في (١٥) آية من القرآن الكريم (٢) ، وردت فيها كلُّها بمعنى: العذاب والنقمة، أي : بمعنى جديد لم تألفه العرب ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ .

أما كلمة (الغيث) فوردت في ثلاث آيات من القرآن الكريم (٣) ، وردت كلُّها بمعنى : الماء المُنزَل من السماء رحمةً للعباد، وسبباً للخير والنماء (٤) . كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٥) ، وإنَّ هذا الاختلاف في دلالاتي (الغيث) و (المطر) دليلٌ على نفي الترادف في القرآن ، ومظهرٌ من مظاهر الإعجاز في التعبير القرآني (٦) .

و(الغيث) كلمةٌ قد انسجمت أصواتها مع معناها، فالانتقال في أصوات هذه الكلمة من الاستعلاء المتمثِّل بحرف (الغين)، في ارتفاع مؤخرة اللسان صوب الحنك الأعلى، إلى الانخفاض بتوالي حرفين منخفضين (الياء) و (الثاء) (٧) ، يُمثِّل تلاؤماً مع منظر نزول المطر من السماء ، فالنتعيم الحاصل من الارتفاع إلى

(١) ينظر: لسان العرب (مطر).

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٦٧٤.

(٣) ينظر: سورة لقمان ٣٤، والشورى ٢٨، والحديد ٢٠.

(٤) ينظر : الإتقان في علوم القرآن ٤٢٣/١

(٥) سورة الشورى ٤٨ .

(٦) ينظر: ظاهرة الترادف في القرآن الكريم.

(٧) ينظر: في البحث الصوتي عند العرب ٥٧.

الانخفاض الصوتي في الكلمة، هو ما يولد هذا التجانس الصوتي في اللفظ والمعنى.

بينما لو عدنا إلى كلمة (مطر) ومشتقاتها، لوجدنا ثقل الطاء، وجاء تكرار الكلمة في أكثر من آية، ملائماً لمشاهد العذاب والنقمة المنزلة على الكافرين والمعارضين، فالإيقاع اللفظي للكلمة، بتدرج أصواتها من الانخفاض المتمثل بصوت الميم، إلى القلقة المتمثلة بصوت الطاء، إلى التكرار المتمثل بصوت الراء، يوحي بتدرج وقوع العذاب شيئاً فشيئاً، فضلاً عن أن هذا التكرار اللفظي لكلمة (المطر) أكثر من مرة، في أكثر من آية، يمدُّ المعزى قوةً في الجرس والإيحاء^(١).

وللتعبير القرآني خصوصيةً يختلف بها عن غيره، ومن خصوصية هذا التعبير: التراكم الدلالي للفظ، ففي قوله تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾^(٢) تكررت كلمة (القارعة) ثلاث مرات، وهي مظهر من مظاهر يوم القيامة، وكلمة (القارعة) في اللغة: من (القرع) وهو ضرب الشيء بشيء فيحصل به صوت شديد، و(قرع الشيء) يقرعه قرعاً: ضربه. و(القارعة) من شدائد الدهر، وهي الداهية والنازلة الشديدة، تنزل عليهم بأمرٍ عظيم، لذلك قيل ليوم القيامة (القارعة)^(٣).

وسُميت بهذا الإسم لأنها تفرغ القلوب والأسماع، فالكلمة (القارعة)، بحروفها المجهورة: (القاف) بقلقتها الكبرى، و(الراء) بذبذباتها المتكررة،

(١) ينظر: التنعيم اللغوي في القرآن الكريم ١٠٨.

(٢) سورة القارعة ١-٣.

(٣) ينظر: لسان العرب (قرع).

و(العَيْن) الْمُضَخَّمَة، جَرِسُهَا المَدْوِيُّ فِي الأذُن، يُوحي بِالْعِنْفِ وَالشَّدَّةِ، وَقَدْ قَالَ الخليل فِي اجْتِمَاعِ (العَيْن) وَ (القَاف): "إِنَّهُمَا أَطْلُقُ الحُرُوفَ وَأَضخَمُهَا جَرِساً، وَإِذَا مَا دَخَلْنَا فِي بِنَاءِ حَسَنَ البِنَاءِ لِنصَاعَتِهِمَا" (١) .

وَفَضلاً عَن هَذَا جَاءَ تَكَرُّرُ كَلِمَةِ (القَارِعَة) بِلَفْظِهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لِيُضْفِيَ عَلَى السِّيَاقِ تَجَانِساً صَوْتِيّاً رَائِعاً بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى، وَلا سِيَّماً أَنَّ تَكَرُّرَ اللَّفْظِ يُحَدِّثُ لَازِمَةً بِلَاغِيَّةً ذَاتَ إِيقَاعٍ عَنيفٍ، ابْتِدَاءً الكَلَامِ إِخْبَاراً بِمَبْتَدَأٍ لِاخْبِرَ لَهُ : "القَارِعَةُ" ، إِذْ لَخِبِرَ بِمُسْتَطَاعِهِ أَنْ يُفْصِحَ عَن مَاهِيَّةِ (القَارِعَة) وَحَقِيقَتِهَا، وَكَأَنَّ السُّكُوتَ عَن الخَبَرِ أَفْصَحُ مِنْ أَيِّ خَبَرٍ، ثَمَّ جَاءَ الاستِفْهَامُ مَكْرَراً عَن مَاهِيَّتِهَا ﴿ مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ؟ لِيُزِيدَهَا مَهَابَةً، وَفَخَامَةً ، وَغَمُوضاً، وَلِيُزِيدَ المُسْتَفْهَمَ مِنْهُ عَن حَقِيقَتِهَا تَجْهِيلاً بِحَقِيقَتِهَا (٢) ! فَإِنَّ دَلَالَةَ هَذَا اليَوْمِ قَدْ تَرَكَمْتُ بِالاستِفْهَامِ المُكْرَرِ لِلْمَبَالِغَةِ فِي وَصْفِ أَهْوَالِهِ ، وَمَاتَسَبَّبَهُ مِنْ قَرَعٍ شَدِيدٍ (٣) . وَفِي القُرْآنِ الكَرِيمِ كَثِيرٌ مِنَ الأَمْثَلَةِ لِهَذَا التَّرَاكُمِ الدَّلَالِيِّ فِي الآيَاتِ الَّتِي تَصِفُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الْحَاقَّةُ (٤) * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكُ مَا

(١) العَيْن (قرع) ٥٣/١ .

(٢) استعمال الاستفهام في معنى التَّخْيِيمِ وَالتَّهْوِيلِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ ، بَحْثُ مَخْطُوطٍ لِلدُّكْتُورِ قَيْسِ اسْمَاعِيلِ الأَوْسِيِّ ١٥ .

(٣) ينظر: الطراز ١٤٨/٣ ، والدلالة الصوتية في القرآن الكريم ٣٤ ، والتراكم الدلالي في النص القرآني ٣٩ ، ١٠٦ .

(٤) (الحاقَّة) : يُقَالُ : (حَقَّ اللهُ الأَمْرَ) أثْبَتَهُ وَأَوْجَبَهُ . وَ (حَقَّقْتُ الأَمْرَ وَأَحَقَّقْتُهُ) : كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْهُ ، وَ (حَقَّقْتُ الخَبَرَ فَأَنَا أَحَقُّهُ) : وَفَقْتُ عَلَى حَقِيقَتِهِ . وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَكُونُ حَوَاقُ الأُمُورِ ، لِذَلِكَ سُمِّيَ (الحَاقَّةُ) ، وَ (أَحَقَّ اللهُ الحَقَّ) : أثْبَتَهُ وَأَظْهَرَهُ ، يَنْظُرُ : لِسَانَ العَرَبِ (حَقَّقَ) .

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ (٢) * وَمَا أَدْرَاكَ مَا

الْحُطَمَةُ ﴿٣﴾ فالتكرير في هذه الآيات أفاد التهويل وتعظيم الشأن.

إنَّ القرآن الكريم يُعنى بالجرس والإيقاع عنايته بالمعنى، وهو لذلك يتخيَّر الألفاظ تخييراً يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى المناسبة لجو الآية وجوِّ السياق، فيحدث ما يُسمَّى بـ (التَّقابُلِ الموسيقي في التعبير القرآني) (٤) فالجِرسُ في وصف آيات العذاب نجده شديداً عنيفاً، وفي وصف آيات الطبيعة والقسم بها نجده رخواً ليّناً، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (٥).

فكلمة (عَسَسَ) وردت مرّةً واحدةً في القرآن الكريم، وهناك مَنْ يرى أنّها من الأضداد، إذ قيل في معنى (عَسَسَ اللَّيْلُ) : أَقْبَلَ أو أدبَرَ بظلامه. و(عَسَسَ) في اللُّغة: من (عَسَّ ، يَعْسُ ، عَسًّا) أي : طاف بالليل، و(عَسَسَ اللَّيْلُ عَسَسَةً) : هو إقباله ، وقيل : هو إداره (٦) .

(١) سورة الحاقة ١-٣.

(٢) (الْحُطَمَةُ) من (الْحَطْم) وهو الكسرُ في أيِّ وجه كان ، وقيل: هو كسر الشيء اليابس خاصة، و(حَطَّمَهُ فأنحطَمَ وَتَحَطَّم). و(الْحُطَمَةُ وَالْحُطَام) : ما تحطَّم من ذلك . و(الْحُطَمَةُ وَالْحُطَمَةُ وَالْحَاطُوم) : السنّة الشديدة لأنها تحطَّم كلُّ شيء. و(الْحُطَمَةُ) : إسم من أسماء النار نعوذ بالله منها لأنها تحطَّم ما تَلَقَى ، ينظر: لسان العرب (حطم).

(٣) سورة الهمزة ٤-٥.

(٤) ينظر: الجرس والإيقاع في التعبير القرآني ٣٣٥.

(٥) سورة التكوير ١٧-١٨.

(٦) ينظر: لسان العرب (عسس).



وقال الفراء : " اجتمع المفسرون على أن معنى " عَسَسَ " : أدبر، وكان بعض أصحابنا يزعم أن عَسَسَ : دنا من أوله وأظلم .. وقوله : (والصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ) إذا ارتفع النهارُ، فهو تنفُّسُ الصُّبْحِ " (١). ولفظ (عسس) يُفسَّرُ بالإدبارِ، لمجيءِ الصُّبْحِ بعده، ولمجيئه رَوْحٌ ونسيمٌ، فَجُعِلَ ذلك له تنفُّساً على المجاز (٢) . وما التَّضْعِيفُ في لفظ (عَسَسَ) إلا لزيادة المعنى قُوَّةً ، وكأنَّ استمرار اللَّيْلِ في إدباره من خلال استطالة الكلمة، إذ نجد لاجتماع صوت (العَيْنِ) وهو صوتٌ مجهور ناصع، مع صوت (السيِّن) وهو صوتٌ مهموس يتميَّزُ بالهدوء والسكينة، نَعْمًا صاعداً وهابطاً يوحي باستطالة زمانٍ ذهاب اللَّيْلِ. وإنَّ ممَّا يزيد من جماليَّة هذه اللَّفظة عطف متجانسٍ صوتي عليها، هو كلمة (تَنَفَّسَ) ، فإنَّ لإيقاع صوتِ السيِّن وتكراره مزيَّةً جماليَّةً في النَّصِّ، وهذا من باب التَّجانسِ الصَّوتي بين اللفظ والمعنى (٣) ، فضلاً عمَّا تُوحي به لفظة (تَنَفَّسَ) من معنى استراحة (الصُّبْحِ) بعد عنائه في إزاحة اللَّيْلِ بظلامه المُستطيل (٤).

فللتجانسِ الصَّوتي إرتباطٌ وثيقٌ بالمعنى، ومن أمثلة ذلك أنَّ كلمة (صَرَّصِر) وردت في القرآن (٣) مراتٍ (٥) ، وصفاً للريح العاتية، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرَّصِرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (٦) ، وكلمة (صَرَّصِر)

(١) معاني القرآن ، للفراء ٢٤٢/٣ .

(٢) ينظر: ثلاثة كتب في الاضداد ٩٧ ، وتفسير البيضاوي ٤٥٨/٥ ، والكشاف ٢٢٤/٤ .

(٣) ينظر: جمالية المفردة القرآنية ٨٨ .

(٤) التَّناسُبُ في القرآن الكريم ، بحث مخطوط للدكتور قيس اسماعيل الأوسي ٢١ .

(٥) ينظر: الحاقة ٦ ، وفصلت ١٦ ، والقمر ١٩ .

(٦) سورة القمر ١٩ .



في اللغة من (صَرَ البابُ يَصْرُ) ، وكلُّ صَوْتٍ شَبِهَ ذلكَ فهو (صَرِيرٌ) إذا امتدَّ ،
ومنه (صَرِيرُ الجُنْدُبِ). فإذا كان فيه تخفيفٌ وترجيحٌ في إعادةِ ضوعفٍ ، كقولك :
(صَرَصَرَ الأخطبُ صَرَصَرَةً) كأنهم قدَرُوا في صوتِ الجُنْدُبِ المدَّ ، وفي صوتِ
الأخطبِ التَّرجيعَ فحكَّوه على ذلكَ ، وكذلك الصَّقْرُ. و(الصَّرَّةُ) : الضَّجَّةُ
والصَّيْحَةُ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا
وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (١) ، و(الصَّرُّ) : الصياحُ والجلَبَةُ، و(الريحُ صَرَصَرَ) أي :
باردة، و(الصَّرَصَرُ) : هي الرِّيحُ المدمِّرةُ (٢) .

و(الصَّرَصَرُ) وصَفٌّ مخصوصٌ بالرِّيحِ المُرسَلَةِ للعذابِ، وقد اختيرَ وصفاً
لها لما فيه من امتدادِ الصَّوْتِ وتكريره وترجيحه (٣) ، فصوتِ الصَّادِ بصفيره،
مُجتمعاً مع الرِّاءِ المتكرِّرة، ولَدَّ تقطيعاً صوتياً يوحي بشدَّةِ الرِّيحِ وتلاحُقِها وطولِ
زمنِها، وكأنَّ اصطكاكَ الأسنانِ في نطقِ الصَّادِ، مع ذبذباتِ نطقِ الرِّاءِ، يُولِّدُ
صفيراً ودويّاً يُشَبِّهُ صوتَ الرِّيحِ، وهذا مايسمى بالمناسبة الطبيعية بين اللفظِ
والمعنى، لدلالة جرس الكلمة على معناها (٤) ، وهذا ما قال عنه ابن جنِّي : " قوَّةُ
المعنى لقوَّةِ اللفظِ " (٥) .

(١) سورة الذاريات ٢٩ .

(٢) ينظر: لسان العرب (صرر).

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/٣٦٢ ، والكشاف ٣/٤٤٩ .

(٤) ينظر: فقه اللغة العربية ١٠٤ ، والصورة السمعية في القرآن الكريم ١٦٤ .

(٥) الخصائص ٣/٢٦٤ .



ومن الأسرار الصوتية وقيمتها الجمالية: التناصب بين الدلالات الصوتية والانفعالات التي تتراسل معها، فالتنوع في النغم يتصل ببنية الكلمة، ومقدار تأثيرها وتفاعلها مع غيرها من الكلمات، فلا يخضع الإيقاع لخاصية صوتية مستقلة عن الدلالة. ومن أمثلة ذلك أننا نجد للجناس التام في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾^(١) أثراً في تطابق الصوت مع المعنى، فكلمة (الساعة) الأولى مصطلح قرآني يُطلق على يوم القيامة، وقد وردت (٤٦) مرة في القرآن الكريم، أغلبها بمعنى يوم القيامة^(٢). وكلمة (الساعة) الثانية تدل على جزء من أجزاء الليل والنهار^(٣).

فلطرفي الجناس التام في هذه الآية الكريمة تجانس دلالي، إذ وقع في السياق تفاوت مقطعي للكلمتين أثر في المعنى، فكلمة (ساعة) الأولى تكوّنت في السياق من ثلاثة مقاطع، وفيها ينتقل النطق من الميم التي تتصل مع السين الساكنة، ثم تأتي (السين) المتحركة على النحو الآتي: (تقومُ ساعة) ، فعرض الطرف الأول من الجناس بإيقاع بطيء يتلاءم ومعناها الدال على يوم القيامة، الذي يدل على دقة مجيئها ودقة حسابها، وانضباط وقتها. أمّا الكلمة الثانية (ساعة) فتكوّن من مقطعين صوتيين، وينتقل فيها النطق من الراء إلى السين المتحركة على النحو الآتي: (غير ساعة) فعرض الطرف الثاني بإيقاع سريع ينسجم مع

(١) سورة الروم ٥٥.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ١٥٠-١٥٢.

(٣) ينظر: لسان العرب (سوع)، والكشاف ٢٢٧/٣.



إحساس المجرمين، بأنهم لم يعيشوا في الحياة الدنيا غير ساعة، وللتعبير عن إحساسهم بقصر الوقت الذي عاشوا فيه، لذا اختيرت كلمة (ساعة) (١). إلا أننا نرى أن اختيار كلمة (ساعة) في الطرف الأول جاء للدلالة على المفاجئة والسُرعة، فمعلوم أن القيامة تأتي بغتة، وتقع أحداثها ووقائعها مُتسارعة، وهذا يتلاءم مع المعنى الحقيقي المُعبَّرُ عنه في الطرف الثاني من الآية.

ومن بلاغة القرآن أنه يتخيَّرُ للمعنى لفظاً، تجدها على غرابتها لا يصلح غيرها أن يحلَّ محلَّها، ومن ذلك كلمة (ضيزى) التي وردت في القرآن الكريم مرّة واحدة، في قوله تعالى: ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (٢). وهي كلمة غريبة حَسُنَتْ بِحُسْنِ مَوْقِعِهَا، لا يسدُّ غيرها مَسَدَّهَا، إذ لم يقل (جائرة) أو (ظالمة)، وقد جاءت هذه الآية إنكاراً لقولهم: الملائكة بنات الله، فتلك إذن قسمة ضيزى جائرة، إذ جعلتم له ما تستكفون منه (٣). وكلمة (ضيزى) في اللغة من: (ضازَ في الحُكْمِ) أي: جار. و(ضازَهُ حَقَّه، يَضِيزُهُ، ضِيزاً): نقصه وبخسه ومنعه. و(ضِيزْتُ فلاناً، أضِيزُهُ، ضِيزاً): جُرْتُ عليه (٤). وقد جاءت هذه الكلمة بلفظها الغريب لتفيد معنى الاستغراب من قسمة الكافرين، فهي قسمة مُستَكْرَة، وفضلاً عن ذلك جاءت هذه الكلمة متوافقة مع

(١) ينظر: الجناس في القرآن الكريم ٥١-٥٢.

(٢) سورة النجم ٢١-٢٢.

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي ٢٥٦/٥، وتفسير ابن كثير ٥٧٤/٢، وتفسير القرطبي

١٠٣/١٧، والاتقان في علوم القرآن ٣٧١/١.

(٤) ينظر: لسان العرب (ضيز)، والكشاف ٣١/٤.

الفاصلة في السورة ، ففي مراعاة التقارب في الفواصل يتم الائتلاف والانسجام الایقاعي، وهكذا تتسجمُ غرابةُ اللفظة مع غرابةِ قسمة الكافرين، بجعلهم الملائكة بناتِ الله، مع وأدهم البنات، إذ يفهم من جملة الاستفهام (ألكم الذكور وله الأنثى) إنكارُ هذه القسمة، ثم أُرِدَتْ بجملةٍ تقريريةٍ " تلك إذا قسمةٌ ضيزى" أضفت نوعاً من التراكم الدلالي، أفاد المبالغة في إنكار هذه القسمة. وفضلاً عن هذا التراكم الدلالي تبقى غرابةُ اللفظة (ضيزى) أكثر عناصر السياق ملاءمةً لغرابة هذه القسمة. (١)

ولاشك أن لكل كلمة ذائقةً سمعيةً تختلف عن ذائقة سواها من الكلمات التي قد تؤدي المعنى نفسه، مما يجعل ميزةً لكلمةٍ دون أخرى وإن اتحدتا في المعنى، ومن ثم يجعلها في سياق الكلام ونظمه مؤثرةً في النفس أكثر من غيرها. وعلى هذا الأساس كان للجرس الموسيقي أثره في التعبير ، ففي وصف يوم القيامة استعمل القرآن صفاتٍ عديدةً، انسجمت كلُّ صفة من هذه الصفات بحروفها وأصواتها المتولدة مع المشهد المرسوم في السياق.

ومن هذه الصفات (الصاخة) ، وردت في القرآن الكريم مرةً واحدةً ، في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وصاحبتِه وبنيه ﴾ (٢) وهي صفةٌ من صفات يوم القيامة، و(الصاخة)

(١) ينظر: التعبير الفني في القرآن ٢٠٩ ، وموسيقى الفواصل في القرآن الكريم ٢٠ ،

والجرس والایقاع في التعبير القرآني ٣٤٦.

(٢) سورة عبس ٣٣-٣٦.

لُغَةً: هي الداهية العظيمة، من (صَخَّ ، يَصْخُ فهو صاخٌ) : أي: شديد الصوت، وهي بمعنى الصائحة مجازاً، وقيل : مأخوذة من (صَخَّه بالحجر) أي : صكَّه. وصَخَّ الصخرة وصَخِيخُها: صوتها إذا ضربت بحجر أو غيره. وكلُّ صوت من وقع صخرة على صخرة ونحوه: صَخَّ وصَخِيخٌ ، نقول : (ضربت الصخرة بحجر فسمعت لها صَخَّةً)، و(الصاخَّةُ) : القيامة ... وهي الصيحة التي تكون فيها القيامة تصخُّ الأسماع أي : تصمُّها فلا تسمع إلا ما تدعى به للإحياء (١) . وقد وُصِفَ بها يومُ القيامة مجازاً ؛ لأنَّ الناسَ يصخَّونَ لها يومَ يفرُّ المرءُ من أخيه وأمِّه وأبيه وصاحبه وبنيه ، لانشغاله بشأنه، وعلمه بأنهم لا يعنون به، أو للحدَرِ من مطالبتهم بما قصرَ في حقهم (٢) . وتأخيرُ الأحبِّ فالأحبِّ للمبالغةِ ، كأنه قيل: يفرُّ من أخيه بل من أبويه بل من صاحبه وبنيه (٣) . فاللفظة (الصاخَّةُ) كأنها بأصواتها المُفخَّمة تحكي المعنى العام، فهي تمتاز بجرسٍ صوتي عنيف، وهي قليلة الاستعمال، أو تختصُّ بمناطق الشدة والعنف، لأنَّ النفخ في الصوِّر وشدة الأمر تصخُّ من يسمعها، أي يخرق صوتها صماخ الاذن، وهو يشقُّ الهواء شقاً، وكذلك يوحى حرف (الصَّادِ المُشدَّدِ) بحالة الفرار من خطر داهمٍ، ومن مواجهة أهواله، إذ استطالة نطق الحرف تُبيِّنُ استطالةً عمليَّةً الفرار وتصورُ سوقَ المجرمين إلى جهنم، ولأسيما أنَّ وجود صوت الخاء (المُفخَّمة) أعطى الحدث قوَّةً وبروزاً ، حيث وقوع الواقعة والاستصراخ الذي لا يسمع له سامع، فهو الصيحة الشديدة، فاللفظة عنيقة تتوافق مع هول المشهد ، وهو هول نفسي بحت، يُفزعُ النفس

(١) ينظر: لسان العرب (صخخ).

(٢) ينظر: روح المعاني ٤٨/٣٠ ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٤٥٠/١ .

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي ٤٥٤/٥ ، والاتقان في علوم القرآن ٣٣٨/١ .



وفصلها عن محيطها، ويستبدُّ بها استبدادًا ، فلكلِّ نَفْسُهُ وشأنه، ولديه الكفاية من الهمِّ الخاصِّ به ، فشدة اللفظ وقوته مناسبة لشدة المعنى وقوته (١) .

وعلى هذا الأساس من إعطاء الجرسِ الموسيقي حقه في التعبير، استعمل القرآن الأوصاف التي اشتقها ليوم القيامة، إذ تتلاءم أصوات كلِّ صفة مع الأحداث التي تريد وصفها ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ (٢) ، أطلقت كلمة (الطَّامَّة) على يوم القيامة لطمومها كلِّ شيء، إذ إنَّ الطَّامَّةَ في اللغة من : (طَمَّ الماءُ يَطْمُ طَمًّا وطمومًا): علا وغمرَ . وكلُّ ماكثر وعلا حتى غلبَ فقد طَمَّ . والطَّامَّةُ : الدَّاهيةُ تغلبُ ماسواها . والطَّامَّةُ هي الصَّيْحَةُ تَطْمُ على كلِّ شيء (٣) .

وسمَّيت القيامة طامَّةَ لأنها تكبس كلَّ شيء وتكسره، ولو أردنا الموازنة بين (الطَّامَّة) و(الصَّاخَّة) ، وكلاهما من صفات يوم القيامة ، معتمدين على الجانب الصوتي ، لوجدنا أنَّ كلمة (الطَّامَّة) أَرهَبُ وأنبأُ بأهوال يوم القيامة ، من كلمة (الصَّاخَّة)، لذا خُصَّتِ (النازعاتُ) بالطَّامَّة، لأنَّ الطَّمَّ قبل الصَّخِّ، والفَزَعُ قبل الصَّوت، فكانت هي السَّابِقة، وخُصَّتْ (عبس) بالصَّاخَّة لأنها بعدها، وهي

(١) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٣٦٦، والدلالة الصوتية في القرآن الكريم ٦٧ .

(٢) سورة النازعات ٣٤-٣٥ .

(٣) ينظر: لسان العرب (طمم).

اللاحقة^(١) . وذلك لأنَّ أصوات كلمة (الطَّامَّة) أعطت إحياءً صوتياً أُرهب في السَّمع ، لما يَتمتع به حرف الطَّاء من قوَّة وفخامة، لأنَّه حرف استعلاء مجهور، ولاسيَّما أَنه جاء في الكلمة مضعَّفاً، ومما زاد اللفظ قوَّة وجود صوت (الميم) في الكلمة، وهو صوت مجهور مصحوب بغنَّة ممتدَّة بمقدار الطَّاء، ولاسيَّما أَن هذه الميم تمكَّنَ منها النَّطقُ لورودها بعد ألف المدِّ اللازم للسكون ، فأخذ أقصى حدَّ لامتداد الصوت . فصوت (الطاء) و(الميم) أعطيا لفظة (الطَّامَّة) صورة من الرّهبة مسموعةً كانت أدلَّ في تبليغها على التخويف من لفظة (الصَّاخَّة) ^(٢) .

(١) ينظر: أسرار التكرار في القرآن ٢١٤/١ .

(٢) ينظر: الدلالة الصوتية في القرآن الكريم ٤٩ ، والجرس والايقاع في القرآن الكريم ٣٤٨ .

المبحث الثاني تطور الدلالة الاجتماعية

إنَّ الدراسات الدَّلالية قد اتسعت كثيرًا على أيدي الباحثين المُحدِّثين، ووُضِعَتْ فيها الآراءُ، وأُسِّسَتْ فيها النظريات المتعددة، حتى صارت علمًا مستقلًّا بذاته من علوم اللُّغة، يعرف بـ(علم الدَّلالة) ^(١)، و(الدَّلالة): " هي المعنى، و(دلالة أيِّ لفظ) هي: ما ينصرف إليه هذا اللفظ في الذهن من معنى مدرك أو محسوس، والتلازم بين الكلمة ودلالاتها أمر لا بد منه في اللُّغة ليتم التفاهم بين النَّاسِ " ^(٢)، أي أنَّ هذه الألفاظ الدَّالة والمعاني المدلول عنها ماهي إلَّا " علاقةً اعتبارية لاسند لها إلَّا ما يقع من اتفاق النَّاسِ، وتعارفهم على إنشائها وفهمها" ^(٣)، وبذلك تصبح لدى كل جماعة لغة معينة، يسود بها التفاهم وفق نظم خاصَّة، وهذا التفاهم هو ما يُعرف بـ(العرف اللغوي الدَّلالي) أو (الدَّلالة العرفية) ^(٤) الناتجة عن ثبوت المعنى إزاء اللفظ الموضوع له، فيكتسب أبناء اللُّغة جميع الدَّلالات عن طريق التلقِّي والمشافهة، ويتطلَّب هذا الاكتساب زمنًا ليس بالقصير، وماتلبث الدَّلالات الصَّرْفِيَّةُ والنَّحْوِيَّةُ، بعد المران الكافي، أن تحنل في كلِّ منَّا منطقتة اللاشعورية أو شبه الشعورية، فيأخذ يمارسها بطريقة تكاد تكون آليَّة، من غير جهد أو عناء كبير، وتلك هي المرحلة التي يُعرِّفها اللغويون بـ(السليقة

(١) ينظر: النِّظْم في التَّطوُّر النحوي والبلاغي ١٧٤، والترادف في اللُّغة ١٣.

(٢) الأضداد في اللُّغة ٤٦.

(٣) الأصول ٣٢٣.

(٤) ينظر: دلالة الألفاظ ١٠٤.

اللغوية) (١) . وبشروع هذه الدلالات وكثرة استعمالها، تتداخل مع تجارب الناس، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة لهذه الدلالة ، وهي : الدلالة الاجتماعية. إذن فالـ(الدلالة الاجتماعية) هي : توسع نطاق الدلالة العرفية في الفهم والشروع والاستعمال، و " الدلالة الاجتماعية للكلمات تظل تحتلُّ بؤرة الشعور، لأنَّها الهدف الأساس في كلِّ كلام . وليست العمليات العَضَلِيَّة التي تقوم بها في النطق بالأصوات، إلاَّ وسائل يَرجو المتكلِّم أن يصل ، عن طريقها، إلى ما يهدف من فهمٍ أو إفهام" (٢) . وسميَّ تمام حسان الدلالة الاجتماعية بـ (اللُّغة المعينة) (٣) .

والطريقة التي تحصل بها الدلالة الاجتماعية هي عملية تفريع المعنى العام إلى: المنطوق، والتحليل اللغوي، والمجريات ، ونوع المناسبة والأثر.

فالعلاقة بين المنطوق ومعناه هي التي توصف بأنها علاقة اجتماعية، وغرض الدلالة الاجتماعية إعطاء معنى للعلاقات بين الناس، وتنظيم المجتمع ، فـ " الإيصال الإجتماعي ، يرمي إلى اعطاء معنى للعلاقات بين الناس، والنتيجة بين المرسل والمتلقى . أما المفردات الإجتماعية، فهي نظام المجتمع ومعناه ، لذا فإنَّ البشر يعدون فيه بمثابة المدلولات، أي : بمثابة المجموعات وعلاقاتها، ولكن الإنسان يمثِّلُ واسطةً لنقل الإشارة ومادتها، إنَّه الدالُّ والمدلول في الوقت نفسه، وهو في الواقع إشارة، والإشارة الاجتماعية العامة من جهة أخرى هي إشارة

(١) ينظر: دلالة الألفاظ ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

(٣) ينظر: مناهج البحث في اللُّغة ٤٠ .

(مشاركة) بالمعنى الذي حدّدنا فيه هذا المصطلح " (١) . فالدّلات لا يمكن أن تكون ذات نفع، أو تكون معرفةً مهمةً تخدم الأهداف الاجتماعية، من دون أن تكون بين الجماعة . فتحول الدّلالة إلى مفهوم عام ذي منفعة لا بد ان يتم عن طريق الفهم الجماعي الهادف إلى حقيقة مشتركة.

و " الألفاظ تتطور ، فتكتسب من المعاني أشباه جديدةً لم تكن لها ، وليست اللّغة العربية بنجوة من التّطور، فالألفاظ العربية كما يدل البحث التاريخي، كانت عرضة للتبدل الذي اقتضاه الزمان، وتقلب الاحوال، والنظم الاجتماعية. وما الألفاظ الإسلامية إلا لونٌ من ألوان هذا التّطور الذي عرض للفظّة العربية البدويّة القديمة، فاستحالت شيئاً آخر يتطلّب الدين الجديد والبيئة الجديدة" (٢) ، وما سنبيته في هذا المبحث انتقال بعض الألفاظ من معانيها العرفيّة إلى معانٍ جديدة تعارف عليها المجتمع من خلال السياق، فأطلق عليها: الألفاظ الإسلامية .

ومن ذلك ألفاظ العبادات الإسلامية المعروفة من (صلاة وزكاة وصيام وحج) ، فجميع هذه العبادات عرفت في الأديان القديمة قبل الاسلام على صورة من الصور، فالله تعالى يقول عن بعض الأنبياء : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (٣) .

(١) علم الإشارة ١٣٧-١٣٨ .

(٢) التّطور اللغوي التاريخي ٤١ .

(٣) سورة الأنبياء ٧٣ .

وفي (الصيام) قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ
 كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) ، وفي (الحج) قال تعالى :
 ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ
 لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ
 رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ ^(٢) ، فالمتأمل هذه الآيات
 يجد أن الألفاظ التي خصت بعبادة معينة ، في الإسلام ، قد جعلت للدلالة على
 عبادات معينة ، في تلك الديانات ، مناسبة لعصرها وبيئتها، وعندما جاء النبي
 محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة الملائمة للبشرية، فرض الله ﷻ هذه العبادات
 بأساليب جديدة، وبأكمل صورها، فأصبحت هذه الكلمات عندما تطلق يفهم منها
 المعنى الجديد ، وليس القديم، فـ (الصلاة) لم تعد مجرد ابتغال ودعاء، كما
 ذكرت في المعنى اللغوي المتعارف عليه ^(٣) ، الذي ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ خُذْ
 مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ
 لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٤) ، أي: (ادع لهم) ^(٥) . أما استعمال القرآن الكريم فقد
 أضفى عليها معنى جديداً، فلو تأملنا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ
 إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ

(١) سورة البقرة ١٨٣ .

(٢) سورة الحج ٢٦-٢٧ .

(٣) ينظر: لسان العرب (صلا).

(٤) سورة التوبة ١٠٣ .

(٥) تفسير الجلالين ٢٥٩ .

وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾

(١) فاصبحت (الصَّلَاة) تدلُّ على معنى شرعي مخصوص بعبادة معينة ، إشتراط الإسلام لها النظافة والطهارة، ومن مظاهرها القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح^(٢) . كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاٰكِعِينَ﴾^(٣) ، وقد وزَّعها على اوقات النهار والليل وبمواقيت معينة، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾^(٤) ، وقوله تعالى ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(٥) . وغير ذلك من الآيات الدالة على هذه العبادة^(٦) . فهذه الصَّلَاة الإسلامية بهذه الصورة الجديدة لم تكن معروفة في الأديان السابقة، وبذلك فقد تخصصت لفظة (الصَّلَاة) بعد الإسلام بما أشرنا اليه، وقد تعارف المجتمع عليها بهذا المعنى، فاكسبت اللفظة دلالة اجتماعية جديدة.

(١) سورة المائدة ٦ .

(٢) ينظر: العبادة في الإسلام ٢٠٥ ، والتطور الدلالي للألفاظ الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث الهجري ١٤٧ .

(٣) سورة البقرة ٤٣ .

(٤) سورة هود ١١٤ .

(٥) سورة النساء ١٠٧ .

(٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤١٦-٤١٧ .

ومثل ذلك لَفْظَةُ (الزَّكَاةِ) ، فهي لغة تعني: الزيادة والنماء.. ف (زكا المال يزكو زكا) ، إذا زاد ونما ^(١) ، وقد اعتاد النَّاسُ قَبْلَ الإسلامِ على أَنَّ الذي يزدادُ ماله يتبرَّع بشيءٍ منه إحساناً وتطوُّعاً ، وقد استعملت كلمة (الزَّكَاةِ) مجازاً للتعبير عن هذا الفعل بحُكْمِ العلاقة السببية، فلكونه إزداد ماله، أغدق بالاحسان على غيره، فسمَّيت هذه العملية بـ(الزَّكَاةِ) . أمَّا في الاستعمال القرآني فـ (الزَّكَاةِ) عبادة معيَّنة، فلم تعد مجرد احسان محسنٍ ، أو صدقةً يتطوَّع بها المتطوِّع، وإنما هي حقٌّ معلوم، وضريبةٌ مُقدَّرةٌ على كلِّ من يملكُ نصاباً مُحدَّداً نامياً من المال حال عليه الحول ، فاضلاً عن الحاجات الأصلية لمالكة ^(٢) ، كما في قوله تعالى : **﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾** ^(٣) ، وقوله تعالى : **﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾** ^(٤) فجعلت (الزَّكَاةَ) جزءاً من الإيمان بالله، وقرنت في أكثر من موضع مع (الصَّلَاةِ) ^(٥) . وهي ركنٌ من الأركان الأساسية للعبادة ، لما لها من أهمية بالغة . وليس هذا فحسب ، ففي قوله تعالى : **﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾** ^(٦) ، أصبحت (الزَّكَاةُ) حقاً معلوماً لله فيما أنعم به من مال أو تجارة

(١) ينظر: لسان العرب (زكا).

(٢) ينظر: العبادة في الإسلام ٢٠٦.

(٣) سورة النساء ١٦٢.

(٤) سورة التوبة ١٨.

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٣٣٦.

(٦) سورة التوبة ١٠٣.

أو زرع، يدفع إيمان المرء إلى أدائه، فَمَنْ أَدَّاهَا بِنَفْسٍ طَيِّبَةٍ، فقد كسب رضا الله والنَّاسِ، وفاز بخير الآخرة والأولى ، لتجنُّبه النَّارَ ، لقوله تعالى: ﴿سَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ (١) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١﴾ ، وهكذا نجد أَنَّ (الزَّكَاةَ) قد اكتسبت دلالة اجتماعيةً جديدةً وفق العبادة الجديدة.

وكذلك لفظ (الصَّيَامِ) ، فهو : كلُّ إمساكٍ عن الطعام والشراب، أو عن الكلام، فهو لغةً من : (صَامَ يَصُومُ صَوْمًا وَصِيَامًا ، ورجلٌ صَائِمٌ وَصَوْمٌ من قومِ صَوْمٍ وَصِيَامٍ وَصَوْمٌ ، و(صام الفرسُ) : قام على غير اعتلاف (٢) ، فكل هذه المعاني كانت معروفة لدى العرب . أمَّا (الصَّيَامُ) في القرآن، فهو : الإمساك المكفَّف بالنيَّةِ ، من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود ، عن تناول الطعام والشراب والجماع (٣) ، لقوله تعالى ﴿ أْتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ ﴾ (٤) ، و(الصَّيَامِ) : فريضةً من الله تعالى ، لقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٥) ، ف(كُتِبَ عَلَيْكُمْ) : (فُرضَ عَلَيْكُمْ) (٦) . ف(الصَّيَامُ) معروف عند العرب ، إلا أنه في القرآن وضع لمعنى اسلامي جديد، لعبادة معينة، وقد حدَّده الشرع بأحكام مبينة ، وبوقت

(١) سورة الليل ١٧-١٨ .

(٢) ينظر: لسان العرب (صوم).

(٣) ينظر: التعريفات ٧ .

(٤) سورة البقرة ١٨٧ .

(٥) سورة البقرة ١٨٣ .

(٦) تفسير الجلالين ٣٥ .

مخصص^(١) ، لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾^(٢) ، وبذا تكون لَفْظَةُ (الصِّيَام) في العرف الاجتماعي قد تغيّرت عمّا هي عليه في العرف اللغوي السابق.

ومن ألفاظ العبادة التي تغير معناها، وحُدِّدَ بشيء لم يكن معلومًا سابقًا: لَفْظَةُ (الحجّ) ، فهي في اللُّغة : القَصْدُ ، يقال : (قد حَجَّجْتُ الموضعَ، أَحْجُجُهُ ، حَجًّا) إذا فَصَدْتُهُ، و(الحجّ) : الزيارةُ والقُدُومُ وإتيانُ الشيءِ مرّةً بعدَ مرّةٍ، و(رجُلٌ حَاجٌّ وقومٌ حُجَّاجٌ وحجيجٌ)^(٣) . وهذه المعاني معروفةٌ قبل الإسلام ومستعملة . أمّا في السياق القرآني فَلَفْظَةُ (الحجّ) اختصّت بأحكام إسلامية جديدة، وقصد بـ (الحجّ) : الذهاب إلى الكعبة والطوافُ حولها في وقت معلوم، وبشروط معينة، وبأحكام معينة^(٤) . ففي قوله تعالى: ﴿ الحجّ أشهرٌ معلُوماتٌ فمن فرضَ فيهنّ الحجّ فلا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحجّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾^(٥) ، بيانٌ لشروطه وأحكامه ، وهو فريضةٌ من الله ، لقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾^(٦) ، أي : أنّ (الحجّ)

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٢٠ .

(٢) سورة البقرة ١٨٥ .

(٣) ينظر: لسان العرب (حجج).

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٠١ .

(٥) سورة البقرة ١٩٧ .

(٦) سورة آل عمران ٩٧ .

هو " حقٌ واجبٌ لله في رقابِ النَّاسِ لا ينفكُون عن أدائه والخروج من عهده " (١) .
وبذلك يكون الإسلام قد أعطى لفظة (الحج) معنىً جديدًا لم تكن العرب تعرفه من
قبل، فالحجّ " لم يكن عندهم غير القصد، ثم زادت الشريعة مازادته من شرائط
الحجّ وشعائره " (٢) .

وهكذا نجد أنّ القرآن حين حدّد المعاني الجديدة لهذه الألفاظ ، لم يكن ذلك
بمعزل عن السياق ، لأنّ كلّ كلمة يتحدّد معناها في علاقاتها مع الألفاظ المتجاورة
في النص ، لذا نجد أنّ النص قد يحدد بعض الدلالات ، أو يضيف أخرى ، كما
بينا في الفاظ العبادة السابقة، وقد يخلق النصّ دلالات لم تكن معروفة من قبل،
فتشيع، ويتعارف عليها المجتمع ، كالألفاظ المتعلقة باليوم الآخر ، ووصف مشاهد
يوم القيامة والجنة والنار. ومن هذه الالفاظ التي وصف بها اليوم الآخر : لفظة
(الحشر) ومعناها في اللغة: الجمع ، لقولهم : (حشّروهم ، يحشّروهم ، ويحشّروهم
حشراً) : جمعهم، و(المحشّرو) : المجمعُ الذي يُحشّر إليه القوم (٣) ، أمّا في
الاستعمال القرآني فنجد أنّ لفظة (الحشر) ، وبجميع صيغها التي وردت (٤٣)
مرة (٤) ، قد أعطت معنىً محددًا ، هو : جمع الخلق يوم القيامة، لقوله تعالى : ﴿
يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (٥) ، وقوله تعالى :

(١) الكشاف ٤٤٨/١ .

(٢) المزهر ٢٩٥/١ .

(٣) ينظر: لسان العرب (حشر).

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢١١-٢١٢ .

(٥) سورة طه ١٠٢ .

﴿ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾^(٢) ، فمن خلال هذه الآيات نجد أن لفظ (الحشر) قد اختصَّ بيوم القيامة .

وهكذا نجد العديد من الألفاظ قد ضيقت دلالتها واختصت بهذا اليوم وما يحدث فيه ، كـ(الصُّور، والقارعة، والحاقة، والقيامة، والناقور، واليوم الآخر، ويوم التغابن، ويوم التلاقي، ويوم التتادي ، ويوم الجمع، ويوم الحساب، ويوم الحسرة، واليوم الحق، ويوم الدين، ...) .

ومن الألفاظ التي أطلعت الناس على دلالة جديدة لم تكن معهودة : لفظ (الجنة) ، فهو في اللغة من : (جن الشيء، يَجْنُهُ جَنًّا) : ستره. و(الجنان): الليل ، و(الجنان): القلب لاستتاره في الصدر ، و(الجنة) : البستان ، و(الجنة): الجن ، واحدهم (جان)، و(الجنة): السُّتْرُ^(٣) .

(١) سورة الاسراء ٩٧ .

(٢) سورة الأنعام ٣٨ .

(٣) ينظر: لسان العرب (جنن).

أمّا في القرآن الكريم فقد ذُكرت في مواضع عديدة ^(١) ، وبأوصاف عديدة جميعها تشير إلى دار قرار وخلود يؤول إليها الإنسان المؤمن في الحياة الآخرة، لتقواه في الحياة الدنيا، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ^(٢) ، وقوله تعالى ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ^(٣) ، وبذلك تحدّد معنى لفظة (الجنة) في الاسلام، فأصبحت له دلالة اجتماعية جديدة، تدل على دار الثواب في الآخرة، وقد وصفت هذه الدار بألفاظ عديدة كـ (الفردوس، وعدن، والنعيم، والخلد ، ..) ، وجميعها ألفاظ سُحبت من دلالتها العرفية وأطلقت على دار القرار التي وصفها القرآن .

ومثل ذلك الألفاظ التي وصفت نار الآخرة ، فـ (النارُ) في اللغة معروفة مؤنثة ، وتصغيرها (نُورَة)، والجمع: (أُنُورٌ) و(نيرانٌ) و(نيرةٌ) و(نُورٌ) ^(٤) .

أمّا في القرآن الكريم فقد وردت لفظة (النار) في مواضع عديدة ^(٥) ، ووصفت بأوصاف كثيرة، كما في قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ ﴾ ^(٦) ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ﴾ ^(٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٨) ،

-
- (١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ١٨٩ .
 (٢) سورة الأعراف ٤٩ .
 (٣) سورة الرعد ٣٥ .
 (٤) ينظر: لسان العرب (نور).
 (٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٧٢٨-٧٣٠ .
 (٦) سورة البقرة ٢٤ .
 (٧) سورة البقرة ٢٢١ .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ﴾ ^(٢) وبذلك تكون لفظة (النَّار) في القرآن قد تخصصت بجهنم مثنوى الكافرين التي تختلف بلا شك عن كل نار معروفة، فهي مكان العذاب لمن حقَّ عليه العذاب بعد مشيئة الخالق جلَّ شأنه ^(٣) .

(١) سورة آل عمران ١٥١ .
(٢) سورة التوبة ٦٣ .
(٣) ينظر: الكشاف ٢٥١/١-٢٥٢ ، والزينة في الكلمات العربية الإسلامية ٢٠٦/٢ .

المبحث الثالث

تطور الدلالة الإيحائية

(الإيحاء) لغة : الإشارة والإلهام والكلام الخفيُّ وكلُّ ما ألقينته إلى غيرِك، يقال: (وَحَى إِلَيْهِ الْكَلَامَ وَحَيًّا) و (أَوْحَى) أيضًا وهو أن يكلمه بكلامٍ يُخْفِيهِ. ويغلب استعماله في الإلهام ملحوظًا في أصل دلالاته على السرعة والخفاء. ويأخذ في القرآن دلالة إسلامية ممَّا يوحي به الله تعالى إلى الرسل والأنبياء، فإذا تعلَّق بغير الأنبياء فهو من الإلهام ^(١)، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ ^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ ^(٣)، و(الدلالة الإيحائية) اصطلاحًا هي : مجموعة المعاني التي يمكن أن تتولَّد من اللَّفْظَةِ الواحدة داخل السياق، فيكون أحدُها المعنى المركزي أو الرئيس للَّفْظَةِ، وتكون المعاني الأخرُ كالظلالِ له . لذا نجد أنَّ للألفاظ دلالاتٍ واسعةً يكون الإفصاح عن بعضها ، دون غيرها ، من خلال السياق، بل قد يُرْسِخُ السِّياقُ اللَّفْظَةَ دلالةً تغايرُ دلالاتها المعجمية كلَّها ، يقول عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) : "إنَّ لكلِّ نوعٍ من المعنى نوعًا من اللفظ، هو به أخصُّ وأولى، وضروبًا في العبارة هو بتأديتها أقوم" ^(٤) ، فاللفظ لا يُحْكَمُ عليه منفردًا بمزيةٍ أو قُبْحٍ، وإنما يُحْكَمُ عليه بذلك

(١) ينظر: لسان العرب (وحي).

(٢) سورة القصص ٧.

(٣) سورة النحل ٦٨.

(٤) الرسالة الشافية ١٠٧.

وهو مُرتَّبٌ ومؤلَّفٌ مع غيره داخل السياق ، لأنَّ " الألفاظ لاتفيد حتى تؤلَّف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعمدُ بها إلى وجه دون وجه من التركيبِ والترتيبِ " (١) .

فاختيار اللفظ وإحلاله في الموقع المناسب له في السِّياق هو أساس البلاغة، لأنَّ لبعض الألفاظ وقعاً خاصاً يسيطرُ على النفسِ، لا يوحيه لفظٌ يوازيه لغةً ، فهو مجال الانفعالات النفسية والتأثر الداخلي للإنسان، و " كلما كانت إيحائية الكلمة عاليةً، كانت قيمة تلك الكلمة فنيًا عاليةً أيضاً ، والعكس بالعكس " (٢) .

وفي الاستعمال القرآني كثيرٌ من الصيغ والألفاظ تُوحى بأكثر من مدلول، وتتطوي على جملة من المعاني، ويأتي السِّياقُ ليرشِّحَ واحدًا منها (٣) .

فظاهرة اختيار اللفظ المناسب للسياق في القرآن ، ظاهرة شائعة ، لا يمكن أن يُحيط بها بحثٌ مهما كان واسعاً أو دقيقاً، إلا أننا سنحاول جاهدين ضرب بعض الأمثلة القرآنية التي ندلُّ بها على مدى العلاقة بين اللفظ ومعناه، من خلال ما يوحى به السِّياق من معنى ، فالنصُّ القرآني قد امتاز بتخيُّر الألفاظ وانتقائها للكشف عمَّا لها من قوة تعبيرية، بحيث يؤدي بها ، فضلاً عن معانيها العقلية، كلَّ ماتحمل في أحشائها من صورٍ مُدخّرة، ومشاعر كامنة، لفتت نفسها لفاً حول

(١) أسرار البلاغة ٨.

(٢) نظرية النقد العربي في ثلاثة محاور متطورة ٩٦.

(٣) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ٢٦٩.

ذلك المعنى العقلي" (١)، ففي قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ (٢) ، تظهر الطَّاقَةُ الإِيحَائِيَّةُ لكلمة (جاثمين) ، فـ (الجثْمُ) في اللغة من (جَثَمَ، يَجْثُمُ وَيَجْثُمُ، جَثْمًا وَجُثْمًا، فهو جاثم) ، أي: لزم مكانه فلم يبرح ، أي تلبَّد بالأرض، وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي : أجسادًا ملقاةً على الأرض، أي : أصابهم البلاء فبركوا فيها، أو أصابهم العذاب فماتوا جاثمين، أي: باركين (٣) أو لاصقين بالأرض (٤) ، وورودها في السياق القرآني في تصوير حال من أصابهم العذاب بسبب الصَّيْحَةِ أعطى معنى (ساقطين) ، إذ بيَّنت الصورة كأنَّ هؤلاء الذين أخذتهم الصَّيْحَةُ سقطوا على وجوههم هامدين موتى لا يتحركون، فاللَّفْظَةُ تُوحي بِشِدَّةِ الأَخْذِ وسُرْعَتِهِ، فجاءت مناسبةً للسياق، لائقةً به ، لما تُوحيه من بيانٍ وتصويرٍ وتقديرٍ مشهدٍ، إذ تتضمَّن صورًا سريعةً للأخذ والسقوط وعدم الحراك، ولو أُبدلت اللَّفْظَةُ بِأَيِّ لَفْظَةٍ أُخْرَى لما أشارت إلى ما أشارت إليه من معانٍ (٥) .

وقد عبَّر الجاحظ (٢٥٥هـ) عن هذا بقوله : " لكلِّ ضربٍ من الحديث ضربٌ من اللَّفْظِ، ولكلِّ نوعٍ من المعاني نوعٌ من الأسماء " (٦) ، فلا يخفى على كلِّ صاحب بصيرةٍ في القرآن الكريم أنه موحٍ بِالْفَاظِهِ وتراكيبه وصيغته وأساليبه

(١) فنون الأدب ٧٦.

(٢) سورة هود ٦٧.

(٣) ينظر: لسان العرب (جثم).

(٤) ينظر: مفردات غريب القرآن ١٦٧.

(٥) ينظر: سورة هود - دراسة لغوية دلالية ٢٢٧.

(٦) الحيوان ٣/٣٩.

التي يدلُّ بها على المعاني، فهناك من الالفاظ ما توحى بأكثر من المعاني المعهودة فيها، أي أن اللفظ يدل على معانٍ أُخر تكون ظلالاً للمعنى المركزي، ومن ذلك لفظة (عبوساً) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقاهم نضرةً وسروراً) (١) ، و(عبوساً) في اللغة من : (عَبَسَ، يَعْبُسُ، عَبَسًا) و (عَبَسَ) : تَجَهَّمَ، و(رجل عابسٌ) من (قوم عبوس). و(يومٌ عابسٌ وعبوسٌ) شديدٌ (٢) .

واستعملت لفظة (عبوساً) في السياق القرآني استعمالاً مجازياً ، إذ جاء وصفاً ليوم القيامة ، لما يرى فيه الناس من حالة الفزع والرهبة التي تضيق على المرء ، فتبدو هيأته عابسة، لما يرى من شدة الموقف، فأجريت الصفة المنطبقة على وجه الكافر على يوم القيامة، لما فيه من هول وشدة ، فالمعنى : نخاف يوماً ذا عبوس (٣) . فكان اختيار لفظة (عبوساً) لما تثيره في النفس من فزع.

فالعلاقة المجازية هي التي ربطت بين هيئة الوجه وما يحدث في ذلك اليوم من ذلك الزمن (٤) ، وهذا ما يجعلنا نستشعر وجود ترابط بين صوت الكلمة وماتوحي به من معنى ، فضلاً عن المعاني الأخرى التي تولدُها هذه اللفظة، إذ تُعطي انطباعاً عن أهوال يوم القيامة، وشدة الفزع الذي يستولي على الناس،

(١) سورة الإنسان ١٠-١١ .

(٢) ينظر: لسان العرب (عبس).

(٣) ينظر: فتح القدير ٣٤٨ ، وتفسير القرطبي ١٣٥/١٩ .

(٤) ينظر: الكشاف ١٩٦/٤ ، والتعبير الفني في القرآن الكريم ١٨٨ .

فيجعلُ وجوههم منقبضةً من شدّة الخوف، فكأنما ذلك اليوم يتلَوَّنُ بِلَوْنِ تلم الوجوه العابسة، وهذا على سبيل المبالغة في الوصف.

ولو تتبعنا الألفاظ الموحية في السياق القرآني لوجدنا الكثير منها ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ ﴾^(١)، جاءت لَفظة (تجارون) من (جَارَ ، يجأرُ، جأراً وجؤراً) ، أي: رفعَ صوته بالدعاء مع تَضَرُّعٍ واستغاثة^(٢) .

والجؤار في الأصل: صياح الحيوانات^(٣) . ووقع الاختيار على هذه المفردة لتدلّ على أصوات المستصرخين من البشري تضرعهم واستغاثتهم^(٤) . وهل يمكن على سبيل التقدير أن نستبدل هذه اللفظة بلفظة (يستصرخون) أو (يتضرعون) في طلب الاستغاثة والرحمة من الله ؟ ، والجواب: إنّ (تجارون) أعطت لنا صورة موحية بارتفاع الاصوات بالدعاء والتضرع والاستغاثة لكشف الضّرِّ، وإنّ هذه الأصوات قد اختلطت ببعضها حتى عادت مبهمّة كجؤار البهائم . ومثل ذلك من استعارة ألفاظ خاصّة بالحيوانات وإطلاقها على البشر ، لما فيها من تراكم دلالي وإيحائي ، استعارة (الخرطوم) في قوله تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾

-
- (١) سورة النحل ٥٣ .
 (٢) ينظر: لسان العرب (جور).
 (٣) ينظر: أساس البلاغة ٥٠ .
 (٤) ينظر: الكشاف ٤١٣/٢ ، وتفسير البيضاوي ٤٠٤/٣ .

عَلَى الْخُرُطُومِ ^(١) ، ف (الخرطوم) : أنف الفيل، ويقوم مقام يده ، واستعير
بمقدم أنف الانسان لانه من الممكن أن يُقَبَّحَ يومَ القيامةِ فيجعلَ كخرطوم الفيل ^(٢) .
ففي السياق القرآني دلَّ الخرطوم على انف الشخص الملقى في النار - استقباحًا له
كذلك يوحي اللفظ بشدة الذلَّة، وغاية الاهانة، والتشويه، والعار الذي لايفارقه ^(٣)

فاختيار كلمة (الخرطوم) ، دون غيرها، أوحى بمذلة الكافر وقبحه في ذلك
اليوم، وذلك أنَّ العرب اعتادت على أن يكون الأنف رمزًا للعزِّ والحمية ، فاشتقوا
منه: (الأنفة) ، وقالوا : (الأنف) ، و(فلان شامخ الأنف)، وقالوا في الذليل: (جُدِعَ
أنفه) ، فعَبَّرَ بالوسم على الخرطوم عن غاية الاذلال والاهانة ^(٤) .

ومن الالفاظ التي استعملت في السياق القرآني فكانت لها دلالتها الإيحائية
المتطورة : كلمة (ذائقة) ، في قوله تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا
تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ ^(٥) ، فلفظة (ذائقة) من (ذاق الشيء) أي

(١) سورة القلم ١٦ .

(٢) ينظر: لسان العرب (خرط).

(٣) ينظر: روح المعاني ٣٩/٣٩ ، وتأويل مشكل القرآن ١٥٦-١٥٧ .

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن ١٤٦ ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٤٢١/١ ،
وقيل إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، لأنه أصيب بجرح على أنفه في معركة
بدر، فبقي أثره ، فاستعير له هذا الوصف استقباحًا وتشنيعًا وإشارة إلى الشر . ينظر:
مناهل العرفان ٢٧٦/٢ .

(٥) سورة آل عمران ١٨٥ .

: اختبر طعمه، و(تَذَوَّقَهُ) ذاقه شيئاً بعد شيء. و(أَمْرٌ مُسْتَذَاقٌ) أي : مُجَرَّبٌ معلوم (١). ويستعمل هذا اللفظ مع " ما يَقلُّ تناوله دون ما يكثر ، فإنما يكثر يُقال له (الاكل) " (٢).

وقد استعمل القرآن لفظ (ذاق) بمشتقاتها فعلاً واسماً (٦٣) مرة ، أغلبها في العذاب (٣) ، فعُبر بهذا اللفظ عن الموت النازل بالانسان، فيقال: (ذاقه) ، ومنه قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ، أي : نازل بها لامحالة. فأوحت اللفظة بتصور عملية الموت وكأنها شيء يذاق، لأن كلمة (ذائقة) خلعت على الموت سمةً تتصل بعملية الأكل المُسبِّبة لاستمرار حياة الانسان، لكنها هنا ذائقة تتصل بنهاية عمره، أي : تتصل بعملية الموت، إلا ان المعنى ، من خلال السياق يوحي بأن هذا التذوق للموت الذي يُلغى كل الحاجات يختلف عن تذوقه للطعام او الشراب ، ففي هذا المجاز نجد مقارنةً بين عمليتي تذوق ، إحداهما تذوق يتصل بالطعام المُسبِّب للحياة الدنيا، والأخرى تذوق يتصل بالموت المُسبِّب للحياة الأخرى حيث توفية الأجور. ومما يعزِّز هذه الصورة الإيحائية الصورة اللاحقة بما يوحيه الفعل (زُحِرِحَ) من تصور عملية تكرار الإبعاد والتتحية عن النار، ذلك التكرار الذي دلَّت عليه صيغة (فُعِلَ) في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ زُحِرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (٤) ، فجمالية المفردة تكمن في توافق الصوت مع الصورة، ففي كلمة (زُحِرِحَ) إشارة إلى تجسيم الحركة المتكررة تبعاً لتكرار

(١) ينظر: لسان العرب (ذوق).

(٢) المفردات في غريب القرآن ١٨٥.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٨٤.

(٤) سورة آل عمران ١٨٥.



الحروف، وهو يقرّر هنا ماجاء به فقهاء اللغة، إذ يقال : إنَّ الزحزحة هي التَّحْيَةُ والإبعاد ، وهي تكرير الزَّح ، وهو : الجذبُ بعجلة^(١)

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْرَمُوا عُقْدَةَ النَّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾^(٢) ، فَلَفْظَةُ (عُقْدَةٌ) من (عَقَدَ)، و (العَقْدُ) : الإبرامُ ، وهو نقيضُ (الحَلِّ)، يُقَالُ : (عَقَدْتُ الحبلَ ، فهو معقود) ، ومنه (عُقْدَةُ النكاح) ، و(عُقْدَةُ البيع)، فهو من (الشَّدُّ) و(الرَّبْطُ)، و(عَقْدُ كُلِّ شَيْءٍ) : ابرامه^(٣) . وقد وردت هذه الصيغة في القرآن ثلاث مرات^(٤) على سبيل الاستعارة، فأخرجت المعنى الذهني في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْرَمُوا عُقْدَةَ النَّكَاحِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفَوْا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النَّكَاحِ ﴾^(٥) وهو الرابطة التي تربط بين قلبي الزوجين في صورة حسية مجسدة، لتأكيد قوة العلاقة بين الرجل والمرأة ، فَشَبَّهتِ الرابطة الزوجية برباط مادي محسوس يُعقد ، ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وابقى على شيءٍ من لوازمه يدل عليه في التعبير ، يتمثل بـ(العقدة) على طريق الاستعارة المكنية، ففي الاستعارة دلالة موحية تشير إلى أهمية الرابطة الزوجية

(١) ينظر: الكشاف ٤٨٥/١ .

(٢) سورة البقرة ٢٣٥ .

(٣) ينظر: لسان العرب (عقد).

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٧٠ .

(٥) سورة البقرة ٢٣٧ .

التي تربط بين الرجل والمرأة ، والتي تبنى عليها حياة مقدسة ، هي أساس بناء المجتمع السليم، فكلما قوي بناء الأسرة قوي بناء المجتمع (١) .

ومن الأمثلة على تطور الدلالة الإيحائية للألفاظ : لَفْظَةُ (غليظ) في قوله تعالى:

﴿ مَنْ وَرَّاهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ (٢) ،
فَلَفْظَةُ (غليظ) من (غَلْظَ) و (الغِلْظَةُ) ضدُّ (الرَّقَّة) في الخلق والطبع والمنطق والعيش ونحو ذلك (٣) .

ولفظ (غليظ) لفظ مستعار ، لأنه وصف للعذاب ، والعذاب في الحقيقة لا يوصف بالغلظ والرقة ، لأنه الألم الذي يلحق الحي في قلبه أو جسمه ، وإنما وصفه تعالى بالغلظ على طريقة كلام العرب لأنهم يصفون الأمر الهين بالضؤولة والرقة ، كما يصفون الأمر الشاق بالغلظ والشدة ، حملاً لذلك على عرفهم في مراعاة الشيء الغليظ الكثيف ، وقلة الاحتفال بالشيء الرقيق الضئيل (٤) ، فقوله تعالى : " ومن ورائه عذاب غليظ " أي : وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ

(١) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٣٤ ، والاستعارة في القرآن الكريم ١١٢ .

(٢) سورة ابراهيم ١٦-١٧ .

(٣) ينظر: لسان العرب (غلظ) .

(٤) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٦٢ .

، أي : مؤلمٌ صعبٌ شديدٌ أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمرٌ^(١) ، فلفظ (غليظ) مستعار أوحى بالتناسب بين غلظة الكافر الجبار العنيد ، وغلظة العذاب الذي ينتظره ، وهنا تكمن الدلالة الإيحائية .

ومن الألفاظ التي أوحى بمعناها عبر السياق الذي وردت فيه : لَفْظَةُ (دَمَدَمَ) في قوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾^(٢) أي : أهلكتهم ربُّهم ، وأطبق عليهم العذاب بذنوبهم ، بقتلهم الناقة وتكذيبهم صالحًا^(٣) ، وحقيقة (الدَّمْدَمَة) : تضعيفُ العذاب وترديدُه وإطباقُه عليه^(٤) .

فَلَفْظَةُ (دمدم) أوحى بسرعة العذاب وتضعيفه وترديد يده وإطباقه عليهم حين غشاهم الله به . ومِمَّا أَفَادَ هذا الأثر الدلالي ما للتكرار المقطعي فيه من دلالة إيحائية مشعرة بهول العذاب وتواليه بما يتناسب مع سوء الذنب الذي اقترفوه . وهكذا نجد للكناية والرمز جانبًا كبيرًا في جمالية تصوير المعنى ، ففي قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢ ، وتفسير الثعالبي ٢٧٧/٢ .

(٢) سورة الشمس ١٤ - ١٥ .

(٣) ينظر : معاني القرآن ، للفراء ٢٦٩/٣ ، وتنوير المقياس من تفسير ابن عباس ٣٩٠ ، ولسان العرب (دمم) .

(٤) ينظر : تفسير القرطبي ٧٩/٢٠ .



مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿١﴾ ، استعملت لفظة (مغلولة) وهي : الحديدية التي تجمع يد الأسير إلى عنقه ، ويقال لها : (جامعة) أيضاً ^(٢) .

وجاءت لفظة (مغلولة) في السياق القرآني كناية عن البخل ، فأوحت بصورة يد البخيل التي لا تستطيع أن تمتد للإنفاق والعطيّة ^(٣) ، إذ يده مغلولة إلى عنقه ، للإيحاء بهذه الخلة المذمومة في صورة بغیضة منفرة ^(٤) ، وعلى النقيض من ذلك قوله : (لاتبسّطها كلّ البسط) لتصوير حال المبذر الذي لا يبقي من ماله على شيءٍ، كهذا الذي يبسط يده فلا يبقي فيها شيئاً، وهكذا استطاعت الألفاظ أن توحى بالمعاني بصورة قوية مؤثرة .

(١) سورة الاسراء ٢٩ .

(٢) ينظر : لسان العرب (غلل) .

(٣) ينظر : تفسير البيضاوي ٤٤٢/٣ ، ومن بلاغة القرآن ٢٢٢ .

(٤) ينظر : التعبير الفني في القرآن الكريم ٢٠٧ .



المبحث الرابع تطور الدلالة الهامشية

لدلالة الكلمة بشكل عام تقسيم ثنائي هو المركز والهامش^(١). و(الدلالة المركزية) هي : المعنى الحقيقي المتفق عليه، أو هي القدر المشترك من الدلالة الذي يُسجله اللغوي في معجمه. أمّا المعاني المتفرّعة الأخرى ، التي يُضيفها المُتلقّي على المعنى الأصلي ، فهي ما يسمى بـ (الدلالة الهامشية) أي : هي إنعكاسات المعنى^(٢)، فـ " الكلمة لاتحمل فقط معناها المعجمي ، بل هالة من المترادفات والمتجانسات، والكلمات لاتكتفي بأن يكون لها معنى فقط ، بل تثير معاني كلمات تتصل فيها بالصوت، أو بالمعنى ، أو بالاشتقاق ، أو حتى كلمات تعارضها أو تنفيها"^(٣). والدلالة الهامشية هي أوسع من الدلالات الأخرى، لأنها تعتمد على ثقافة المُتلقّي وتفسيره لمعنى اللفظ في ذهنه، فمجال الاستنتاج وتعدّد التفسيرات في هذه الدلالة أكثر من غيرها^(٤).

فقد " نجد في سياق العبارات من الألفاظ أثرًا للمطابقة والمقابلة في مجانسة الاضداد والجمع بين المتقابلين، والتفريق بين المتجانسين، ممّا يلحظه البلاغي بحسب ذائقته الفنية، بينما يلحظ فيها النحويّ مجالاً آخر في الاستفادة من تخريج

(١) ينظر: مشكلة الحياة ٩٥.

(٢) ينظر: دلالة الألفاظ ١٠٦.

(٣) نظرية الأدب ١٨١.

(٤) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ٢٥٨.



اللفظ على الوجه النحوي في الاستعمال القياسي او السماعي، حتى لا يهمل اللغوي منه هذا الفهم أو ذلك ، بل يبحث عن ضالته في تكثيف معجمه اللغوي بما يفيد هذا اللفظ أو ذلك " (١)، وإن ارتباط الدلالة الهامشية بالمتلقي يجعلها ذاتيةً، وهو ما يميزها من الدلالة الإيحائية التي تكون موضوعية، ذلك لأنها تنطلق في اللفظ بما يملكه من أثر إيحائي يثير في ذهن المتلقي دلالات معينة. وهكذا تجد الدلالة الهامشية مجالاً خصباً لمختلف الاجتهادات المتفاوتة في فهم دلالة الألفاظ ، بحسب تخصص المتلقي وتجاربه وثقافته (٢).

ف " (الدلالة الهامشية) هي : تلك الظلال التي تختلف باختلاف الافراد وتجاربهم وأمزجتهم وماورثوه عن آبائهم وأجدادهم . وهي لدى فرد من البيئة الاجتماعية توحى بظلال من الدلالة قد لاتحظى في ذهن آخر من البيئة نفسها، لأن تجاربه مع الكلمة مختلفة " (٣) .

وتكتسب هذه الدلالة هامشيتها عن طريق " التطور اللغوي الذي يحدث في الألفاظ ، إذ يخضعها الاستعمال، فنجد فيها خصوصيات معنوية ذات ظلال دلالية جديدة يستدعيها الزمان والمكان ، فيبعدها الاستعمال عن أصلها بعداً كثيراً" (٤) .

(١) نظرية النقد العربي في ثلاثة محاور متطورة ١٠٧ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

(٣) دلالة الألفاظ ١٧٣ .

(٤) الدلالة الجديدة والتطور اللغوي ٨ .



وعملية فهم ظلال المعنى وملاحظتها في الكلام أو النصوص تتطلب التغلغل في علاقات الوحدات اللغوية مع بعضها ، واستشفاف ما بينها من معانٍ أصلية ومتغيرة، للتمكّن من الوصول إلى الانعكاسات النفسية والعاطفية لمنتج الكلام أو النص. فالنظام اللغوي يمكنه التعبير عن المعاني الموضوعية، ويتمكّن أيضاً من ترجمة المعاني النفسية الفردية التي هي نتاج صاحبها، تكمن وراءها دلالات غير مباشرة، يحتاج لمعرفةا إلى تأمل وتفهم ، إذ إنّ هذه النواحي هي انفعالية ضمنية توحى بغرض إيصالها انفعالي بين المتكلم والمتلقّي، الذي يطغى عليه المعنى الذاتي للمتكلّم ، تبعاً لصفاته التعبيرية المختلفة ، وهذا كله من أهداف اللغة (١) .

وقد عني البلاغيون بموضوع المعنى والمستويات الدلالية ومعالجتها ، لذلك جعلوا الدلالة المركزية القسم الاول من أقسام التأويل ، ومن الذين ذهبوا إلى هذا التقسيم ابن الاثير (٦٣٧هـ) ، إذ قال : " إِمَّا أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ ، أَيْ : مِنْ الْمَعْنَى ، شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ الشَّيْءُ وَغَيْرُهُ ، وَتِلْكَ الْغَيْرِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ ضِدًّا أَوْ لَا تَكُونَ ضِدًّا ، وَلَيْسَ لَهُ قِسْمٌ رَابِعٌ " (٢) .

وعلى هذا فالعناصر الدالة في اللغة لاتقف عند حدّ الألفاظ، فالمعنى أيضاً يمكن أن يتحوّل إلى دالّ ، فتصبح العلاقة بين البنية اللغوية الماثلة، والمعنى المراد، علاقةً مركّبةً ، أو علاقةً من درجة ثانية، وقد عبّر الجرجاني (٤٧١هـ)

(١) ينظر: الدلالة المركزية والدلالة الهامشية بين اللغويين والبلاغيين ٨.

(٢) المثل السائر ٣٣/١.

عن ذلك بـ(الواسطة المدركة بالتأويل العقلي، لدقة العلاقة بين المعنى الأول والمعنى الثاني)^(١).

ووافق القزويني (٧٣٩هـ) السكاكي (٦٢٦هـ) على أنّ الدلالات العقلية وسائل تورّد المعنى الواحد بطرق مختلفة وهي التي تحدد مستوى المعنى الثانوي في عمله الدلالي^(٢).

وأشار الفارابي (٣٣٩ هـ) إلى (الطور الثاني) ، ويسمّيه (طور النسخ والتجوّز) في العبارة بالألفاظ ، وفيه يكون التجرد بلفظ معنّى ما عن التصريح بلفظ المعنى الذي يتلوه ، متى كان الثاني يفهم من الأول^(٣) . وبهذه العملية ستتولد العلاقات اللغوية المجازية الجديدة ، وهو ما يعبر عنه بالخروج عن الدلالة بالذات إلى الدلالة بالموضع والسياق والقرائن، مكوّنًا (التغييرات المركبة) و (الإبدالات الكثيرة)، قاصدًا بها الفنون المجازية^(٤) .

وسنعرض نماذج من الألفاظ التي أضفى عليها الاستعمال القرآني معنّى جديدًا، ومنها لفظ (كفر) ، الذي يعني في اللغة : السّترَ والتغطية للأشياء المادية، بينما اتسع مدلولها ليشمل ستر الأشياء المعنوية غير المحسوسة ، كستر البرهان والآية والدليل. و(الكفر): جحود النعمة ، وهو ضدُّ (الشكر)، و(كفرَ نعمةً الله) :

(١) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب ٤١٢.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم ٧٧ ، ١٥٦ ، والإيضاح ١٧٠.

(٣) ينظر: الحروف ١٤١.

(٤) ينظر: تلخيص الخطابة ٥٣٤-٥٣٥.

جدها (١) ، ومن استعمالها في شعر العرب الجاهليين قبل نزول القرآن الكريم
قول ليبيد:

يعلو طريقة متنها متواتر في ليلة كفر النجوم غمامها (٢)

أي: ستر النجوم غمامها .

وقد استعمل القرآن (كفر) ومشتقاته في (٥٢٤) موضعاً (٣) ، جاء في
أكثرها مصطلحاً إسلامياً جديداً ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ
لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ
لِلْكَفْرِ يَوْمًا أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ (٤) ، أصبح لفظ (الكفر) في الآية نقيض
(الإيمان) ، فالإيمان هو : التصديق ، و(الكفر) : عدم التصديق . وبهذا نرى أن
(الكفر) غير (النفاق) ، وغير (الفسوق) ، كما فهمنا معناها ، وقد ورد مصطلحاً
(الإيمان) و(الكفر) في معنيين متضادين متقابلين في أكثر من موضع (٥) . إلا أن
هذا لا ينفي ورود كلمة (كفر) ومشتقاتها في بعض الآيات بمعنى كفران النعمة
وجحودها أو ستر الشيء وتغطيته ، وهو معناها (الأول) ، من ذلك قوله تعالى : ﴿
قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

(١) ينظر: لسان العرب (كفر).

(٢) ديوانه ٢٢٣.

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٦١٠ - ٦١٨ .

(٤) سورة آل عمران ١٦٧.

(٥) ينظر: سورة النساء ١٠١ ، ١٥١ ، وسورة مريم ٧٣.

لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ»^(١) . وقوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَنذُرَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(٢) ، فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَا يَشْكُرُ نِعْمَتَهُ ، يَكُونُ كَمَنْ سَتَرَهَا وَغَطَّاهَا ، فَلَا يَرَاهَا هُوَ ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَرَاهَا أَحَدٌ^(٣) .

ومن الجوانب المهمة لتغير اللفظ بطرق الكناية : إضافة معانٍ ثانوية من شأنها أن تستر المعنى المركزي المباشر ، وتُجَنَّبَ سماعُ أَلْفَاظِ الْفُحْشِ ، مِمَّا يَخْدَشُ الشُّعُورَ وَيُسَبِّبُ الْحَرَجَ ، فيما لو استعمل اللفظ الموضوع للمعنى المباشر ، فهذا اللفظ الجديد لا يغيّر المعنى المركزي ، وإنما يزيح عنه بعض الفحش ، وهو فضلا عن ذلك يكون دالاً جديداً للمعنى . وهكذا " كلما ازداد المُستعارُ له خفاءً ازدادت الاستعارة حسناً^(٤) ، لكي تتمكن الدلالة الثانوية من السيطرة على التأثير المعنوي على نحو تامّ في ذكر المستعار او محاولة ايجاد المسوّغ للربط بين الطرفين تخيلاً ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(٥) ، فإنّه يستحيل حمل قوله تعالى على الظاهر ، لاستحالة أن تكون للانسان أجنحة ، فيَحْمَلُ عَلَى الْخُضُوعِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ ، لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْوَالِدَ بِالذُّلِّ لَوَالِدِيهِ رَحْمَةً^(٦) .

(١) سورة النمل ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ١٥٢ .

(٣) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٢٧٢ .

(٤) الطراز ٢١١/١ .

(٥) سورة الاسراء ٢٤ .

(٦) ينظر: لسان العرب (ج٢) .

وقد أُسْتُعِيرَ لِلرَّفَقِ بِالوَالِدِينَ وَاللَّيْنِ مَعَهُمَا (جَنَاحُ الذُّلِّ) ، وحكمة الاستعارة في هذا جعل ماليس بمرئيٍّ مرئيًّا لأجل حسن البيان (١) ، فقد جعل الله ﷻ الذُّلَّ طائرًا متحرِّكًا يتحصَّلُ فيه انخفاضُ جناحه وارتفاعه ، تقريبًا للمعنى من عقل الانسان ، على وجه التخييل ، في خفض الجناح ولينه للوالدين ، وذلك إحياءً منه ﷻ بحيوية هذه الاستعارة وغازرة إحساسها بأنَّ الذُّلَّ ذلٌّ راقٍ سامٍ للوالدين طلبًا لرضا الله تعالى .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (٢) . فالكناية في قوله تعالى ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ إشارة إلى أنَّ السيد المسيح وأُمَّه -عليهما الصلاة والسلام- بشرٌ ، وتتنطبق عليهما جميع الصفات البشرية ، فظاهر النصِّ يُعْطِي معنَى قَرِيبًا ، هو الذي يتبادر إلى ذهنك في الوهلة الأولى ، وهو أكل الطعام ، لكنَّ المقصود ، وهو ماوراء (أكل الطعام) ، وهو مايشير إليه ذلك الأكل (٣) . ففي التعبيرِ أدبٌ ، وذوقٌ رفيعٌ ، إذ أُريدَ بهذا التعبيرِ أَنَّ أَكَلَ الطَّعَامِ يَحْتَاجُ إلى هضم ، والمهضوم يسري في الجسد منه شيءٌ ، ويزيدُ منه شيءٌ ، وهذا الزائد يخرج من سبيله المعلوم (٤) . فَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الْكِنَايَةِ (الغائطُ) ، وذلك لنفي الألوهية عن هذين الشخصين ، وللردِّ على من اتخذَهُمَا إلهين . فبهذا اللفظ القليل

(١) ينظر: الاتقان في علوم القرآن ٨٤/٢ ، ١٢٠ .

(٢) سورة المائدة ٧٥ .

(٣) ينظر: خزنة الأدب ٢٦٤/٢ ، والتعبير الفني في القرآن الكريم ٢٠٨ .

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣٠٤/٢ - ٣٠٥ .

نقلَ معنىً كثيرًا، فكثيرًا ماتعجز الحقيقة أن تؤدي المعنى كما يؤديه المجاز، لذا قال الشريف المرتضى (٤٠٦ هـ) : " إنَّ الكلام متى خلا من الاستعارة ، وجرى كلُّه على الحقيقة ، كان بعيدًا عن الفصاحة ، بريًا من البلاغة" (١) ، وما ذلك إلا لأنها لونٌ مهمٌ في التعبير عن المعاني الدقيقة البعيدة ، على نحو تجسيدي للمعنى الثانوي ، يكتسبه في السياق الذي استعمل فيه اللفظ في غير معناه الأصلي. وقد أومأ عبد القاهر إلى هذا التفسير في قوله : " إنها تُريك الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخرس مبينةً ، والمعاني الخفية باديةً " (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا

وَزَفِيرًا ﴾ (٣) ، فلفظ (زفير) (٤) أُستعير من معناه المركزي ، الذي يُطلق على النفس الخارج من صدر الانسان ، إلى (جهنم) وهي جماد، فهو نقلُ صفةٍ حيَّةٍ من الصفات الخاصة بالمخلوقات الواعية كالbشر ، إلى (النار) وهي عنصرٌ جامدٌ ، لجعل المعنى شيئًا خياليًا مجسدًا مصورًا ، وممَّا زاد في جمالية الصورة إستعارة (الرؤية والغيط)، وهي صفات بشرية أيضًا للنار ، لاستكمال تجسيد الصورة ، وكأنَّ النارَ وحشٌ ضخمٌ مهتاجٌ على فريسته، فهذه اللوازم بمعانيها الإضافية جسَّدت الحالةَ على نحو يمكن تخيلُه وإدراكُه.

(١) أمالي المرتضى ١ / ٤ .

(٢) أسرار البلاغة ٣٠ .

(٣) سورة الفرقان ١٢ .

(٤) ينظر : لسان العرب (زفر) .

والعدول في اللفظ ، عن معناه إلى معنى آخر ، لابد أن يكون بقريضة رابطة تسوِّغ انتقال المعنى المركزي إلى المعنى الاضافي أو المعنى الثانوي ^(١) . ففي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ * وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ ﴾ ^(٢) ، فلفظ (ثيابك) في ظاهره يدلُّ على ما يُلبس، ومن تأوَّل ذهب إلى أن المراد هو القلب، لا الملبوس ، على سبيل الكناية، لأنَّ العرب كَنَّتْ بالثياب عن النفس والقلب فقالوا : (فلانٌ دنس الثياب) إذا كان خبيث الفعل ، وقال الفراء في (وثيابك فَطَهَّرْ) : أي : لاتكنُ غادراً فتدنس ثيابك، فإنَّ الغادرَ دنسُ الثياب . ويُقال : (وثيابك فَطَهَّرْ) : عمَّاكَ فأصلح ^(٣) . وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله عزَّ وجلَّ : (وثيابك فَطَهَّرْ) ، فقال : لاتلبسُ ثيابك على غدرٍ ولا على معصية ^(٤) ، فأعطيت الكلمة معنى البراءة من الدنس والغدرِ ، وتطهير العمل وجعله صالحاً في طاعة الله.

وكلُّ معنى من المعاني المجازية يحملُ فائدةً ينتفعُ بها المتحدث في إيصال فكرته على نحو يُمكنُ المُتلقِّي من إدراك المعنى مجسداً ، عن طريق ربط الكلام بصورة حية من الواقع ، يُمكنه تجميعُ اجزائها ذهنياً فيتخيَّلها. وفي كلتا الحالتين سيكون الربط بين الكلام وبين الصورة المقصودة عقلياً يستهدف زيادة في توصيل المعنى ، لاتوجد في الكلام المعتاد.

(١) ينظر: المثل السائر ٣٣/١.

(٢) سورة المدثر ١-٤.

(٣) ينظر: لسان العرب (ثوب).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي ٢٥/١ ، وتفسير الطبري ١٤٤/٢٩.

ومنها (الظلمات) في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١) .

فـ (الظلماتُ) لغة: جمع (ظلمة) ، وهي خلاف (النور) الذي هو : الضياء .

وقد وردت لفظة (الظلمات) في ثلاث وعشرين آية أغلبها بمعنى: الكفر والشر والفسوق (٢) ، أما لفظة (النور) فقد وردت ومشتقاتها في تسع وأربعين آية أغلبها بمعنى الإيمان والهداية (٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ صورة فنية تنتسب إلى (الرمز) ، مثل رمزي (النور) و(الظلمات) ، إن هذه الرموز تقول إن الله تعالى وليُّ المؤمنين ، وإنَّ الشيطان ولي الكافرين، وذهب البلاغيون إلى أنَّ (النور) و(الظلمات) هما تشبيهان أو استعارتان (٤). أي : إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَعِزَّتُهُ استعار للإيمان النور، وللکفر الظلمة، فكلمة (النور) إشارة إلى الإيمان ، وكلمة (الظلمات) إشارة إلى الكفر (٥) .

(١) سورة البقرة ٢٥٧ .

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٤٠-٤٤١ .

(٣) ينظر: المصدر نفسه ٧٣٠-٧٣١ .

(٤) ينظر: المثل السائر ٣٥٩/١ .

(٥) ينظر: تفسير القرطبي ٢٨٣/٣ ، وتفسير البيضاوي ٢٩٧/٥ .

ولو تأملنا لفظتي (النور) و (الظلمات) لأمكننا ان نستوحي كثيراً من الدلالات، فلفظة (النور) توحى بكل ما يحقق السعادة للإنسان مثل (الايمان ، والخير، والهداية، والاستقرار ، والاطمئنان، ...) . فعندما تتخذ لفظة رمزاً تكون لها قابلية على تفجير المعاني، ولفظة (الظلمات) توحى بـ (الكفر، والفسوق ، والشر، والخوف، والقلق ، والاختلال..) إلى غير ذلك من الدلالات التي يمكن أن توحى بها الألفاظ داخل النص.

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾^(١) ، وردت استعارات ممتعة مثل (مدُّ العين) ، و (زهرة الحياة) . فلو تأملنا الآية لوجدنا أن معناها : لا يلتفت المؤمنون إلى ما يستمتع به الكفار من النعيم الدنيوي، لأنَّ ما عند الله تعالى خيرٌ مما عندهم وابقى . وللتعبير عن هذا المعنى استعمل القرآن الاستعارات التي ذكرناها ، إذ لو تأملنا الاستعارة الاولى ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لوجدناها تحفل بدلالات عميقة على الرغم من كونها صورة مألوفة ذات وواضحة ، فـ (المدُّ) في اللغة يعني : التَّطْوِيلَ وَالْمَطْلَ . مَدَّه يَمُدُّهُ مَدًّا ، وَمَدَّ بِهِ فَاَمْتَدَّ ، .. وَمَدَّه فِي الْغِي وَالضَّلَالِ يَمُدُّهُ مَدًّا وَمَدَّ لَهُ : أَمَلَى لَهُ وَتَرَكَه^(٢) .

(١) سورة طه ١٣١ .

(٢) ينظر: لسان العرب (مدد).

إنَّ (مَدَّ العَيْنَ) يعني : النَّظَرَ إِلَى الاشخاص الذين غمرهم نعيمُ الدنيا ، وكان من الممكن أن يقول النَّصُّ مثلاً : (لا تنظر إلى مامتنا به أزواجاً منهم) ، ولكنه قال : (لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) ، إذ إنَّ مجردَ النَّظَرِ إلى ما فيه الآخرون من النِّعَمِ لا يحمل إلا دلالةً عاديةً على نظر معهود لا يستتبع حسرةً أو تَطَلُّعًا أو تفكيرًا في الشيء، على عكس ما قيل (لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) ، لأنَّ (المَدَّ) يعني تركيز النظر وإطالته ، ويعني ايجاد حلقة موصلة بين طرفين : طرف الناظر ، وطرف المنظور إليه ، ممَّا يحمل دلالةً خاصةً هي أنَّ الناظر سيقترن نظره إلى الآخرين بالحسد أو بالتَطَلُّعِ أو بتَمَنِّي امتلاك ما يجده عند غيره. وفي ضوء هذه الحقيقة يمكنك أن تتبينَ النُّكْتَةَ الفَنِّيَّةَ لهذه الاستعارة ، التي يمكن أن يستخلص المُتَلَقِّي منها ما يأتي: أنَّ على المؤمنين ألاَّ يُعْنُوا بالنِّعَمِ الدُّنيوي الذي يستمتع به المنحرفون عن منح الله تعالى، إذ إنَّ هذا النِّعَمِ سيكون وبالاً عليهم، فضلاً عن كونه نعيمًا زائلًا لابقاء له . لكنَّ النَّصَّ القرآني لم يقف عند هذه الاستعارة، بل أَرَدَها صورةً فنيةً تجسِّدُ هذا المعنى ، فما فيه الآخرون من نعيم هو (زهرة الحياة الدنيا) ، إذ إنَّ (الزهرة) تمتاز بمرأى جميل، رائحة منعشة ، وهذا ما يتصلُ بخصائصها الجمالية ، أمَّا ما يتصلُ بخصائصها الحيوية فهو سرعة ذبولها وتلاشيها ، فما يبقى لها أيُّ أثرٍ . وهذه الخصائص تنطبق تمامًا على خصائص النعيم الدُّنيوي ، فالمال والبنون ، والعقار والنساء تُشكِّلُ جميعًا نعيمًا يحمل خصائص الزهرة نفسها، فهي تتلاشى مع تلاشي العمر، وإذا كان الأمرُ كذلك فما قيمة مثل هذا النعيم الزائل؟^(١) .

(١) ينظر: دراسات فنية في سور القرآن الكريم ٢٤٥ .

إذن ، فلكل مفردة في القرآن الكريم جمالية خاصة ، فضلا عن هذه الجمالية هناك معنى لا يُؤدّي إلا بها، ومن الشواهد على ذلك الآية الكريمة : ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾^(١) في وصف الكافرين ، فاستعملت لفظة (ختم) على سبيل المجاز للدلالة على أن قلوب الكافرين مقفلة بشدة، لا ينفذ إليها بصيص من نور ، وليس فيها تقلب او تذبذب^(٢) ، والختم على القلب : (ختم) و(طبع) في اللغة واحدٌ ، وهو : التغطية على الشيء^(٣) .

فكلمة (ختم) منطبقة على الحال التي فيها الكفار ، بينما اختلف اللفظ في وصف المنافقين ، إذ قال تعالى ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾^(٤) ، فكلمة (مرض) هنا قصد بها (المرض النفسي)، وليس (العضوي) ، لأن النفاق من أخطر الأمراض، وما يُلفِتُ النَّظَرَ أَنَّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَرَضٍ طَبَعَ شَهْصِيَّتَهُمُ الْمُنَافِقَةَ ، بل زادهم الله مرضاً ، أي : ضاعف مرضهم، حتى لا يرجي لهم شفاء أبداً.

(١) سورة البقرة ٧ .

(٢) ينظر: جمالية المفردة القرآنية ١١٦ .

(٣) ينظر: لسان العرب (ختم) .

(٤) سورة البقرة ١٠ .



فلو وازنا بين لفظتي (ختم) و(مرض) ^(١) لوجدنا أنّ (الختم) على قلوبهم يوحي بثباتهم على كفرهم ، " لأنّ أصلَ (الختم): الطبعُ ، و(الخاتم) هو : الطابعُ ، يُقال : (ختمتُ الكتاب) إذا طبعته، فإنّقال لنا قائل : وكيف يُختمُ على القلوب ، وإنّما الختمُ طبعٌ على الأوعية والظُروف والأغلفة ؟ ، قيل : فإنّ قلوب العباد أوعيةٌ لما أُودعت من العلوم، وظُروفٌ لما جُعِل فيها من المعارف بالأُمور، فـ (ختمَ اللهُ على قلوبهم): طبع عليها ووسمها بِسِمَةِ الكُفْرِ " ^(٢) . بينما تدلُّ كلمة (المرض) على التذبذب بين الزيادة والنقصان، فـ (في قلوبهم مرض) أي : شكٌّ وريبةٌ ونفاقٌ ، يزداد تارةً ويفترُّ أخرى. والقلب هو الفؤاد ، وسُمِّي قلباً لِتقابله بالخواطر والعزوم، وهو محل العزم والفكر والعلم والقصد ^(٣) .

(١) ينظر: لسان العرب (مرض).

(٢) ينظر: تفسير الطبري ١١٢/١ ، وتفسير البيضاوي ١٤٣/١ .

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ٢٧٥/١ .

الفصل الثالث

وظيفة التطور الحاد في اللفظ

النص القرآني

المبحث الأول: وظيفته الفنية

المبحث الثاني: وظيفته العقلية

المبحث الثالث: وظيفته النفسية



الفصل الثالث

وظيفة التطور الدلالي في ألفاظ النص القرآني

الدلالة النصية للآيات القرآنية متطورة من ناحية التعبير المتساق لها نحو المعاني، تبعاً للوظيفة المبتغاة منها، فتارة تكون صورة (فنيّة) ، وتارة تؤدي محاورة فكرية (عقلية) ، وفي أغلب الأحيان يؤدي النص القرآني أثراً نفسياً . وجميع هذه الدلالات مجالها اللفظ خارج حدود استعماله الاعتيادية، ولاتخرج هذه الدلالات إلى الشذوذ اللفظي والمعنوي، بل إلى الثراء المعنوي في مواضع التراكيب الجميلة للقرآن، من ناحية الألفاظ وماتحملة من دلالات ، فتحس وكأنك بإزاء لفظة دافقة بالحيوية فيما تتطوي عليه من معانٍ دلالية وفق السياق الذي ترد فيه، فجمال النص يرسم ملامحه الأداء البياني ، ووظيفة الأداء البياني لا تكمن عند حدّ اللفظ الظاهري ، وإنما تتسع لتشمل عدّة دلالات فنية ونفسية يوحى بها السياق ، فتبرز المعاني في تشكيلات بلاغية مميزة تُدخل الكلمات في نسج صور معبرة ، لتؤدي وظائف عقلية ونفسية تدعم السياق بانفعالية معينة ، ولا يوجد ترابط كترابط الألفاظ في النص القرآني ؛ لأنّ القرآن العظيم كان دقيقاً في وضع الألفاظ في مكانها ، واختيارها بدقة متناهية ، إذ تتفاوت الألفاظ بدلالاتها على المعاني قوة وضعفاً ، تبعاً للنظم الذي تأتي فيه ، والمغزى المعبرة عنه، وهذا ما أعجز بني البشر في كثير من الأحيان من إحضار كل تلك الألفاظ التي تدل على معنى بعينه وسط سياق معين، لكنه متيسر سهل حاصل في قدرة الله تعالى، وهذا ما سنبيّنه في هذا الفصل من تتبّع وظائف الألفاظ في سياقاتها وفق النظم القرآني.



المبحث الأول وظيفته الفنية

إنّ المفردات في اللغة تشكّل حركة عضويّة صوتيّة ترمز إلى شيء حقيقي وضعي^(١) ، أما المفردات في السياق فهي عبارة عن تعانق اللغة والفكر لتوليد رموز جديدة.

وقد ميّز عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) بين اللغة والكلام ، وبين أنّ المقصود بالكلام معاني الألفاظ ، وعدّ الألفاظ رموزاً للمعاني ، والفكر عنده لا يتعلق باللفظة، وإنما يتعلّق بما بين المعاني من علاقات^(٢) .

وعلى هذا الأساس يمكن عدّ المفردات محدودة ، لكن تألفها هو الذي يغيّر الإيحاءات، فينظر إلى تصديق العبارة أو تكذيبها على أنّ الأسلوب الفني هو الذي ينبّه إلى المعنى، ولولا الطرائق الفنيّة في الكلام لنفدت المفردات.

وهذا يعني أنّ الاستعمال البياني والاستعمال المجازي للغة هو ما ينشئ بنية النص الخاص، فالنصّ عالم قائم بذاته، تتزايد فيه العلاقات بين الدوال المنتجة لعددٍ غير متناه من الدلالات، تدور جميعها داخل إطار موحد، وما يحكمها ويجمعها هو السياق، لذا لا يمكن ان تكون العلاقات بين الدوال سائبة، فلا بد من نظم تحكمها، مفعلة قدرتها اللغوية والإيحائية على الخلق والابتكار، إذ تعمل هذه النظم

(١) ينظر: النقد الأدبي الحديث ٤٢.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ٤١٥-٤١٦.

العمل الثالث

المختلفة على خلق دلالة النص، مغيرةً من وظائفه التعبيرية، ليتسنى للدوال فرز مخزونها اللغوي، وجعله اشارة تنمو وتتحرك داخل النص، في علاقة تفاعل مع مثيلاتها، لخلق بنية تعبيرية متميزة، فيتم بذلك انحراف اللغة المعجمية عن معيارها، متحوّلةً إلى لغة فنية، الأمر الذي يؤدي إلى كسر بنية التوقعات ومفاجأة المتلقي، إذ تخرج بنية جديدة تختلف عن الاحتمالات الكثيرة التي يمكن للبنية العامة أن تحدّها (1).

والخروج بالكلمات عن وظيفتها الوضعية الحقيقية هو انزياح عن طبيعة اللغة، لخلق لغة جديدة مبتكرة، وهذا لا يكون إلا في النظم، وسرُّ النظم في المجاز، ذلك أن محاسن الكلام، معظمها إن لم نقل كلها متفرّعة عن صناعة المجاز، فهناك فرق بين اللغة العادية (الحياتية)، وبين اللغة الفنية، وما أسماه عبد القاهر الجرجاني (معنى المعنى) هو الذي تؤدّيه اللغة الفنية، وفنّية اللغة تكمن في حسن النظم ودقّة الصنع (2).

وللخواصّ الفنية للغة قدرة على إبراز المعنويات وتشخيص القضايا العقلية بقوالب تغلب عليها عناصر الحسّ والمشاهدة، لتلتقي الصورة بالمضمون، وتفتقرن المعاني بالألفاظ، بل لتتعانق اللغة والفكر متضامنين في إخراج وظيفة الأداء الفني للقول. وعلى هذا فالوظيفة الفنية للقول تكون في كشف المجهولات للعيان،

(1) ينظر: قضايا شعرية ٢١ .

(2) ينظر: دلائل الإعجاز ٦٩ ، ٧٤ .



العنصر الثالث
وتشخيص المعنويات ، بعرض المعقولات وإبرازها بمثال حسيّ، حتى يزول الخفاء ويتلاشى الإبهام (١) .

وطالما أنّ الفنّ القولي هو أعظمُ موروث للأمة العربية ، إذن فهي أمةُ بيان، والعربُ أمةُ لسان، جاء القرآن معجزةً لهم؛ لأنّه من جنس ما يُحسِنونَ ومن سُنح ما يعرفون، لذا قال الله تعالى : ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢) ، إذ إنّ الإعجاز البياني أعمق شيء في نفس العربي، لأنّه جُبِلَ في صحرائه على حب الكلمة وتوحيّ عذوبة اللفظة، تهزّه الخطبة وتطربه القصيدة ، لذا بهرهم القرآن بجمال نظمه ودقة اختيار ألفاظه، إذ كان النظم القرآني مخزونًا جماليًا بلاغيًا لا يبلى في استجلاء الدلالات القرآنية الأدبية والفنون القولية، إذ تتميز المفردة القرآنية بتجاوز حدودها المعجمية، وقد تتجاوز أحيانًا إحياءاتها المعهودة، اعتمدت التأثير الحسيّ، وحافظت على تلازم الشكل والمضمون (٣) ، مؤلدةً ربطًا قويًا بين المتلقي والنصّ القرآني، كما في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (٤) ، فكلمة (رماد) وردت مرّةً واحدةً في القرآن الكريم ، خلقت من خلال التشبيه صورةً لوصف كيفية ضياع أعمال الكافرين سُدى، إذ إنّ (الرماد) في اللغة هو : دقاق الفحم من حُرارة النار، وماها من الجمر فطار دقاقًا، والطائفة منه رمادة، وقد استعملت

(١) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) سورة النحل ١٠٣ ، وسورة الشعراء ١٩٥.

(٣) ينظر: جمالية المفردة القرآنية ٣٤.

(٤) سورة ابراهيم ١٨.

العقل الثالث

العرب كلمة (الرماد) كنايةً عن كثرة الضيف في قولهم : (كثير الرماد) ، أو (عظيم الرماد) ، أي كثير الأضياف ، لذا يكثر الرماد لكثرة الطبخ ^(١) .

أمّا في قوله تعالى الأنف الذكر فنجدُ التعبيرَ القرآني قد جعلَ من مشهدُ الرماد الذي اشتدَّ به عصفُ الرِّيحِ صورةً فنيةً متحرِّكةً خاصةً ، ليجسِّدَ هذا المشهدُ العاصفُ المتحرِّكُ ما لا يبلغُه التعبيرُ الذهنيُّ المجرد ^(٢) .

إنَّ الصورةَ الفنيَّةَ القرآنيَّةَ استعارت كلمة (الرماد) لأعمال الذين كفروا برَبِّهم وعبدوا غيره ، وقوله (في يومٍ) مجاز ، إذ جعل العصفوف تابعاً لليوم في إعرابه، وأنما العصفوف للريح ^(٣) .

فالوظيفة الفنية تكون في نقل المعنوي إلى حسي، ونقل ما يدرك بالفكر إلى ما لا يدرك بالطبع ، فهي ميزان القوة الاستدلالية لإثبات ما يستفاد من جهة العقل بما يمثل له من جهة الحسّ ، كما في الآية في تمثيل أعمال الكافرين .

ومن صور هؤلاء الكافرين التي يجسِّدُها التعبير القرآني قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(٤) ، ومعنى كلمة (المكر) في اللغة هو : الاحتيال في خفية، و(مكر به) : أوقع به ، وقال ابن الأثير : (مكرٌ

(١) ينظر: لسان العرب (رمد).

(٢) ينظر: معاني القرآن للنحاس ٧٢/٢ ، وفي ظلال القرآن ١٤٧/٣ .

(٣) ينظر: الدر المنثور ١٧/٥ ، المثل السائر ٣٩٥/١ .

(٤) سورة النحل ٢٦ .

العمل الثالث ﴿١٥٤﴾

الله) : إيقاعُ بلائهِ بأعدائهِ دونَ أوليائهِ^(١) ، وهذا مانجده في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، قد اختلفت فيه دلالات (المكر) ، ففي قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، كلمة (مَكَرَ) هنا بمعنى : كَفَرَ ، وهذه صورة واضحة لقومٍ جالسين في بيوتهم وقد تزلزلت بهم أسس البناء فتهدمت ، وانهار السقف من فوقهم على رؤوسهم ، وراح الدمار والهلاك ينهال عليهم من حيث لا يشعرون بسبب كفرهم^(٢) . وكلمة (المكر) في القرآن تدل على عمل، سواءً أكانَ شراً أم كفراً أم خديعةً ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَكْرُوا وَاللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾^(٤) ، فـ (المكرُ) إن كان من البشر فهو الاحتيال في خفية وخديعة، وإن كان من الله فهو أخذُه العبدَ بالبلاءِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ^(٥) .

(١) ينظر: لسان العرب (مكر).

(٢) ينظر: مجمع البحرين ٦ / ٥٣٢ ، وتفسير النسفي ٢ / ٢٢١ .

(٣) سورة آل عمران ٥٤ .

(٤) سورة الرعد ٤٢ .

(٥) ينظر: روح المعاني ٣ / ١٧٨ ، والدر المنثور ٥ / ١٢٧ ؛ وينظر فيهما : تفسير قوله

تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ سورة

النحل ٤٥ ، وتفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴾ سورة النمل ٥٠ .

الفصل الثالث ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾

ومن الآيات التي تصف اليهود قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (١) . فالمراد من هذه الآية هو تشبيه اليهود بالحمار ، لعدم انتفاعهم بالتوراة وتركهم العمل بها، فأتعبوا أبدانهم ولم ينتفعوا بها. والذي جسّدَ هذا المعنى تشبيههم بالحمار الذي يحمل كتب العلم ولايدري ماعليه (٢) . فالمراد من التشبيه هو صورة الحمل غير الواعي ، وبذا يكون الحامل للتوراة ولم يَفِدْ منها، كمثل الحمار الذي لايعرف مايحمل (٣) ، فالله ﷻ في هذه الآية جعل التشبيه لفعل مخصوص هو (الحمل) للأسفار ، التي هي أوعية العلوم، والحمار جاهل بما فيها، وكذا في جانب المشبه، وبذا تكون كلمة (الحمار) هنا دلالة على (الحمل) غير الواعي ، وليس المقصود شكل الحمار أو جنسه. ومايدعم جمالية التحليل قوله تعالى (يحمل أسفاراً) ، فهذه الجملة أوضحت المراد من التشبيه في الآية.

وفي قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (٤) ، علاقة التشبيه التي عُقدت بين الناس والفراش أعطت دلالة الانتشار بكثرة، و(الفراشة): حشرة تطير وتتهافت على السراج، والجمع (فَرَّاش) (٥) ، ولو أنعمنا النظر في وجه الشبه بين هذا الكائن الصغير المتطاير والناس، وجدنا كلمة(المبثوث) تفسرُه، إذ إنَّ المراد تشبيه الناس في يوم الحساب بالفراش في كثرته وانتشاره وضعفه ،

(١) سورة الجمعة ٤ .

(٢) ينظر: معاني القرآن ، للفرّاء ١١٧/٣ ، والدر المنثور ١٥٤ / ٨ .

(٣) ينظر : روح المعاني ٨٤/١٦ ، والإيضاح في علوم البلاغة العربية ٢٢٠/١ .

(٤) سورة القارعة ٤ ، وقد وردت هذه اللفظة مرة واحدة في القرآن الكريم.

(٥) ينظر: لسان العرب (فرش).

العمل الثالث 

إذ يموج بعضه فوق بعض ، وقد سُمِّيَ فراشاً لتفرشه وانتشاره ^(١) . وبهذا تكون دلالة كلمة (الفراش) قد انتقلت من خلال النظم القرآني عن معناها الموضوع للدلالة على كائن صغير معيَّن لتعطي صورة انتشار الناس وضعفهم ، وبذا تكون الصورة الفنية من خلال هذا المشهد هي الدلالة على حال الناس يوم القيامة.

ومن الألفاظ التي أدَّت وظيفة فنية جميلة في السياق القرآني، وأضفت دلالة جديدة ، كلمة (أشربوا) في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ ﴾ ^(٢) ، فـ(الشرب) هو ابتلاع الماء وغيره ^(٣) ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ ^(٤) (فشاربون شرب الهيم) . أما قوله تعالى: (وأشربوا في قلوبهم العجل) فمعناه : تَشَرَّبُوا حُبَّ العجل ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه للدلالة عليه ^(٥) . وبذا تكون دلالة (أشربوا) قد ابتعدت عن معناها المعجمي ، لتعطي معنىً مجازياً هو (المخالطة) ، ولكثرة مخالطة حُبِّ العجل قلوبهم صورت هذه الآية هذا الحب وكأنه شيء تَشَرَّبْتُهُ في قلوبهم، وذكر (قلوبهم) لبيان مكان الإشراب، وذكر المحل المتعين يفيد المبالغة في الإثبات، والمعنى : داخلهم حُبُّ العجل، ورسخت في قلوبهم صورته ، لفرط شغفهم به ، كما يتداخل الصبغ بالثوب، فيقال : (هذا مُشَرَّبٌ بحمرة أو صفرة) أي : مخالط ^(٦) .

(١) ينظر: معاني القرآن ، للفرَّاء ٢٨٦/١ ، وتفسير النَّسفي ٣٥٤/٤ .

(٢) سورة البقرة ٩٣ .

(٣) ينظر: لسان العرب (شرب) .

(٤) سورة الواقعة ٥٤ - ٥٥ .

(٥) ينظر: معاني القرآن ، للفرَّاء ٦١/١ ، التبيان في تفسير غريب القرآن ٩٩/١ .

(٦) ينظر: روح المعاني ٣٢٦/١ ، والكشاف ٢٩٧/١ ، والدر المنثور ٢١٩/١ .

الفصل الثالث ﴿تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (١) ،

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (١) ،
فالعهن في اللغة هو : الصوف المصبوغ ألواناً ، وقيل : كلُّ صوفٍ (عِهْنٌ) ،
والقطعة منه (عِهْنَةٌ) ، والجمع : (عِهُونٌ) (٢) .

أمّا في قوله تعالى فقد شُبِّهتِ الجبالُ بـ(العهن) ، وهو الصوف المصبوغ
ألواناً ، لأنها تحمل ألواناً عدة، فمن الجبال جدد بيض وحمرة وخرابيبي سود، فإذا
بُسَّتْ وطِيرَتْ في الجو تشبَّهت بالعهن المنفوش ، لتفرَّق أجزاءها إذا طيرتها
الريح (٣) . وبذا تكون الدلالة التي أعطتها الآية من خلال التشبيه هي صورة تناثر
الجبال بصورة دقيقة، فامتزجت ألوانها لشدة تناثرها ، فبدت هيأتها وكأنها صوفٌ
منفوش مختلطة ألوانه، فدلت كلمة (العهن) على صورة الجبال في ذلك اليوم .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً

كَالدَّهَانِ﴾ (٤) ، فـ (الدَّهَانُ) في اللغة: جمع (دُهْنٌ) ، أي: تمور كالدُهْنِ صافيةً،
وقيل : (الدَّهَانُ): الأديمُ الأحمرُ، و(دُهْنٌ رأسُهُ وغيره ، يدُهْنُه دُهْنًا): بلُّهُ . والإسم
(الدُّهْنُ) (٥) .

فالتعبير القرآني خصَّ (الدَّهَانُ) بالتشبيه باعتبار إشرابه الشيءَ ، ووجهُ
الشَّبهِ الذَّوْبَانُ ، وهو في السماء على ما قيل من شدة الحرارة ، وقيل : الحمرة،

(١) سورة القارعة ٥ .

(٢) ينظر: لسان العرب (عهن) ، والمفردات في غريب القرآن ٣٦٥ ، والتبيان في تفسير
غريب القرآن ٤٧٣/١ .

(٣) ينظر: تفسير النَّسْفِي ٢٧٨ / ٤ ، وروح المعاني ٥٩/٢٩ .

(٤) سورة الرحمن ٣٧ .

(٥) ينظر: لسان العرب (دهن) ، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٤٠٢/١ .

الفصل الثالث 

وقيل للمعان ، وقيل الحسن ، أي : كالدَّهَانِ المختلطة ، لأنها تتلون ألواناً (١) .
وما نلمسه في تحليل هذه الآية، تشبيه تلون السماء ، عند حدوث شقوق وخروجات
في أجرام السماء يوم تقوم القيامة ، بتلون الوردية، إذ شَبَّهَهَا بـ (الدَّهَانِ) ، وهذا
يعني اختلاف ألوانها ولمعانها (٢) .

فالتعبير القرآني عمد إلى التشبيه في أغلب الآيات التي وردت في رسم
مشاهد القيامة وما يؤول إليه أمر الخلق في ذلك اليوم، إذ إنَّ التشبيه يخلق صورة
فنية ترتسم في الخيال عن طريق الكلمات المنظومة في السياق، وغالبًا ما يعطي
وجه الشبه دلالة معنوية، إذ تغادر اللفظة معناها إلى معنى آخر كما في قوله
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ
إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴾ (٣) ، فكلمة (كسراب) التي بُنيت عليها الصورة في اللغة هي :
ماتعكسهُ الشمس على الارض المستوية في منتصف النهار، فيُخَيَّلُ إلى الرائي أَنَّهُ
ماء (٤) . فـ(السَّرَابُ) يُطَلَّقُ على الشيء المُوهِمِ ، وليست له حقيقة واستعمل
التعبير القرآني هذه الكلمة في موضعين من القرآن الكريم : الآية الكريمة السالفة،
وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٥) ، وهذه الآية في وصف

(١) ينظر: معاني القرآن ، للفرّاء ١١٧/٣

(٢) ينظر: روح المعاني ١١٤/٢٧ ، والتفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ١٥٧ .

(٣) سورة النور ٣٩ .

(٤) ينظر : لسان العرب (سرب) .

(٥) سورة النبأ ٢٠ .

العنبر الثالث 

حالة الجبال يوم القيامة، إذ تُسَيَّرُ بأمر الله ثم تتلاشى وما يبقى منها شيء سوى منظر موهم بأثرها. فنجد أنّ كلمة (السَّرَاب) في الموضعين أُريد منها دلالة ذهاب الشيء هباءً منثورًا . ولو عدنا إلى الصورة التي رسمها الله تعالى في وصف أعمال الكافرين يوم القيامة ، لوجدنا أعمالهم لاوزن لها ، وأنهم يخدعون أنفسهم حين يظنونها شيئاً ، لذا شُبِّهت بـ(السَّرَاب) ، وخصَّ هذا السَّرَابُ بأنَّه سَرَاب

(بقية)، وهي الأرض المستوية ، التي ليس فيها تطامن ولا ارتفاع، لذا تعكس صورة السَّرَابِ واضحةً (١) .

وما هذه الدقة المتناهية في الوصف إلا ميزة جمالية تميّز بها القرآن من غيره ، فنلاحظ أنّ هذا المشهد يتأثر به الظمان ، أي : الشخص الشديد العطش، وليس الناظر العادي؛ لأنّ الظمان يتخيّل الماء أكثرَ من غيره بتفكيره فيه ، ثم يخيب أمله عندما يقترب فلا يجده ماءً، فكذلك الكافر يرى عمله مجدياً ، ذا منفعة، أو يعود عليه بثواب، وما ذلك الظنُّ منه إلا وهم كـ(السَّرَاب). ثم تتوالى عناصر صورة أخرى تجسّم معنى ضياع أعمال الكافرين، إذ يردف الله تعالى الصورة الأنفة بصورة فنية أخرى معطوفة على صورة السَّرَاب، فيصور ذهاب أعمال الكافرين سُدًى بمشهد آخر في قوله تعالى : ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا**

(١) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٣١٢/١ ، والدر المنثور ١٩٦/٦ .

العمل الثالث ﴿١﴾

أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴿١﴾،
فكلمة (ظلمات) قد وردت في ثلاثة وعشرين موضعاً في القرآن الكريم، وبمعانٍ
مختلفة كلٌ حسب السياق الواردة فيه (٢) . إلا أنها في هذه الآية دلت على
(الكافر)، فطالما إنه لا يعقل ولا يبصر فوصف قلبه بالظلمات، وعكسه جعل نور الله
هدى للمؤمن، أي أن قلوب المؤمنين وأعمالهم بمنزلة النور الذي وصفوا به، وأنهم
يجدون ثواب أعمالهم عند الله، وجزاؤهم الجنة، بينما أعمال الكافرين إن مُثِّلت بما
يُوجد فهي كـ(السراب) ، وإن مُثِّلت بما يُرى فهي كهذه الظلمات التي وصفها الله
تعالى لا يرى منها شيء (٣) .

فكثيراً ما تصف الآيات القرآنية الكافرين والمنافقين واعتدادهم بأعمالهم ،
بأنهم كالمُتوهم شيئاً ثم يفاجأ بغيره، وقد أكد الله تعالى هذه الفكرة بصورٍ عديدة
تقرب إلى الأذهان مصير الكفرة والمنافقين لجهلهم بحقيقة كفرهم ونفاقهم ؛ لأنه
هذا شيء لا يمكن أن يرى بل يُتخيل، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ
الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ، فالتشبيه بـ (العنكبوت) هنا
للدلالة على ضعف أعمالهم وسرعة زوالها ، إذ بيّن تعالى المراد من التمثيل

(١) سورة النور ٤٠ .

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٤١ .

(٣) ينظر: معاني القرآن ، للفرّاء ٢٥٥/٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ٤٩/٤ ،

والتصوير الفني في القرآن الكريم ١٩٨ .

(٤) سورة العنكبوت ٤١ .

العمل الثالث

بقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ، إذ إنَّ بيت العنكبوت ضعيف لا يقي من حرٍ أو بردٍ، والمعنى : إنَّ أولياءهم لا ينقصونهم ولا يرزقونهم ولا يدفعون عنهم ضرراً، فقد عدَّ الفراء هذه الآية في باب التشبيه بمطلق المثل، إذ قال : "ضرب هذا المثل لمن اتخذ من دون الله ولياً إنَّه لا ينفعه ولا يضره. كما أنَّ بيت العنكبوت لا يقيها حرّاً ولا برداً" (١) ، أي : إنَّ الكافر عارٍ عن ستر الله ، يخرج إلى الله عارياً ، فلا يكسى وتبدو فضائحه وقبائحه على رؤوس الأشهاد (٢) .

وفضلاً عن ذلك ، أشار بعض المفسرين إلى أنَّ بيت العنكبوت واهن بسبب رخاوة نسجه وضعف مادته ، لأنَّ خيوطه ضعيفة تتقاذفها الرِّيح فتمزقها (٣) ، وثمة إشارة أخرى معنوية تكمن في أنَّ بيت العنكبوت واهٍ بسبب التفتت السريع للعائلة ، إذ إنَّ العلاقة في عائلة العنكبوت واهية ، فأنتى العنكبوت بعد أن تنتهي من عملية التزاوج تنقلب على الذكر فتقرسه (٤) ، وهذا مثل ضربه الله ﷻ لتمزق علاقات أولياء السوء (٥) .

(١) معاني القرآن ، للفراء ٣١٧/٢ .

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ١٦٩/٤ ، والمثل السائر ٣٨/١ .

(٣) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ٣٣٢/١ ، والدر المنثور ١٠٣/١ .

(٤) ينظر : التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن : ٤١ .

(٥) ينظر: روح المعاني ١٠٩/٨ .



المبحث الثاني وظيفته العقلية

عُني العرب بأساليب كلامهم ، وتحدّث أوائلهم عنها، فهم أمةٌ قول تحرصُ على تماسك خصائصه ، ولاشك في أنّ الأسلوب مطالب بوظائف متعددة، فتارةً تكون وظيفته بلاغية (فنية) ، وتارةً إقناعية (عقلية) ، وتارةً تأثرية (نفسية)، وهذه وظائف لا تُؤدّيها اللغة الحقيقية ، وإنّما تجود بها اللغة المجازية ، ولفهم طبيعة اللغة المجازية والوظائف التي تؤدّيها ÷ لا بدّ لنا من معرفة دور النشاط العقلي في سعيه نحو المعرفة، فعلياً أنّ نتعرف على ماهيّة العقل للتعرف على كيفية مخاطبة النص له ، ووظيفته في فهم النص.

فـ(العقل) كما حدّه ابن فارس (٣٩٥هـ) هو : " مايدلُّ على حُبسة في الشيء أو مايقارب الحبسة" (١) ، وهو مأخوذ من (عقلتُ البعير) ، إذا جمعت قوائمه لئلا ينفلت فيهرب (٢) .

والأصل في (العقل) إذن : الحبس والمنع والتقييد، وهو ناتج عن الفهم، وبه عُلّ تسميته عقلاً "لأنّ العرب إنّما سمّت (الفهم) : (عقلاً)، لأنّ ما فهمته فقد قيّدته بعقلك وضبطته ، كما (يُعقلُ البعيرُ) إذا قيّدت ساقه إلى فخذيه. وقالوا : (إعتقل لسانُ فلان) ، أي : استمسك (٣) . وقيل إنّ سبب تسميته عقلاً لأنّه يعقلُ النفسَ ،

(١) مقاييس اللغة ٦٩/٤.

(٢) ينظر: لسان العرب (عقل).

(٣) ينظر : العقل وفهم القرآن ٢٠٩.

الفصل الثالث

أي : يمنعها من الإنطلاق مع رغباتها . وذهب الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) إلى إن اصل (العقل) في اللغة : " الإمساك والاستمساك، كـ(عقل البعير بالعقال) ، و(عقل الدوّاء البطن) ، و(عقلت المرأة شعرها) ، و(عقل لسانه) : كفه، ومنه قيل للحصن : (معقل) " (١) . إذن فـ(العقل) في اللغة هو : الفهم الناتج عن المعرفة بالشيء ، وطالما أنّ الطريق إلى معرفة الله ﷻ هو العقل، لذا عدّ القرآنُ العقلَ الأداةَ الأساسيةَ لفهمه وتدبر آياته ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، فأكدّ القرآن دورَ العقل في فهم النص ودلالاته في أكثر من موضع ، كقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَن يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٣) . إذ دعا القرآن إلى توظيف العقل واعتماده في معرفة الله ، وتحصيل المعارف، والعلوم الإسلامية ، وتنظيم الحياة. والعقل وفق هذا " قُوَّةٌ مَمَيِّزَةٌ بَيْنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ وَالْقَبِيحَةِ " (٤) ، وهي التي تمنح الإنسان قيمة وجوده، وبها يصنع حياته كإنسان، وهي الفارقُ بينه وبين سائر المخلوقات على هذه الأرض، وإنّ للعقل إمكانياته ومؤهلاته الإدراكية التي تصنع له حدوده وصلاحياته. وللوظيفة العقلية إتجاهان :

(الأول) : الاحتجاج بالأمور العقلية والاستدلال بالبرهان.

(١) المفردات في غريب القرآن ٣٤١.

(٢) سورة يوسف ٢.

(٣) سورة العنكبوت ٤٣.

(٤) شرح التلويح على التوضيح ١٥٧/٢.

الفصل الثالث

(والثاني): الدعوة إلى استعمال العقل، والإحالة على النظر فيما يلي من آيات

لتدبر فهمها^(١).

وتعدُّ الحواسُّ منافذَ ووسائلَ للمعرفة ، لأنَّ " العقل في الحقيقة لا يدرك

الاشياء مباشرة ، بل عن طريق الحواس " ^(٢) . والإدراك الحسيُّ يُعدُّ أولَ العلم

بالمُدرَكات^(٣) . لذا نجد القرآن في أكثر من موضع ينفى صفة العقل عمَّن عطلَّ

حواسَّهُ ، كالسمع والبصر والنطق ، عن أن تقيده في المعرفة والوصول إلى الحق

والإيمان ، إذ يصفهم تارة بالصُّمِّ، وتارة بالبُكمِ، وتارة بالعمِّي، كما في قوله تعالى :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ

بُكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٤) ، فـ(النعيق) هو : دُعَاءُ الرَّاعِي لِلشَّاءِ، يُقَالُ:

(إنعق بضأنك)، أي: إدعها، و(نعق الراعي بالغنم ، ينعق بكسر) نعقا ونعاقا:

ونعيقا ونعاقانا): صاح بها وزجرها، ويكون ذلك للضأن والماعز^(٥) . فقوله

تعالى: ﴿ يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ ، أي: يصيحُ بالغنم فلا تدري

مايقول لها، إلا أنها تنزجر بالصوتِ عمَّا هي فيه ^(٦) .

(١) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني ٣٩٢.

(٢) العقل عند المعتزلة : ٦١.

(٣) ينظر: الاتجاه العقلي في التفسير : ٦٣.

(٤) سورة البقرة : ١٧١.

(٥) ينظر: لسان العرب (نعق).

(٦) ينظر: التبيان في تفسير غريب القرآن ١٢٧/١.



الفصل الثالث

فلفظة (ينعق) في الآية استعملت على سبيل الإتساع في اللغة، فلم يُشَبَّهَ بما ينعق، وإنما شُبَّهَ بالمنعوق به، وإنما المعنى: مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَّاقِ وَالْمَنْعُوقِ الَّذِي لَا يَسْمَعُ (١) .

وهذا يعني أَنَّ النَّصَّ الْقِرَائِيَّ يَسْتَهْدَفُ التَّأَكِيدَ عَلَى حَقِيقَةِ ذَاتِ مَغْزَى خَاصٍّ، وَهِيَ لَفْتُ النَّظَرِ إِلَى أَنَّ الْكُفَّارَ يَشْبَهُونَ الْبَهَائِمَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى انْعِدَامِ الْوَعْيِ لَدَيْهِمْ، وَوَجْهُ الشَّبْهِ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَالْأَنْعَامِ، أَنَّ الْأَنْعَامَ لَا تَعِي دَلَالَةَ الْكَلَامِ الْمَوْجَّهَ إِلَيْهَا، وَكَذَلِكَ الْكُفَّارَ، قَالَ الْفَرَّاءُ: " أَضَافَ الْمَثَلَ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، ثُمَّ شَبَّهَهُم بِالرَّاعِي وَلَمْ يَقُلْ: كَالْغَنَمِ، وَالْمَعْنَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا (كَمَثَلِ الْبَهَائِمِ) الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ الرَّاعِي أَكْثَرَ مِنَ الصَّوْتِ، فَلَوْ قَالَ لَهَا: (ارْعِي) أَوْ (اشْرَبِي)، لَمْ تَدْرَ مَا يَقُولُ لَهَا، فَكَذَلِكَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنْذَارِ الرَّسُولِ، فَأُضِيفَ التَّشْبِيهُ إِلَى الرَّاعِي، وَالْمَعْنَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِي الْمَرْعَى " (٢) .

فاستعمال القرآن لـ (يَنْعِقُ) أَعْطَى دَلَالَةَ : (يُنَادِي بِمَا لَا يَفْهَمُ) ، وَوَجْهُ الشَّبْهِ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَالْأَنْعَامِ يَكْمُنُ فِي عَدَمِ وَعْيِهَا لَدَلَالَةِ الصَّوْتِ الْمَوْجَّهَ لَهَا، فَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ فِي عَدَمِ وَعْيِهِمْ لِلنِّدَاءِ الْمَوْجَّهَ إِلَيْهِمْ ، وَمِنْ هُنَا نَدْرِكُ جَمَالِيَةَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ ، إِذْ اسْتَعْمَلَ لَفْظَتِي (الدعاء) و(النداء) ، فِي الرَّمَزِ إِلَى مَجْرَدِ سَمَاعِ الصَّوْتِ ، دُونَ أَنْ يَقْتَرِنَ ذَلِكَ السَّمَاعُ بِدَلَالَةِ مَعْنَى الصَّوْتِ ، أَيْ : كَمَثَلِ الَّذِي يُرْسِلُ صَوْتًا إِلَى مَخْلُوقَاتٍ لَا وَعْيَ لَهَا ، فَجَاءَ التَّشْبِيهُ بِالنَّعِيقِ لَيْسَ تَشْبِيْهَا بِالرَّاعِي ، بَلْ بِإِرْسَالِ الصَّوْتِ إِلَى

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم : ٧٧.

(٢) معاني القرآن ، للفرَّاء ٩٩/١ ، وينظر: الدر المنثور ٤٠٥/١.

العمل الثالث 

الغنم ، وما يؤكدُ هذا وصْفُهُمْ بـ(صم ، بكم ، عمي ، فهم لا يعقلون) ، أي : لا يفهمون معاني الكلام الذي يوعظون به ، وليس لهم من معاني القرآن وكلام الخير إلا دورة الكلام^(١).

ففي الآية ، إذن ، إرشاد إلى نبذ التقليد الأعمى ، وإلى تحكيم العقل ، وتحريك الحواس ، وعدم تعطيل تلك الجوارح التي وهبها الله تعالى للإنسان ، وميِّزه بها من الحيوان ، وبذا تكون وظيفة الكلام هنا (وظيفة عقلية) ، إذ إنَّ الله تعالى بهذه الأمثال والصور يوصل الإنسان إلى المعرفة والحقيقة الكبرى بالاستدلال المنطقي ، فقد ذكر الله ﷻ ، في أكثر من آية ، أنَّ الأمثال التي يضربها براهين وأدلة يخاطب بها عقول القوم ، علَّهم يدركون ما يأتيهم من ربهم ، كما في قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٣) ، لذا يصف تعالى من لا يعقل ولا يفقه كلامه بالأنعام ، لأنَّ ما يميز الإنسان من الانعام هو العقل ، وحين ينعدم يكون وصفه بالبهائم أقرب لحالهم ، إذ إنَّ العناد والتغاضي عن استماع المعرفة هو الذي يجعلهم كالبهائم في التفكير ، وهم لا تفكير لهم ، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ

(١) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن ٣/٣١٥ ؛ والأمثال في القرآن الكريم ٢١.

(٢) سورة العنكبوت : ٤٣ .

(٣) سورة الرعد : ٤ .

الفصل الثالث 

لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ ، فـ(الدَّوَاب) في اللغة : اسم عام لجميع الحيوانات يُستعملُ في الحيوان وفي الحشرات (٢) .

أمَّا في النصِّ القرآني فقد جاءت لفظة (الدَّوَاب) رمزًا للإيجاء بضالة مستوى تفكير هؤلاء المعاندين الذين لا يرتقون إلى مستوى الآدمية. وكان اختيار كلمة (الدَّوَاب) لتجسيم الحالة التي تمنعهم من الانتفاع بالهدى ، بوصفهم (صم ، بكم) ، فكلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية التي يرسمها النص لهؤلاء الذين لا يؤمنون ، لأنهم لا يعقلون . ومِمَّا يلفتُ النَّظَرَ التَّقابُلُ في النصِّ القرآني بين الإنسان والحيوان من خلال الفعل (لا يعقلون) ، فقد جاء إشارةً إلى أنَّ المُراد بـ(الدَّوَاب) في النصِّ هم البشر ، وليس البهائم الحقيقية (٣) .

فإنَّه ﷻ أكَّدَ الاستماع لآي الذكر الحكيم ، لأنَّ في الاستماع عِظَةً وتبصرةً وتفهمًا ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

فالقرآن يدعو إلى التَّدبُّرِ والنَّظَرِ والتَّأمُّلِ في آياته ، وينهى عن الإعراض عنها، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٥)، وفي قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا

(١) سورة الأنفال ٢٠-٢٢ .

(٢) ينظر: لسان العرب (دبب) ، والتبنيان في تفسير غريب القرآن ٩٤/١ .

(٣) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم ٧٧ .

(٤) سورة يونس ٥٧ .

(٥) سورة محمد ٢٤ .

الفصل الثالث ﴿١﴾

أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

الصُّدُورِ ﴿١﴾ ، و(القلب) في اللغة هو تحويل الشيء عن وجهه، وهو ايضاً

خالص الشيء ولبه، و(القلب) هو المضغة الصنبورية في جسد الإنسان (٢) . وقد

يعبر بـ (القلب) عن (العقل) مجازاً ، وهذا ما عبرت عنه كلمة (قلب) في الآيات

الآتية ، إذ قال الفراء: "جائز في العربية ان تقول (مالك قلب) و(ماقلبك معك)،

تقول (ماعقلك معك) و(أين ذهب قلبك؟) أي : أين ذهب عقلك ؟ " (٣) .

فـ (القلوب) في السياق القرآني تُشعِرُكَ بأنها العقول ، لوجود القرينة

السياقية ، في نحو قوله تعالى (يعقلون بها) ، فَجَعَلَ (القلب) كنايةً عن الخاطر

والتدبير (٤) .

وقد عبّر القرآن في مواضع عديدة عن القلوب التي لا تفقه بالطبع والختم

عليها ، ووضع الأقفال عليها ، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ

عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٥) فأضاف الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال

مخصوصة ، مناسبة لها ، غير مجانسة لسائر الأقفال المعروفة (٦) ، وكذلك في قوله

تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ

(١) سورة الحج ٤٦ .

(٢) ينظر: لسان العرب (قلب).

(٣) معاني القرآن، للفراء ٨٠/٣ .

(٤) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ١٨٦ .

(٥) سورة محمد ٢٤

(٦) ينظر: روح المعاني ٧٤/٢٦ ، والدر المنثور ٥٠١/٧ .

العنق الثالث ﴿١﴾

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٢﴾ . فـ(الْخَتْمُ) و(الطَّبْعُ) في اللغة بمعنى واحد ، هو : التَّغْطِيَةُ عَلَى

الشَّيْءِ وَالِاسْتِثْقَاقُ مِنْ أَنْ لَا يَدْخُلَهُ شَيْءٌ ، وهذا ما قصد إليه التعبير القرآني حين وصف قلوب الكافرين بـ(المقفلة والمختومة والمطبوعة) ، لعدم نفاذ الهداية إليها ،

لِعَدَمِ تَفَهُمِهَا لِقَوْلِ الْحَقِّ ﴿٣﴾ . فَالْخَتْمُ وَالطَّبْعُ كِنَايَةٌ عَنْ رَسُوخِ الْغَفْلَةِ وَالضَّلَالِ فِي

قُلُوبِ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِينَ ، حين وصف الله قلوبهم بهذه الأوصاف للدلالة على الانغلاق التام في ذهنيته ، وما يبين ذلك استعارة النَّصِّ الْقِرْآنِيِّ (للختم) ، وهو سدُّ

الشَّيْءِ ، حيث جعلت هذه الصفة المادية لأشياء معنوية ، في خلعها على القلب والسمع والبصر ﴿٤﴾ ، فجاء (الختم) رمزاً لانسداد الفهم والإدراك في عقول الكافرين .

وَيُجَسِّدُ التَّعْبِيرُ الْقِرْآنِيُّ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَمَا تَوَوَّلَ إِلَيْهِ أَعْمَالُهُمْ بِحَشْدٍ مِنْ

الصُّورِ الْفَنِیَّةِ الْمَتَابَعَةِ فِي مَشْهَدٍ مُتَحَرِّكٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ

اشْتَرَوْا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٠٦﴾

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٠٧﴾ صَمٌّ بِكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ

﴿١٠٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ

(١) سورة البقرة ٧ .

(٢) سورة التوبة ٨٧ .

(٣) ينظر: تفسير النَّسْفِيِّ ٤ / ١٤٩ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير ٢٣،٤٤ ، والإعجاز البياني للقرآن ٤٩٧ .

العقل الثالث ﴿١٧٠﴾

فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٦٩﴾ يَكَادُ
الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٠﴾
(١) إِنَّ هَذَا الْمَشْهَدَ قَائِمٌ عَلَى أَلْفَافٍ تَطَوَّرَتْ دَلَالَتُهَا ، كـ (اشْتَرَوْا ، وَالضَّلَالَةَ ،
وَالهُدَى ، وَصَيَّبَ ، وَظَلَمَاتٍ ، وَأَصَابِعَهُمْ ، وَأَضَاءَ) ، فَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَلْفَافِ قَدْ حَصَلَ فِيهَا
تَطَوُّرٌ دَلَالِي ، إِذْ سُحِبَتْ مِنْ مَعَانِيهَا لِنُطْقِ عَلَى مَعَانٍ أُخْرٍ وَفَقَ مَا يُقْتَضِيهِ السِّيَاقُ ،
كَخَلْعِ صِفَةِ (الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ) عَلَى ظَاهِرَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ تَتَّصِلُ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِضِدِّهَا ، فَكَانَ
إِطْلَاقُ الْهُدَى عَلَى الْإِيمَانِ ، وَالضَّلَالَةَ عَلَى الْكُفْرِ . وَبِمَا أَنَّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ قَدْ وَصَفَ
سُلُوكَ الْمُنَافِقِينَ فِي عَمَلِيَةِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، الَّتِي تَقْتَرِنُ دَائِمًا بِإِشْبَاعِ الْحَاجَةِ لَدَى الْبَائِعِ
وَالْمُشْتَرِي ، فَالْعَمَلُ التَّجَارِيَّ يَسْتَهْدِفُ كَسْبَ الرِّيحِ ، وَإِلَّا كَانَتْ التَّجَارَةُ عَبَثًا . لِذَا
عِنْدَمَا خِيلَ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ قَدْ رَجَحُوا فِي تِجَارَتِهِمُ الْمُنَافِقَةَ ، وَالْكَافِرَةَ ، تَبَيَّنَ
لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَنَّهُمْ كَانُوا مَخْطِئِينَ فِي تَقْدِيرِهِمْ ، لِأَنَّ
الْمَطْلُوبَ أَنْ يَرْبِحَ الشَّخْصُ جَانِبَ (الْهُدَى) ، فِي حِينٍ أَنَّهُمْ قَدْ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى
، وَهَذَا هُوَ مَنْتَهَى الْخَسَارَةِ . فَـ (الْهُدَى) رَمَزَ لِلْإِسْلَامِ ، وَ(الضَّلَالَةُ) رَمَزَ لِلشَّرِكِ (٢)

والتعبيرُ القرآني يتقدّم بصياغة صور تشبيهية يدلُّ من خلالها على مستوى
الخسارة التي تصيب هؤلاء المنافقين والكافرين ، إلا أنّ الغاية منها توظيف العقل

(١) سورة البقرة : ١٦٦ - ٢٠٠ .

(٢) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم : ١٩٩ .

العقل الثالث ﴿١﴾

لاستيعاب ماسيؤول إليه أمرهم ، فقال تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ النَّارِ الَّتِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١) ، وطالما أن النصَّ يتحدَّث عن أخطر الأمراض النفسية وهو (النفاق) ، لذا شبَّه الله المنافقين بشخص استوقد ناراً على أمل أن تضيء له الطريق، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون .

فالاستدلال العقلي والنهج المنطقي في التصوير والإدراك في القرآن ، كان يأتي بألفاظ مختارة تُشبع النصَّ القرآني بدلالات متعددة ، ففي قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢) . ردُّ على من أنكرَ خلقَ عيسى من غير أب ، إذ هذا الخلق ليس بأغرب من خلق آدم من غير ذكر وأنثى (٣) ، ثم قال : (خلقه من تراب) ، ولم يقل : (من طين) ، وهو ماء وتراب ، إشارة إلى أقلِّ الصنْفين منزلةً، ليؤكد ﷺ مدى قدرته وضالَّة أصل المخلوق ، فالقادر على خلق الشيء من العدم لقادرٌ على خلق عيسى في بطن أمه (٤) .

إنَّ (الوظيفة العقلية) للكلام في القرآن تكمن في عرض الأدلة المنطقية ، بألفاظ دقيقة الاختيار ، وبأساليب فنية جميلة، كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٥) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ

(١) سورة البقرة : ١٥ .

(٢) سورة آل عمران ٥٩ .

(٣) ينظر: تفسير الطبري ٢٩٥/٣ .

(٤) ينظر: معاني القرآن ، للفراء ٢١٩/١ .

العمل الثالث ﴿١﴾

الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ، فالقرآن الكريم

عمد إلى إثارة هذه المعاني في النفس الإنسانية ، من جعل الأرض فراشاً والسماء

بناءً... وكيفية نزول المطر وإنبات الزرع ، ومرد ذلك إلى التفكير والاستدلال

والرجوع إلى حقيقة الأشياء للتنبيه على وحدانية الله ﷻ (٢) ، وما هذه إلا بالألفاظ قد

اختيرت لتزيد جمالية السياق ، وتتسجم مع المعنى .

(١) سورة البقرة ٢١-٢٢ .

(٢) ينظر: الدر المنثور ٨٥/١ ، وتفسير النسفي ٢٣١/٢ .



المبحث الثالث وظيفته النفسية

اللغة هي الأداة العقلية الأولى التي مكّنت الإنسان من تحديد الأشياء ، وتوضيح أفكاره عنها ^(١) . فهي فعلٌ إنساني محض ، يحيل التجربة البشرية إلى عالم مقول ، عالم تحدد معناه العلاقة الحاصلة بين الكلمة والفكرة .

ووظيفة الكلمة في اللغة هي خلق استجابات ، على نحو ما تفعله الأشياء التي تأتي الكلمات بدائل لفظية عنها، والوصول تدريجيًا من خلال هذه الاستجابات إلى صياغة متألّفة تُحقّق الرُّكُون (المُسْتَقَرَّ) إلى غائيّة الحدث اللغوي، وربط ذلك بالمرجعية الإثارية - الإستجابية التي يبني عليها الحدث ذاته، فيأتي المعنى استجابةً ذهنيّةً ، لا استجابة لفظية ، يسبقها مثير أو منبّه واقعي ^(٢) .

إذن ، لا بد لنا من التعامل مع الوظيفة اللغوية على أساس انتمائها إلى سياقين ، هما : السّياق اللفظي والسّياق الاجتماعي، يأتلفان في إطارٍ واحدٍ ، يتشكّل بهما المعنى . فالعلاقة بين هذين السياقين علاقة تضمينية، بمعنى أنّ السّياق الاجتماعي يتضمّن السّياق اللفظي ، فيكون الأول أصلًا ، فرعه سّياق اللفظ، فلا يخلو سّياق لفظيٌّ ما من رجوعه إلى هذا السّياق الأصلي أو الرئيس الذي يجسّد سّياق الحدث الكلامي، فيرسم أو يختارُ مقوماته اللفظية وأبعاده الدلالية ومن ثمّ يكون السّياق الاجتماعي سّياقًا مركّبًا في ذاته من اللفظ والموقف، فينشأ السّياق اللغوي الدلالي

(١) ينظر: مشكلة الحياة ٨٢.

(٢) ينظر: علم الدلالة السلوكي ٨٢-٨٩.

العمل الثالث

المركب في ذاته من اللفظ وسياق الموقف الاجتماعي، وهذا ما يضمن للغة وظيفتها الاجتماعية، وفاقها النفسية (١).

فتمت علاقة بين الأسلوب والمعنى من حيث قنوات التوصيل الدلالي المهيمن على الإبلاغ، من غير أن ينقصه شيء من عناصر التأثير والإدهاش. فلا تعدو العملية اللغوية الإقناع والتأثير، أو الكشف والإبلاغ، ولا يتحقق هذا بغير الوحدات الدلالية، فتأتي إيلاغية اللغة وبلاغتها في آن واحد (٢). وهذا ما أكدته الأوائل من علماء البلاغة والنقد، فقال أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) في البلاغة "إنها كل ما تبلى به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسه، مع صورة مقبولة ومعرض حسن" (٣).

وقد توافق فهم عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) للبلاغة، مع فهم أبي هلال العسكري لها، إذ يرى أن وصف الكلام بالبلاغة لا معنى له إلا وصفه "بحسن الدلالة وتمامها، فيما كانت له دلالة، ثم تبرجها في صورة أبهى، وأزين، وأنقى، وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوى النفس، وتتل الحظ الأوفر من ميل القلوب" (٤).

(١) ينظر: الأثر الدلالي لحذف الاسم في القرآن الكريم ١١-١٢، والدلالة النفسية

للألفاظ في القرآن الكريم ١٠.

(٢) ينظر: المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية ٢١٤.

(٣) كتاب كتاب الصناعتين ٧٢.

(٤) دلائل الإعجاز ٨٧.

الفصل الثالث

وبذا يكون الأوائل قد أشاروا إلى العلاقة بين اللغة وأثرها النفسي ، من خلال حديثهم عن التدوق الفني ، فلطالما أكدوا مطابقة الكلام لمقتضى الحال ^(١) ، واختيار الكلمات للمكان المناسب لها في الجملة، وهذا يعني أن معني الانفعالية الأساسيين هما : المفردات والتنظيم، وعنصر الاختيار هو ما يميز اللغة الانفعالية من غيرها، إذ تظلُّ مراعية لمقتضيات الحدث اللغوي ، من خلال تحولاتها السياقية بحسب تحولات المقام، فتصوغ عباراتها صوغاً جمالياً، فلا يكون المعنى تبعاً لذلك بمعزل عن عناصر السياق كلها، فإن إنتاجه يتشكّل بشكل العملية اللغوية، التي لا تنفك تقوم على ثنائية الدال والمدلول ^(٢) .

ولو أنعمنا النظر في البلاغة لوجدناها تتبع مواقع رضا النفس وكيفية التأثير فيها، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني ، في كلامه عن المسائل الحسيّة ، بشكل غير مباشر فقال : " فلا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتهما" ^(٣) .

فالأثر النفسي للكلام لا يمكن إغفاله، وكلما كان أسلوب الكلام متمكناً من الفصاحة والبلاغة ، كان دخوله إلى النفس أسرع، وتأثيره أكثر . ولو حللنا قول الرسول ﷺ : " إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة" ^(٤) ، لوجدنا أن (البيان) هو : الكلام البليغ الذي يسحر النفس لما يتركه من أثر فيها، فقد كان البيان لأمة محمد ﷺ ديدنها الذي يثير شجونها تارة ، ويقوي عزمها تارة أخرى، وغير ذلك

(١) ينظر: الإيضاح ٨ ، ومناهج التجديد ١٨٣ .

(٢) ينظر: أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث ١٤٢ ، وبنية اللغة الشعرية ٣٣ .

(٣) دلائل الإعجاز ٢٥٥ .

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ٤٩١/١ .

الفصل الثالث

من الأغراض التي كان يطرقها البيان في ذلك العصر، لذا فعندما أراد الله أن يجعل لأمة العرب معجزة، جعل لهم القرآن الكريم، فولج إلى قلوبهم، ودخل عقولهم، لما فيه من تأثير كبير في النفس الإنسانية، فمفهوم الإعجاز القرآني يتضمن دلالاته النفسية؛ لأن المقصود منه هو الأسلوب البين، والإخبار عما سبق، والإخبار عن الغيب والعلاقات الإنسانية عامة، والتناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً، ثم الجزالة وإمكان التعليل، فهو "تعدّي حدود اللغة إلى النفس، لأنّ في ذلك انتقالاً بالصورة إلى داخل النفس المعبرة" (١). ومثل هذا كثير في القرآن الكريم، فلو تأملنا كلمة (المس) في القرآن الكريم لوجدناها جاءت بمعنى الملامسة المادية، أي مسك الشيء (٢)، في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (٣) لا يمسّه إلا المطهرون (٤)، فالواضح من ظاهر النصّ الدلالة المادية، ذلك أنّ (المطهرون) هم (الملائكة)، وقيل هم المنزهون عن الخطيئة، وقيل هم (السقرة) هم الكتبة (٥). فالمعنى: لا ينبغي أن يمسّه إلا من هو على الطهارة من الناس، إلا أنّ المتأمل لهذا اللفظ يجد أنّ حدود دلالاته لا تنتهي عند دلالاته المادية فقط، بل إنه يتضمن دلالة معنوية تتمثل في أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً (٥)، ولا يكاد الشخص يصل إلى باطنه مالم يكن على طهارة عالية، تؤهله لأن يعي ما فيه، ليصل إلى المعرفة والتّمثّل الحقّ

(١) مجاز القرآن وخصائصه الفنية ٩٦.

(٢) ينظر: لسان العرب (مس).

(٣) سورة الواقعة ٧٨-٧٩.

(٤) ينظر: الدر المنثور ٢٦/٨.

(٥) ينظر: روح المعاني ١٦٠/٢٢.

العمل الثالث 

لأجواء القرآن الكريم ، وهذا التَّمَثُّلُ يعيه المطَّهَّرُونَ من البشر ، فإنَّه لا يبلغ حقائق معرفته إلا من طَهَّرَ نفسه ، وابتعدَ عن الفسادِ قلبه، ومن ثمَّ يكون (المَسُّ) تجاوبًا روحياً بين القرآن العزيز والمُطَهَّرِينَ، واستشعاراً لمكامن الكمال والجمال فيه (١) .

ومن لطائف الاستعمالِ القرآني لكلمة (المَسُّ) جعلها كنايةً عن (الجَمَاعِ) (٢)، إذ يُكْنِي اللهُ ﷻ عن إتيانِ المرأةِ مِنْ قِبَلِ الرجلِ بألفاظٍ رشيقةٍ ، تشير إلى الدلالةِ المبتغاة، وتحفظ في الوقت نفسه هيبَةَ التعبيرِ ، وتذهب بكَرَاهَةِ الأداءِ المباشرِ لمثل هذا الحدث ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٣) ، فلَمَّا دَلَّ فعلُ النكاحِ على العَقْدِ ، وتضمَّنَ الإشارةَ إلى الشَّدَّةِ، فإنَّ فعلَ (المَسِّ) يوحى باللينِ والسَّلَاسَةِ ، وكانَ المُمَارَسَةَ ، المُعَبَّرَ عنها بقوله تعالى (تَمَسُّوهُنَّ) ، ممارسةً رشيقةً متأنيةً، فكأنمَّا (المَسُّ) هنا مسًّا روحياً إشرافياً، فضلاً عن كونه مسًّا مادياً (٤) .

فكثيراً ما تبتعد اللفظة عن دلالتها الوضعية إلى معنى مجازي، فتكون دلالتها في الموضوع الجديد أعمق في النفس ، لما تعطيه من صورة جديدة في السياق، ففي قوله تعالى : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا

(١) ينظر: معاني القرآن ، للفرَّاء ١٩/٤ .

(٢) ينظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ٢٥٦ .

(٣) سورة الأحزاب ٤٩ .

(٤) ينظر: الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم ١١٣ .

الفصل الثالث ﴿١﴾

وَزَيْنَ نَكَاحٍ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١﴾ ، وفي قوله تعالى ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ ﴿٢﴾ ، جاءت كلمة (بور) ، وهي تعني: الأرض التي لاتصلح للزراعة ﴿٣﴾ ، أمّا في الاستعمال القرآني فقد دلّت على معانٍ يمكن استichائها، كـ (الهلاك والضلال) ﴿٤﴾ ، و(فساد القلب) ﴿٥﴾ ، (وبُطْلانِ النِّيَّةِ والعمل) ﴿٦﴾ ، ففي الآية الأولى دلّت على عدم حسن الظن ﴿٧﴾ ، وهذا ما أعطاه سياق الكلام الذي خصّ الله به المنافقين من الأعراب المتخلفين عن الجهاد، فاستعار الله لهم كلمة (بوراً) للدلالة على انشغالهم بالدنيا وحبّهم لها، وأنّ هذا الحبّ هو كالزرع البائر في أرض بور ، لا يجنى منه شيء، لذا قيل (قوماً بوراً) أي : (هلكى) بلغة عمان ، (فاسدين) بلغة الأزدي ﴿٨﴾ ، أي : وكنتم قوماً فاسدين لاخير فيكم ، وهذه الدلالات جميعها نستوحىها من هذه الكلمة التي وصف الله بها المنافقين الذين تاملوا شيئاً، ثم خاب أمّهم ، كالزرع في أرض لاخير فيها فيخيّب زرعهم .

(١) سورة الفتح ١٢ .

(٢) سورة الفرقان ١٨ .

(٣) ينظر: لسان العرب (بور).

(٤) ينظر : العين (بور) ٢٨٥/٨ ، ومجاز القرآن ، لأبي عبيدة ٢١٧/٢ .

(٥) ينظر: المفردات في غريب القرآن ٦٢ .

(٦) ينظر: معاني القرآن ، للفرّاء ٦٦/٣ .

(٧) ينظر : معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ٦١/٤ .

(٨) ينظر: روح المعاني ٥٠/١٨ .

الفصل الثالث ﴿﴾

والمعاني فيها متقاربة على كل حال ، والأرجح أنها ترجع إلى (الأرض الكنود) التي تستعصي على الزرع ، فلا تثبت ، فهي عاصية وبخيلة، ثم كثر استعماله في الكافر بالنعمة ، الذي لا يؤدّي حقها، وذلك أسوأ البخل . وقريب من (الجحود) بمعنى : نكران الجميل)) (1) .

فَوَقَّعُ كَلِمَةً (كنود) فِي النَّفْسِ يُضْفِي عَلَى النَّصِّ مَعَانِي إِضَافِيَّةً يُمْكِنُ اسْتِشْعَارُهَا ، كَاللُّؤْمِ ، وَالْإِعْتِدَادَ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّضْيِيقَ عَلَى الْعِيَالِ جَرَاءَ الْبَخْلِ ، إِذْ يُعْطِي اللَّفْظَ ، ضَمْنَ السِّيَاقِ ، وَظَيْفَةَ نَفْسِيَّةٍ ، فَضْلاً عَنِ وَظَيْفَتِهِ الْإِخْبَارِيَّةِ ، فَكَلِمَةُ (كنود) بِمَعْنَى الْأَرْضِ الْبُورِ ، الْمُسْتَعَارَةَ لَوْصِفَ الْإِنْسَانَ ، أَعْطَتْ دَلَالَةً نَفْسِيَّةً لِاتِّجَدِهَا فِي اسْتِعْمَالِ غَيْرِهَا . وَمِمَّا يُزِيدُ مِنْ جَمَالِيَةِ النَّصِّ عَوْدَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ عَلَى الْإِنْسَانِ ، أَي : إِنَّهُ شَهِدٌ عَلَى نَفْسِهِ بِذَلِكَ ، وَإِنَّهُ مِنْ أَجْلِ حُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٍ ، أَي : بَخِيلٌ بِالْمَالِ وَضَابِطٌ لَهُ (2) .

ومن الألفاظ التي جمعت رشاقة التعبير إلى انسيابية التأثير ، كلمة (إملاق) في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ (3) . وفي قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (1) ، ف (الإملاق) في هاتين الآيتين بمعنى الافتقار ، وقد أثر التعبير

(1) الإعجاز البياني ٣٧٦-٣٧٧ .

(2) ينظر : تفسير الثعالبي ٤ / ٤٣٦ ، والإتقان ٣٨١ ، والكشاف ٤ / ٢٧٨ .

(3) سورة الإسراء ٣١ .

الفصل الثالث ﴿﴾

القرآني كلمة (إملاق) على (الافتقار) ، في سياق نهى الآباء عن قتل أولادهم ، لأنه يتضمّن إثارة نفسية ، تتمثل في أنه يمسّ عاطفة الأبوة فيهم، فيوجّهها باتجاه أولادهم، بهذه اللفظة التي يشيع استعمالها في رضاع الصغير من أولادهم، إذ جاء في معنى (المَلَقِ) : هو إرضاع الصَّبِيِّ من قبل أمه (2) ، فالسِّيَاقُ هو الذي تطلّب لفظه (إملاق) ، كي تبقى مظنةً للإيحاء والتأثير النفسي .

ومن الألفاظ التي يُشعرُك استعمالها في النصّ بدلالة نفسية ، كلمة (أوّاه) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (3) ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (4) ، وفي كلا الموضعين أعطت دلالة : المنيب المقبل على طاعة الله تعالى بالدُّعاء، والمتأوّه من ذكر النار (5) ، والخائف من الله والراجع إليه ، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فالسِّيَاق الذي جاءت فيه اللفظة يقبل هذه الدلالات كلّها لأنها تليق بإبراهيم عليه السلام ، فهو : العابد، الزاهد، الخائف ، الحلیم ، الرحيم ، العارف بربه تعالى، المتلطف بنفسه وقومه ، سعياً نحو النجاة والإيمان (6) .

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث ٣٥٨ / ٤ .

(٣) سورة هود ٧٥ .

(٤) سورة التوبة ١١٤ .

(٥) ينظر: روح المعاني ١٠٤/١٢ ، والدر المنثور ٣٠٥ / ٤ .

(٦) ينظر: الكشاف ٢١٧/٢ .

الفصل الثالث

ومن الألفاظ التي ولدت وظيفة نفسية في الاستعمال القرآني كلمة (الصَّمَد) في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ (1) فـ(الصَّمَدُ) في اللغة هو : السيد الذي يُصمَدُ إليه في الأمر (2) .

وقد استعملت هذه الكلمة مرّةً واحدة في القرآن الكريم ، ولعلَّ في استعمالها تناسبًا دلاليًا مع اشارتها إلى التوحيد، ومخالفته لآلهة التي ادَّعَوْهَا ، فضلاً عن أنَّ كلمة (الصَّمَد) الدّالة على القوّة والصّلابة تُشعِرُكَ نفسياً بقوّة الله ، فهو القادر على القيام بأيّ شيء ، أي : إنّه يصمد بإزاء أيّ حاجة طلبت إليه تعالى ، ودُعي لتحقيقها ، وإنّه الأول بلا أوّلِيّة ، والآخر بلا حدود لآخريته (3) .

ومن الألفاظ التي أغدق عليها السياق القرآني دلالات عديدة كلمة (الضَّلَال)، وهي لغة مأخوذة من (ضَلَّ الشَّيْءُ) : إذا خفي وغاب، و(ضَلَّ الشَّيْءُ) : إذا ضيَّعته، وقيل : هو العدول عن الصِّراط المستقيم، ومن ثمَّ توسَّعوا في استعماله فاستعمل مع الخطأ أيضاً (4) .

أمّا في القرآن الكريم فقد وردت بمُشتقاتها كثيراً (5) ، إلاَّ أنَّ دلالاتها كانت متعدّدة، كلُّ في ضوء السِّياق الذي وردت فيه ، ففي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا

(١) سورة الاخلاص ١-٢ .

(٢) ينظر: لسان العرب (صمد) ، والمفردات في غريب القرآن ٢٩٧ .

(٣) ينظر : كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية ٤٣/٢ .

(٤) ينظر: لسان العرب (ضلل) ، والمفردات في غريب القرآن ٣٠٩ .

(٥) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٤٢٣-٤٢٧ .

الفصل الثالث ﴿﴾

فَأَوَى (﴿) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿ (1) ، جُعِلَتْ (ضَالًّا) صفةً للرسول ﷺ إلا أنه لم

يرد معناها الحقيقي من عدم الرِّشَاد ، وإنما أُريدَ بها دلالة التَّحْيِيرِ ، فقال (ضَالًّا)

وأراد : مُتَحَيِّرًا (2) . وجاء اختيار (ضَالًّا) ، دون (متحيرًا) لما توحى الضَّلَالَةُ من

معنى الحركة والترقب والشعور بالاغتراب بين قوم يَغْطُونَ بالجهل والعصيان .

وفي موضع آخر نجد جمالية نفسية أُخرى لكلمة (ضَالًّا) في قوله تعالى : ﴿﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿﴾ (3)

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿ (3) . فـ(الضَّلَالُ) هنا ليس بمعنى عدم

الاهتداء إلى الشيء ، وإنما أُريدَ به الشغف بحب يوسف (عليه السلام) ، ويشعر

استعماله في هذا المقام بالأمل ، فإن يعقوب (عليه السلام) مازال مشدودًا إلى أبنه

راجيًا عودته ، واستبعد الأبناء ذلك فعدَّوه (ضلالًا) (4) .

فلكل لفظٍ في القرآن الكريم دلالة نفسية معينة طالما أن الإعجاز القرآني هو

إعجاز للنفس البشرية أمام اختيار الله سبحانه للكلمات ونظمها في سياقات مختلفة ،

لنتكون أقدر ، دون غيرها ، على التعبير عن المعنى وتصويره وتلويحه في إبداع فني

(1) سورة الضحى ٦-٧ .

(2) ينظر: الكشاف ٤/٢٦٤ ، والبحر المحيط ٨/٤٦٨ .

(3) سورة يوسف ٩٤-٩٥ .

(4) ينظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ٣٣٢ ، والتفسير البياني للقرآن الكريم ١/٤٠١ .

الفصل الثالث 

فمن الصور المؤثرة في النفس البشرية قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾⁽¹⁾ ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾⁽²⁾ . فلكلمة (طمس) في هذه الآيات ميزة جمالية عالية لما تتركه من

أثرٍ نفسي ، إذ تدور دلالتها في السياقين على العذاب والترهيب، ففي الآية الأولى دلت كلمة (طمس) على ذهاب البصر وزوال نظره، وقد دل استعمال (الطمس) هنا على بشاعة المنظر ، فلا يمكن تخيل الوجوه من دون أعين إذ يوحي إليك المعنى بانمحاء معالم العيون، حتى كأن لم يكن لها من قبل في هذا الوجه وجود⁽³⁾ .

أمّا في الآية الثانية فيوحي استعمال اللفظ بصورة مفزعة للعذاب والترهيب، بطمس وجوه أصحاب الكتب السماوية الذين ضلُّوا عمّا فيها من الرِّشَاد، فكانوا جديرين بأن يمحو الله وجوههم⁽⁴⁾ .

وفي كلا المعنيين اقتراب من المعنى اللغوي، فـ(انطمسُ) في اللغة بمعنى: امحى ، ودرَسَ ، ومن ثمَّ أطلق على ذهاب نور الشيء، كـ(طمُسِ البَصْرِ) أي :

(١) سورة يس ٦٦ .

(٢) سورة النساء ٤٧ .

(٣) ينظر: معاني القرآن ، للفراء ٣/٣١١ ، ومعاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ٤/٢٩٣ .

(٤) ينظر : الدر المنثور ١/٣٢٦ ، والكشاف ٤/٢٠٤ .

العمل الثالث 

ذهاب نوره وضوئه، وكذلك (طمسُ الكواكب) : ذهابُ ضوئها ، ومحققها . فتأويل
(طَمَسُ الشَّيْءِ) : ذهابُه عَن صورته (1) .

فاستعمال كلمة (طمس) في الآيتين رمز وإشارة إلى معنى العذاب والترهيب
بطمس صورة الشيء واستبدالها بصورة مفزعة .

(1) ينظر: لسان العرب (طمس) .

ملائمة البحث ونتائجه



خاتمة البحث ونتائجه

بعد هذه المسيرة والشيقة من الدراسة والاستقصاء لألفاظ النص القرآني ، والخوض في غمار كثير من الآيات القرآنية المباركة ، وما أشعته من أنوار لغوية ودلالية وبلاغية، وتبيان مفصل لعملية التطور التي تحدث للفظ في موضعه والغاية منه، أجد من المفيد أن أجمل أهم النتائج التي وصل إليها البحث ، وهي :

١- إن التطور في اللغة يحدث بسبب عوامل عديدة، تاريخية، ودينية، واجتماعية، وهو وإن كان يشمل اللغات كلها ، إلا أن ما أثرى اللغة العربية، وأغنى تطورها اللغوي والدلالي ، هو مجيء الإسلام ، ونزول القرآن. وقد لاحظنا ذلك واضحاً في عدوله عن الألفاظ النابية ، إلى ألفاظ عذبة لائقة بنفوس مؤمنة مهذبة ، وفي استعماله أيسر الألفاظ على النطق، وأبينها في الدلالة على المعنى، وأحرصها على مطابقة القول لمقتضى الحال، فأصبحت اللفظة القرآنية كائناً جديداً حياً متميزاً من اللفظة المعجمية، فلقد ألبسها السياق القرآني حلة جديدة ، وأضفى عليها شحنات روحية، مما جعلها تتجاوز كونها أصوات مادة معجمية، فهي ترسم ، وتُشخص ، وتُجسم ، فنتسع دلالتها الإسنادية الضيقة، لتحمل دلالات واسعة ضمن نظم الكلام وسياقه وأسلوبه .

٢- إن القرآن خاطب النفس البشرية بأرقى أساليب التعبير، ففي تصويره ماترتاح إليه العين والأذن، وفيه ما يُنفر عنه ، من خلال دقة بارعة في تصوير الجميل والقبيح، كما في رسم مشاهد يوم القيامة، ووصف الجنة والنار ؛ لأن الغاية منه هي غاية دينية، فكان أسلوبه في الترغيب والترهيب معتمداً على فنون اللغة ، لأنه معجزة بيانية، لذا كان أثره



- واضحاً في تطور فنون البيان ، كـ(المجاز، والتشبيه، والاستعارة، والكناية) ، واتساع مفاهيمها.
- ٣- وحين بحثنا عن تطور الكلمة في النص، وتحولها الدلالي، وجدنا أن لهذا التطور ظواهر معينة ، منها تطور (الدلالة الصوتية، والدلالة الاجتماعية، والدلالة الإيحائية، والدلالة الهامشية)، وكان لكل ظاهرة من هذه الظواهر في القرآن أثرٌ كبير في تأدية المعنى وتعدده.
- ٤- إنَّ للدلالة الصوتية في القرآن أثرًا في استدعاء المعنى، أو الإيحاء به ، فقيمة الصوت تكمن في الإفادة المعنوية ، بما يثيره من تصور وإيحاء بالمعنى، فالقرآن هو كنز اللغة الأعظم ، لافي مفرداته وحدها ، بل في طريقة تركيب هذه المفردات وانسجامها، ولا سيَّما انسجامها الصوتي .
- ٥- إنَّ الدلالة الاجتماعية للألفاظ قد ضيقَ بعضها، واتسع بعضها الآخر، من خلال الاستعمال القرآني لها.
- ٦- إنَّ اللفظة في النصِّ القرآني قد توحى بأكثر من مدلول، وتنطوي على جملة من المعاني، فكلَّما كانت إيحائية الكلمة عالية، كانت قيمة تلك الكلمة من الناحية الفنية عالية أيضًا.
- ٧- إنَّ الألفاظ في النص القرآني قد تتفرَّغ عنها ظلال كثيرة للمعنى، وتتسع تأويلاتها في نفوس السَّامعين، فتظهر خصوصية الاستعمال القرآني في أنها لاتنقود المتلقي إلى الغرض مباشرة، وإنما عن طريق التأمل والإستنباط.
- ٨- إنَّ لتطور الألفاظ في النصِّ وظائف، فلكلِّ كلمةٍ معنى، ولكلِّ معنى وظيفة في النصِّ الذي يؤلفه نظم خاص من الكلمات، وإنما لانبثقت عن معنى الكلمة، بل عن استعمالها، ومايولده هذا الاستعمال من بُعد إشاري.

٩ - إنَّ اللفظة القرآنية تجاوزت حدودها المعجمية ، بغية التأثير الجمالي الفني، فعمدت إلى تصوير الطبيعة الصامتة والمتحركة، وتقريب مالميس بمألوف، وإثارة الحس والبصيرة.

١٠ - إنَّ للألفاظ في النص القرآني (وظيفة عقلية) فاللغة أداة لمخاطبة العقل، ولغة القرآن لغة محاجة للفكر البشري، فأحالت عملية خلق الكون والتجربة البشرية إلى عالم مقول تحدّد معناه العلاقة الحاصلة بين الكلمة والفكر، لذا كان اختيار الألفاظ في المحاورات العقلية اختياراً دقيقاً موفّقاً في تأدية المعنى.

١١ - من خلال دراسة (الوظيفة النفسية) للألفاظ داخل البناء القرآني المعجز، يبدو أنّ كثيراً من الألفاظ تنقل من دلالتها المادية إلى دلالة معنوية جديدة، فاللغة ليست مجرد تأليف بين الحروف والكلمات، بل هي نظم على وفق المعاني، يصيب موضعاً في النفس، لذا يُعمد إلى اختيار لفظة ، بدلاً من لفظة أخرى ، لما لها من تأثير نفسي.

وبعد فالأطروحة محاولة لتتبع عملية التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني ، وكشف الجوانب البلاغية وراء ذلك ، بأسلوب توخى العمق البلاغي والدلالي ، فإنَّ وُفِّقْتُ إلى ما رَمَيْتُ إليه فبفضل من الله وحده، وان كانت الأخرى فلي من سلامة القصد خير عذير .

وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوَفِّقَنِي لخدمَةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، إِنَّهُ نَعَمُ الْمَوْلَى وَنَعَمُ

النصير.

مصادر البحث وصياغته

مصادر البحث ومراجعته

أولاً: المصادر والمراجع.

- القرآن الكريم .
- الإتجاه العقلي في التفسير - دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة - نصر حامد أبو زيد ، دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣ .
- الإتيقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، مطبعة حجازي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٤١ .
- أثر القرآن الكريم في اللغة العربية- أحمد حسن الباقوري ، دار المعارف- القاهرة ١٣٥٤هـ.
- أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه - توفيق الزبيدي، الدار العربية للكتاب - طرابلس (د.ت).
- الإحكام في أصول الأحكام - علي بن احمد بن حزم (ت ٣٢٨هـ) ، دار الافاق الجديدة - بيروت ١٤٠٠هـ.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت ٩٥١هـ) ، دار احياء التراث العربي - بيروت (د.ت).
- أساس البلاغة - جار الله محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، دار صادر - بيروت ١٩٧٩ .

- أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، تحقيق : محمد الفاضلي، المكتبة العصرية - بيروت ٢٠٠٣ .
- أسرار التكرار في القرآن - محمود بن حمزة الكرمانى (ت ٥٠٥ هـ) ، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ .
- أصول البيان العربي - رؤية بلاغية معاصرة - محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٨٦ .
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرقي - عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطيء) دار المعارف - مصر ١٩٧١ .
- إعجاز القرآن - أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) ، تحقيق: أحمد صقر ، دار المعارف - القاهرة (د.ت).
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي ، راجعه وصححه وضبطه: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة - القاهرة (د.ت).
- الأمالي - أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت ٣٥٦هـ) ، مطبعة السعادة - مصر ، الطبعة الثالثة ١٩٥٣ .
- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) - الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

- الأمثال في القرآن الكريم - للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر الذرعي
الدمشقي (ت ٧٥١ هـ) ، تحقيق ابراهيم محمد ، دار النشر مكتبة الصحابة
- طنطا ، الطبعة الأولى ، مصر ١٤٠٦ هـ .
- الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الخلاف - عبد الله
بن السيد البطليوسي (ت ٥٢١ هـ) ، تحقيق : محمد رضوان الداية، دار
الفكر - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر
الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) ، تحقيق : عبد القادر عرفات حسونه،
دار الفكر - بيروت ١٩٩٦ .
- الإيضاح في علوم البلاغة - الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) ، تحقيق :
محمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتاب اللبناني - بيروت، الطبعة
الخامسة ١٩٨٠ .
- البحر المحيط - أبو حيان الأندلسي الغرناطي (ت ٧٥٤ هـ) ، دار الفكر
للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧٨ .
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد - محمد بن أحمد بن رشد القرطبي
(ت ٦٧٢ هـ) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة، الطبعة
الثانية ١٣٧٠ هـ.
- البرهان في علوم القرآن - بدر الدين محمد بن ابي عبد الله الزركشي
(ت ٧٩٤ هـ)، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية
- سوريا ١٩٥٧ .

- البرهان في وجوه البيان - اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (ت ٣٣٥ هـ) ، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني - بغداد، الطبعة الاولى ١٩٦٧.
- بنية اللغة الشعرية - جان كوهين، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر - المغرب ١٩٨٩.
- بيان إعجاز القرآن - حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) ، ضمن ثلاث رسائل في الاعجاز، تحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الأولى (د.ت).
- البيان والتبيين - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - مصر، الطبعة الثانية ١٩٦٠ .
- تأويل مشكل القرآن - عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، شرحه ونشره : أحمد صقر، دار التراث - القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٣.
- التبيان في أقسام القرآن - ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) ، صححه وعلق عليه: الشيخ طه يوسف شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٢.
- التبيان في تفسير غريب القرآن - شهاب الدين احمد بن محمد المصري (ت ٨١٥ هـ)، تحقيق: فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث - طنطا، الطبعة الأولى ١٩٩٢ .

- تذكرة الأريب في تفسير الغريب ، للإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ، دار النشر ، إحياء الكتب العربية ، (د . ت).
- تطور البحث الدلالي - دراسة في النقد البلاغي واللغوي - محمد حسين علي الصغير، مكتبة العاني - بغداد ١٩٨٨ .
- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن - عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار - الأردن، الطبعة الأولى ١٩٨٥ .
- التطور اللغوي التاريخي - ابراهيم السامرائي ، دار الرائد للطباعة - بغداد ١٩٦٦ .
- التعبير الفني في القرآن الكريم - بكرى شيخ أمين ، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الاولى ١٩٩٤ .
- تفسير الجلالين - جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، ملتزم الطبع : عبد الحميد أحمد حنفي - القاهرة (د.ت).
- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن - حنفي أحمد ، دار المعارف - مصر (د.ت).
- تفسير القرآن الكريم - اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، دار الفكر - بيروت ١٤٠١ هـ.
- التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوره الى القرن السادس الهجري ، المطبعة الرسمية _ منشورات الجامعة التونسية ١٩٨١ .

- تلخيص البيان في مجازات القرآن - الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٥ .
- تلخيص الخطابة - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٩٥هـ)، تحقيق : عبد الرحمن بدوي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٠ .
- التلخيص في علوم البلاغة - جلال الدين القزويني (ت ٧٣٩هـ) ، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي - بيروت (د.ت).
- تنوير المقياس من تفسير ابن عباس (ت ٦٨هـ) ، لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشافعي صاحب القاموس (رضي الله تعالى عنهما) ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .
- ثلاث كتب في الاضداد - الاصمعي (ت ٢١٦هـ) ، والسجستاني (ت ٢٥٥هـ)، وابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) ، نشر : اوغست هافنر ١٩١٢ .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار الفكر - بيروت ١٤٠٥هـ .
- جامع البيان في تفسير القرآن - محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، دار المعرفة - بيروت (د.ت).
- الجامع الصغير - محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي (د.ت).

- الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق : أحمد عبد البردوني، دار الشعب - القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ.
- جماليات المفردة القرآنية في كتب الاعجاز والتفسير - أحمد ياسوف ، دار المكتبي - سوريا، الطبعة الأولى ١٩٩٤.
- الجمان في تشبيهات القرآن - ابن نايقا البغدادي (ت ٤٨٥هـ)، تحقيق : أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة دار الجمهورية - بغداد ١٩٦٨.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع - أحمد الهامشي ، مطبعة الاعتماد - مصر ، الطبعة العاشرة ١٩٤٠ .
- جواهر الحسان في تفسير القرآن - عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (د.ت).
- جواهر القرآن ودرره - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد رشيد رضا ، دار إحياء العلوم - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥.
- الحيوان - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده - مصر، الطبعة الأولى ١٩٣٨.
- خزنة الأدب وغاية الارب - تقي الدين أبو بكر علي المعروف بابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، شرح : عصام شعيتو، منشورات دار الهلال - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧ .

- الخصائص - أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٥٢ .
- الدرّ المنثور- جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الفكر - بيروت ١٩٩٣ .
- دراسات في علم اللغة - كمال بشر، دار المعارف - مصر ١٩٦٩ .
- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني - حسام سعيد النعيمي ، دار الرشيد للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد ١٩٨٠ .
- دراسة أدبية لنصوص من القرآن - محمد المبارك، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت (د.ت).
- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني - القاهرة ١٩٨٤ .
- دلالة الألفاظ - ابراهيم انيس، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٩٦٣ .
- دور الكلمة في اللغة - ستيفن اولمان ، ترجمة : كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب - القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٢ .
- ديوان الخنساء، دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٣ .
- الرسالة - محمد بن ادريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار التراث - القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .

- الرسالة الشافية - ضمن كتاب (دلائل الإعجاز) - عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني - القاهرة ١٩٨٤.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ) ، دار إحياء التراث العربي - بيروت (د.ت).
- الزينة في الكلمات الاسلامية العربية - ابو حاتم محمد بن ادريس الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، دار الكتاب العربي - مصر ، الطبعة الثانية ١٩٥٧.
- سبل الاستنباط من الكتاب والسنة - دراسة بيانية ناقدة - محمود توفيق ومحمد سعد ، مطبعة الأمانة - مصر ١٤١٣هـ.
- سر الفصاحة - عبدالله بن محمد سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت ٤٦٦هـ) ، شرح وتصحيح : عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد صبيح وأولاده - الأزهر ١٩٦٩.
- الشفاء - أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) ، تحقيق محمد سليم سالم ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥٤.
- الصحابي في فقه اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) ، مطبعة بيروت ، ١٩٦٤.
- الصورة الفنية في المثل القرآني - دراسة نقدية وبلاغية - محمد حسين علي الصغير، دار الهادي - بيروت ١٩٩٢.

- الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ) ، مطبعة المقتطف - مصر ١٩١٤ .
- العبادة في الاسلام - يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٩٧٥ .
- علم الدلالة - أحمد مختار عمر ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع (د.ت).
- علم الدلالة والمعجم العربي- عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي وداوود غطاشة، دار الفكر للنشر والتوزيع - عمان ١٩٨٩ .
- علم اللغة الحديث - الأسس الأولى - دي سوسير وعلم اللغة - رولون س . ولز ، ترجمة : يوثيل يوسف عزيز (الموسوعة الصغيرة) ، دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٨٦ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - ابن رشيد القيرواني (ت ٤٥٦هـ) ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - مصر ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ .
- العين - الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) ، تحقيق : مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي - بغداد (د.ت).
- فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير - محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ، دار ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر - بيروت (د.ت).

- فقه اللغة وخصائص العربية - دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد - محمد المبارك، دار الفكر - بيروت - الطبعة الخامسة ١٩٧٢ .
- فن الشعر - أرسطو طاليس، ترجمة : عبد الرحمن بدوي وشكري عباد، دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٦٧ .
- فنون الأدب - ه.ب تشارلتن، ترجمة : زكي نجيب محمود ، القاهرة ١٩٤٥ .
- فنون بلاغية (البيان والبدیع) - أحمد مطلوب ، دار البحوث العلمية - بغداد ١٩٧٥ .
- في البحث الصوتي عند العرب - خليل ابراهيم العطية (الموسوعة الصغيرة)، منشورات دار الجاحظ للنشر - بغداد ١٩٨٣ .
- في ظلال القرآن - سيد قطب - مطبعة إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٦٧ .
- القاموس الفقهي : لغة واصطلاحاً - سعدي أبو حبيب ، دار الفكر - دمشق، ١٤٠٢هـ .
- قواعد النقد - لاسل أبركرمي، ترجمة : محمد عوض محمد ، سلسلة المعارف العامة - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٥٦ .
- الكامل في اللغة والأدب - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته، مطبعة نهضة مصر - القاهرة ١٩٥٦ .

- الكتاب - أبو عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (ت ١٨٠هـ) ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ١٩٦٦ .
- كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر - أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية - مصر ، الطبعة الأولى ١٩٥٢ .
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ) ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت (د.ت).
- لحن العامة والتطور اللغوي - رمضان عبدالنواب، دار المعارف - مصر ، الطبعة الأولى (د.ت).
- لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى (د.ت).
- اللغة العربية - معناها ومبناها - تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .
- المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم ، محمد حسين الصغير ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ضياء الدين بن الاثير (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي الرياض، الطبعة الثانية ١٩٨٣.
- المجاز في البلاغة العربية - مهدي صالح السامرائي، دار الدعوة - سوريا، الطبعة الأولى ١٩٧٤.
- مجاز القرآن - أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت ٢١٠هـ) ، علق عليه: محمد فؤاد سزكين ، منشورات محمد سامي أمين الخانجي الكتبي - مصر، الطبعة الأولى ١٩٥٤.
- مجاز القرآن وخصائصه الفنية - محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ، الطبعة الاولى ١٩٩٤م.
- مجمع البحرين - فخر الدين بن محمد علي بن أحمد الطريحي (ت ١٠٨٥هـ) ، تحقيق : أحمد الحسيني ، مطبعة الآداب - النجف الأشرف ١٩٦١.
- المحررّ الوجيز من كتاب الله العزيز (تفسير ابن عطية) - أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت ٤٥١هـ)، تحقيق: الرحالي الفاروقي، وعبد الله بن ابراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال السيد ابراهيم ، ومحمد الشافعي صادق العناني، الطبعة الأولى ، القاهرة - ١٩٧٧.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل- ابو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧١٠ هـ) ، مطبعة البابي الحلبي - القاهرة (د.ت).

- المستصفي في علم الأصول - أبو حامد محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٣ هـ.
- مشكلة الحياة - زكريا ابراهيم، مكتبة مصر - القاهرة، الطبعة الاولى ١٩٧١.
- معالم التنزيل - أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت ٥١٦ هـ)، تحقيق : خالد العك ومروان سوار ، دار المعرفة - بيروت ١٩٨٧.
- معاني الحروف - علي بن عيسى الرّماني (ت ٣٨٦ هـ) ، تحقيق عبد الفتاح اسماعيل ، دار الشروق ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤.
- معاني القرآن - أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠.
- معاني القرآن - علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩ هـ)، اعداد وتقديم: عيسى شحاته عيسى، دار قباء للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٩٨.
- معاني القرآن وإعرابه - إبراهيم بن السريّ الزجاج (ت ٣١١ هـ)، تحقيق عبدالجليل عبدة شلبي، منشورات المكتبة العصرية - بيروت ١٩٧٤.
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي - عن الكتب الستة ، وعن مسند الدارمي ، وموطأ مالك ، ومسند أحمد بن حنبل ، رتبه ونظمه ونشره : د.أ. بي وينسك أستاذ العربية بجامعة لندن ، مكتبة بريل في مدينة ليدن ، سنة ١٩٣٦ .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٩.

- المعنى الأدبي من الظاهرانية إلى التفكيكية - وليم راي، ترجمة: يوثيل يوسف عزيز ، دار المأمون للترجمة والنشر - بغداد، الطبعة الأولى ١٩٨٧.
- مفاتيح الغيب - أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن المعروف بالفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، مطبعة البهية - مصر (د.ت).
- مفتاح العلوم - يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف ، مطبعة الرسالة - بغداد ، الطبعة الأولى ١٩٦٤.
- المفردات في غريب القرآن - أبو القاسم الحسين بن محمد ، المعروف بالراغب الاصبهاني (ت ٥٠٢هـ) ، ضبط : هيثم طعيمة، دار احياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
- المقتضب - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ) ، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمه ، عالم الكتب- بيروت (د.ت).
- مناهج البحث في اللغة - د . تمام حسّان ، مطبعة القاهرة ١٩٥٥.
- مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ، أمين الخولي ، مطابع طنطا ، مصر ١٩٦١.
- المنار - محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار - مصر، الطبعة الثالثة ١٣٦٧هـ.
- مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد عبد العظيم الزرقاني ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦.

- من بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، مكتبة نهضة مصر - الفجالة ١٩٥٠.
- الموافقات في أصول الشريعة - ابراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧١١هـ)، دار الفكر العربي - بيروت (د.ت).
- موسيقى الشعر - د . ابراهيم أنيس مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥.
- نظرية الادب - رينيه ويليك وأوستن وارين ، ترجمة : محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١.
- النقد الادبي الحديث- محمد غنيمي هلال ، دار العودة - بيروت، ١٩٧٣.
- نقد الشعر - قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية - بيروت (د.ت).
- النقد العربي في ثلاثة محاور متطورة ، الموسوعة الصغيرة ، العدد ٢٢٤ ، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٦.
- النكت في إعجاز القرآن أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني (ت ٣٨٦هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف - مصر (د.ت).
- النهاية في غريب الحديث والأثر - ابن الاثير الجزري (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق طاهر أحمد الراوي، ومحمود احمد الطناحي، دار احياء الكتب العربية - مصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٣.

- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم - هارون بن موسى (ت ١٧٠هـ) ، تحقيق : حاتم صالح الضامن، دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٨٩.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ابو الحسن علي بن احمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ) ، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم - دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

ثانياً: الرسائل والاطاريح :

- الأثر الدلالي لحذف الاسم في القرآن الكريم - محمد جعفر، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة الكوفة ١٩٩٧.
- أساليب الدعاء في القرآن الكريم (دراسة فنية بلاغية) - محمد محمود عبود زوين ، رسالة ماجستير ، كلية القائد للتربية للبنات - جامعة الكوفة ١٩٩٧ .
- الإستعارة في القرآن الكريم - أحمد فتحي رمضان ، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة الموصل ١٩٨٨.
- الألفاظ الاسلامية وتطور دلالاتها إلى نهاية القرن الثالث الهجري - يعرب مجيد مطشر العبيدي، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة بغداد ١٩٩٣ .
- ألفاظ الهدى والضلال في القرآن الكريم - دراسة دلالية ، فتوح حسين فدعوس الجبوري، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة بغداد ، ١٩٩٨ .
- التراكم الدلالي في النصّ القرآني - مجيد طارش عبد ، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات - جامعة بغداد ٢٠٠٠.

- الجناس في القرآن الكريم - أسماء سعود الخطاب ، رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة الموصل ١٩٩٨ .
- الدلالة الصوتية في القرآن الكريم - كريم مزعل محمد اللامي، رسالة ماجستير ، كلية التربية - الجامعة المستنصرية ١٩٩٧ .
- الدلالة المركزية والدلالة الهامشية بين اللغويين والبلاغيين - رنا رؤوف طه، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد ٢٠٠٠ .
- الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم - محمد جعفر محيسن ، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة القادسية ٢٠٠٢ .
- سورة هود عليه السلام - دراسة لغوية دلالية - عبد الكريم ناصر محمود الخزرجي، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب - جامعة البصرة ٢٠٠٠ .
- الصورة السمعية ودلالاتها البلاغية في القرآن الكريم - عباس حميد السامرائي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة بغداد ٢٠٠١ .
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٩٥هـ) (دراسة دلالية في ضوء علم اللغة الحديث) - محمد دحام الكبيسي، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة بغداد ١٩٩٩ .
- منهج النسفي في الكشف عن دلالة الألفاظ من خلال كتابه (طلبة الطلبة) عبد الكريم علي عمر المغازي ، رسالة ماجستير، كلية التربية - جامعة الموصل ١٩٩٩ .

ثالثاً: المجالات والدوريات :

- الجرس والايقاع في تعبير القرآن - كاصد ياسر حسين الزبيدي، مجلة آداب الرافدين ، تصدر عن كلية الاداب - جامعة الموصل، العدد ٩ ، ١٩٧٨ .
- علم الدلالة عند العرب - عاطف القاضي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان ١٨ و١٩ ، ١٩٨٢ .
- موسيقى الفواصل في القرآن الكريم - السيد أبو الفضل ، مجلة الخفجي، مجلة شهرية تصدرها دائرة العلاقات العامة - شركة الزيت العربية المحدودة ، العدد ٧ ، ١٩٨٣ .

رابعاً : البحوث غير المنشورة :

- استعمال الاستفهام في معنى التّفخيم والتّهويل في القرآن الكريم ، بحث مخطوط للدكتور قيس اسماعيل الأوسي .
- التناسب في القرآن الكريم ، بحث مخطوط للدكتور قيس اسماعيل الأوسي .

**Ministry of Higher Education & Scientific Research
University of Baghdad
Colloge of Education (Ibn Rushid)
Department of Arabic Language**

**In Ferential perevelopment for words
in Quranic Text
(Rhetorical Study)**

**A Thesis Sutmitted by
*JENAN MANSOR KADHEM ELJEBORY***

**To the council of College of Education
(Ibn Rushid) as a partial full filment for the
requirements of a ward Ph. D in Arabic
Languages and its Arts**

**Supervisor
*Prof. Dr. QAIS ISMAEL MAHMOOD AL-Ausy***

1426 H.

2005 M.

Abstract

This research titled (Inferential development for words in Quranic text – Rhetorical study) is about how to transform from the meaning to another in Quranic text. We find the word in language has meaning common in Arab speaks but it may change to another meaning allegory .

In Quranic use the inferentials of some words to new meaning which Arabs has not familiar with such as worship worlds, words that describe scenes of Judgment day, Heaven and Hell, as well as the matters approve present of god and his ability to create the universe to the final destiny of world life .

So it is the desire to study these words through the methods in which it come in to know how they are developed and the matter that give them this development with in the text at inferences and functions that make Quranic text special and different from Arabs speech in it precise a achieve to the meaning in rhetoric simple way , was the motive to study this subject , there are many studies of Quran in their various subjects. Still Quran is riched fountain in which the studies in researches and to take from its high language. Thus when a study achieved another study comes .

The research came in introduction which and who proceed and its title and exhibit for most important references and depended references in research and it followed by preface titled inferential development its concepts and branches, affection of who of wholly Quran in development of inferential development, of inferential development .

First chapter is titled (Inferential development for Arabic rhetoric principles in Quran. It is divided in four sections .

- First section Allegory development in Holy Quran.
- Second Section Simili development in Holy Quran .
- Third Section Metaphore development in Holy Quran .
- Forth section Metony development in Holy Quran .

Second Chapter titled phenomena's of inferential development in Holly Quran .

It is devided in to four sections

- First section sonic inferential development .
- Second section social inferential development .
- Third section Suggestive inferential development .
- Forth section margin inferential development .

Third chapter about inferential development in Quranic text words . It is divided into three sections .

- First, its artificial function .
- Second, its mental function .
- Third , its psychological function .

Then comes the research conclusion and its more important results such us : The great affection of Holly Quran in developing Arabic language , its inferences expansion through development process which occur in Qnran use to words .

As well as the phenomena's of inferential development gives to Quran words of beautiful meaning consistent in the text. In sonic conference we find that the voice reflect its meaning, in social inferential function it adds or neglect the meaning of a word and aominate new meaning reanired by Islamic religion , suggestive and margins in fenential it reflects new shadows generated by text .

This development of words in these inferences gives the word in its position certain function such us artificial function such us artificial function . It give beautiful scene to reach the meaning . As Quran is convincing religion, the mental function has greatrole in illustrate worshiping and what are needed from people through convineuy and evidents. This is as peach to human being and affecting on it by desire or by scoring and this is the role of psychological function .

Then followed by refrences lisl.